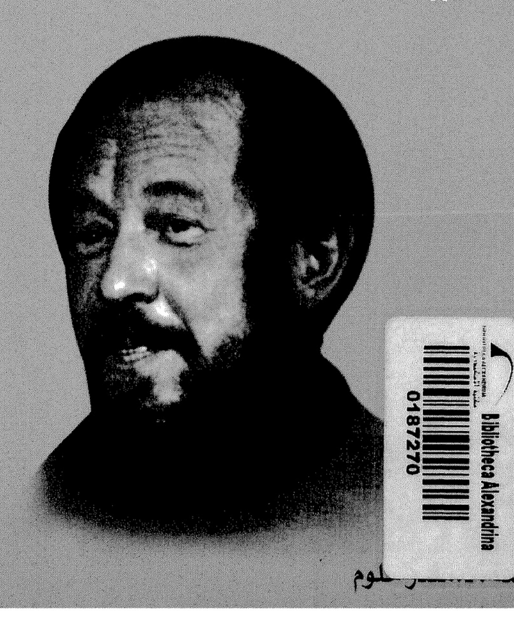
١٩٧٠

مكتبة نوبل

ألكسندر سولجنتسين

يوم واحد من حياة إيڤان دنيسوڤيتش



ترجمة [illegible]ر [illegible]لوم

يوم واحد من حياة
إيڤان دنيسوفيتش



مكتبة نوبل

اسم المـــؤلف : ألكسندر سولجنتسين
عنوان الكتـاب : يوم واحد من حياة
إيفان دنيسوفيتش
ترجـــمـــة : د. منذر حلوم
النـاشـــــر : المدى
الطبـعـة الأولى : ١٩٩٩

Author : Alexandre Soljenitsyne
Title: One Day of Ivan
Dnisofich's Life
Translator: Dr. Munthir Halloom
Al- Mada : P. C.
First Edition 1999

دار المدى للثقافة والنشر

سوريا - دمشق صندوق بريد : ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦

تلفون : ٢٧٧٦٨٦٤ - ٢٣٢٢٢٧٥ - ٢٣٢٢٢٧٦ - فاكس : ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada : Publishing Company F.K.A. Cyprus

Damascus - Syria , P.O.Box . : 8272 or 7366 .

Tel: 2776864 - 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289

١٩٧٠
مكتبة نوبل

ألكسندر سولجنتسين

يوم واحد من حياة إيفان دنيسوفيتش

ترجمة

د. منذر حلوم

في الخامسة صباحاً ، كما في كل صباح ، ضربوا على عارضة الحديد عند برّاكة القيادة إيذاناً بالاستيقاظ . وما كاد الرنين المتقطع يخترق زجاج النافذة المتجلد بسماكة إصبعين ، حتى تلاشت تلك الرنّات بعد انطلاقها بآن قصير :

كان الجو بارداً ، ولم يكن لدى الخفير المزيد من العزم لأن يضرب بقوة أكبر .

خرس الحديد ، وهناك ، وراء الزجاج ، كانت الأشياء كلها توحي بأن الوقت منتصف الليل ، عندما نهض شوخوف متجهاً إلى الباراشا* كانت الظلمة ماتزال تلف كل شيء ، وحدها أضواء ثلاثة صفراء اخترقت النافذة : اثنان منهما من خارج المعتقل ، أما الثالث فمن الداخل .

لم يتزحزح أحد لفتح باب البّراكة ، ولم يُسمع بعد صوت المنادي على سخرة البرّاكة ليعلقوا الباراشا على عصا ، ويحملوها إلى الخارج .

---

* باراشا : وعاء كبير يتغوط فيه المعتقلون يوضع داخل المهجع أو الزنزانة .

لم يتأخر شوخوف ، في يوم من الأيام ، عن ضربات الإيقاظ ، بل هو دائماً ينهض معها . كان مايزال هناك ساعة ونصف الساعة من الوقت حتى الاجتماع الصباحي ، وكان هذا الوقت شخصياً ، خاصاً ، غير رسمي ، ومن خبر حياة المعتقل ، يستطيع دائماً في مثل هذا الوقت أن يكسب بعض الدخل : كأن يخيط قراباً من بطانة عتيقة للقفاز ، أو أن يوصل لعريف مجموعته جزمته الجافة إلى السرير مباشرة ، حتى لا يمشي حافياً للبحث عنها في كومة الجزمات ، أو أن يركض إلى الندوة لخدمة هذا وذاك ، أو أن يكنس مكاناً ما ، أويحضر شيئاً ما ، أوأن يذهب إلى المطعم ليجمع القصعات من الطاولات ، ويكوّمها فوق بعضها بعضاً في المجلى ، أملاً بالحصول على شيء ما يؤكل ، إنما الراغبون في أمر كهذا كثر ، ولا خلاص منهم ، خاصة إذا كانت هناك بقايا طعام في القصعة ، فلا حيلة إلاّ البدء بلعقها في الحال .

تذكر شوخوف بقوة كلمات كوزيومين ، الذي كان أول عريف مجموعة يلتقيه ، وكان ذئب معتقلات عتيق ، أمضى حتى عام ثلاثة وأربعين اثنتي عشرة سنة في المعتقل . قال كوزيومين للمعتقل المربوط معه ، والذي ساقه إلى هنا من الجبهة ، عبر ممر أجرد في الغابة . قرب النار :

ـ هنا يا شباب يسود قانون التايغا ، هنا أيضاً يتمكن الناس من العيش . أتعلمون ، من هو الذي يفطس هنا ؟ من يلعق القصعات ، من يحلم بالمستوصف ، من يذهب إلى الإدارة للوشاية .

فيما يتعلق بالإدارة فإن كوزيوين قد بالغ قليلاً ، فهؤلاء يجيدون حماية أنفسهم ورعايتها ، ولكنهم يراعون أنفسهم على حساب دماء الآخرين .

شوخوف ، دائماً ينهض في الموعد المحدد للاستيقاظ ، أما اليوم ،

فإنه لم ينهض . إنه يشعر منذ البارحة بتوعك صحته ، يشعر بالقرس ، وأحياناً بالنقزان . إنه لم يحس بالدفء طوال الليل . كان يخيل إليه ، وهو مستلقٍ على فراشه ، حيناً أنه عليل الجسد ، وحيناً آخر أنه بدأ يتعافى . كم تمنى شوخوف لو أن الصباح لا يسرع كعادته بالقدوم .

بيد أن الصباح جاء في حينه ، وأنّى لك أن تتدفأ هنا ، فالنوافذ مكسوة بطبقة من الجليد ، وعلى الجدران ، أيضاً ، غزل الجليد نسيجه الثلجي الأبيض على مدى اتصالها بالسقف ، في جميع أنحاء البرّاكة الكبيرة . لم ينهض شوخوف ، بل ظل مستلقياً على سريره العلوي ، ملتحفاً ببطانيته ومعطفه ، حاشراً قدميه معاً في كم سترته المطوي ، متكوّراً ، لا يظهر منه شيء .

هو لم يكن يرى ، ولكنه كان يعرف من خلال الأصوات ما كان يجري في البّراكة ، وفي زاوية مجموعتهم بالذات . ها هم سخرة البرّاكة يحملون واحدة من الباراشات ، التي تتسع لثمانية دلاء ، ويتحركون بها بصعوبة في الممر . هذا العمل يعد من أعمال الضعاف العاجزين ، يعد عملاً سهلاً ، ولكن جرّبْ حملها دون أن تدلق منها شيئاً! ها هم في المجموعة الخامسة والسبعين أسقطوا على الأرض جزمة عن نشافة الجزمات الخاصة بمجموعتنا .

كان اليوم دورنا في تجفيف الجزمات .

احتذى عريف المجموعة ، ومساعده جزمتيهما صامتين ، بينما كان سريراهما ، من تحتهما ، يصران .

سيذهب معاون العريف إلى تقطيع الخبز الآن ، أمّا العريف ، فسيذهب إلى برّاكة العمليات ، إلى موزعي المهمات .

سيذهب ، ولكن ليس ببساطة كما يفعل كل يوم برواحه إلى إدارة المهمات ، تذكّر شوخوف ـ فاليوم سيتقرر مصيرهم ، يريدون دمج مجموعتهم مع المجموعة ١٠٤ لبناء محترفات في تجمع «المدينة الاشتراكية» الجديد . والمدينة الاشتراكية تلك ، أرض جرداء تكدس فيها الثلج . كان علينا قبل أي شيء هناك أن نحفر الجور ، وننصب الأعمدة ، ونشد الأسلاك الشائكة عليها ، لنحمي أنفسنا من الهرب وبعد ذلك فقط ، يمكن البدء بأعمال البناء .

من الواضح أن شهراً في الأقل ، سيمضي هناك دون ملجأ يقينا البرد ، دون محشر حتى للكلاب . ولا مجال لإشعال النار ، فما الذي ستحرق هناك ؟ مخرجك الوحيد أن تعمل بضمير .

عريف المجموعة منشغل البال ، وهو ذاهب ليحاول الاتفاق معهم على إرسال أية مجموعة أخرى بدل مجموعته المنهكة . لن يستطيع ، طبعاً ، الاتفاق على أي شيء بيدين فارغتين ، فليأخذ نصف كيلو ، أو كيلو غراماً كاملاً من شحم الخنزير إلى رئيس المهمات .

جرّب ولن تخسر شيئاً ـ فكّر شوخوف ـ لماذا لا أحاول الحصول على يوم راحة من النقطة الطبية ، التخلص من العمل ولو يوماً واحداً ؟

هاهو كل ما في جسمه خائر القوى ، يئن . حاول شوخوف أن يتذكر مَنْ مِنَ السجانين يناوب اليوم ؟ يناوب إيڤان بولتور ، الرقيب الطويل ، النحيل ، أسود العينين . لأول وهلة يصيبك شكله بالرعب ، لكن الجميع يعرفون أن الاتفاق معه ممكن من بين جميع السجانين الآخرين : فهو في الأقل لا يحيلك إلى الزنزانة ، ولا يجرجرك إلى قائد الانضباط ، لذلك ـ فكّر شوخوف ـ يمكن الاستلقاء ، ريثما تذهب البّراكة التاسعة إلى المطعم في الأقل .

اهتزت البَراكة ، وتأرجحت . اثنان نهضا في وقت واحد معاً : جار شوخوف اليوشكا الانجيلي في الأعلى ، والمقدم البحري السابق بوينوفسكي في الأسفل .

تسابَّ العجوزان القائمان على خدمة البرّاكة اليوم ، بينما كانا ينقلان الباراشتين معاً ، من منهما سيذهب لإحضار الماء المغلي . تشاتما بإلحاف كامرأتين .

صاح بهما عامل اللحام الكهربائي من المجموعة العشرين :

ـ أي ، أنتما أيها الناحلان ـ وضربهما بفردة الجزمة! ـ الآن أصالحكما! اصطدمت فردة الجزمة بالعمود ، من دون أن تصدر صوتاً . صمتا . في المجموعة المجاورة تذمّر معاون العريف :

ـ ڤاسيل فيودوروفيتش! الحقراء ، غشونا على طاولة الطعام! كان هناك أربع من (أم التسعمائة) ، أما الآن فبقي ثلاث فقط ، ماذا أفعل ؟ مِنْ حصة من سأخصمها ؟

قال ذلك بصوت خافت ، ولكنّ المجموعة كلها سمعت ما قال ، وكتمت أنفاسها ، ففي المساء سيقتطعون جزءاً من حصة البعض .

أما شوخوف ، فبقي مستلقياً على نشارة الخشب المضغوطة في فراشه . ليته كان يشعر بالقشعريرة حسب ، أو بالنقزان فقط ، أما هو فبين هذا وذاك .

بينما كان اليوشكا الإنجيلي يتمتم صلواته ، عاد بونيوفسكي من قضاء حاجته في الهواء الطلق ، وقال لواحد من المجموعة ، كما لو أنه كان يتشفى :

ـ اصمد ، إذن ، يا ضابط الأسطول! ثلاثون في الأقل تحت الصفر!

عقد شوخوف عزمه على الذهاب إلى المستوصف . وإذا بيد تملك السلطة ترفع عنه السترة القطنية والبطانية بعنف . قام شوخوف عندئذ برفع رداء الجلد البحري عن وجهه ، ونهض قليلاً . تحته وقف التتري النحيل ، ملامساً برأسه أسفل السرير الذي فوقه .

يعني ، ناوب خارج دوره ، وتسلل خلسة إلى هنا .

ـ رقم ٨٥٤! ـ قرأ التتري الرقم المدون على الرقعة البيضاء على ظهر سترة شوخوف الجلدية السوداء ـ ثلاثة أيام في الزنزانة مع خروج نهاري إلى العمل! وما كاد صوتي التتري المخنوق يتردد في البراكة ، حتى ساد الاضطراب بين الجمع ، وشرعوا يرتدون ملابسهم مسرعين ، فيما كان البعض ما يزال راقداً ، هنا وهناك ، في أنحاء البرّاكة نصف المعتمة ، حيث تندر المصابيح المشتعلة ، حيث ينام مع القمل ليس خمسون إنساناً ، بل مائتا إنسان .

ـ علامَ أيها المواطن القائد ؟ سأل شوخوف مكسباً صوته حسرة أكثر من التي أحس بها في الواقع .

مع الخروج إلى العمل ، هذا يعني نصف زنزانة ، وتحصل على طبق ساخن ، ولن يكون لديك وقت للتفكير . أما الزنزانة الكاملة ، فهذا يعني السجن من دون خروج إلى العمل .

ـ لم تنهض في الوقت المحدد! هيا بنا إلى القيادة . أوضح التتري بكسل ، فقد كان واضحاً له ، ولشوخوف ، وللآخرين جميعاً لماذا الزنزانة .

لم ترتسم أية علامات على وجه التتري المجعّد ، الأجرد . تلفت باحثاً

عن واحد ما ثانٍ ، ولكن... في هذه الأثناء ، كان جميع من في الزنزانة ، من منهم في غبش العتمة ، ومن منهم تحت ضوء المصباح ، على التخوت السفلى والعليا ، يحشرون أقدامهم في سراويلهم القطنية السوداء ، ذات الأرقام على الركبة اليسرى ، وكان بينهم من انتهى من ارتداء ملابسه ، أو اكتفى بلف سترته على جسده بلا تزرير وهرع خارجاً ، لانتظار التتري أمام البرّاكة .

لو أنهم أرسلوا شوخوف إلى الزنزانة عقاباً على عمل يستحق ذلك لما شعر بالغبن ، ومما يزيد في شعوره بالغبن الآن ، أنه كان دائماً من بين الأوائل الذين ينهضون في الموعد المحدد .

لم يكن هناك مجال للحصول على عفو من التتري . كان شوخوف يعلم ذلك حق العلم ، ومع هذا استمر في طلب العفو ، كما يفعل الآخرون . كان شوخوف في هذه الأثناء ما يزال في سرواله القطني الذي لم يخلعه قبل النوم . سرواله أيضاً كانت على ركبته اليسرى رقعة متسخة كتب عليها بخط أسود بهت لونه الرقم (٨٥٤) . ارتدى على عجل سترته التي كتب عليها من الأمام ، و من الخلف ذلك الرقم ذاته ، آخذاً جزمته من وسط كومة الجزمات ، معتمراً قبعته ، ذات الرقعة والرقم نفسه من الأمام ، وخرج في أعقاب التتري .

كل من في المجموعة ١٠٤ رأى كيف ساقوا شوخوف ، ولكن أياً منهم لم ينبس ببنت شفة ، فلا نفع يرتجى من ذلك ، ثم ، ما الذي يمكن أن تقوله ؟

كان يمكن لعريف المجموعة أن يتدخل قليلاً ، ولكنه غادر ولم يعد موجوداً هنا وشوخوف بدوره لم يقل لأي كان كلمة واحدة ، هو لم يرغب

بتهييج التتري ، وهم سيخبئون حصته من الفطور ، سيفطنون إلى ذلك ولا بد ، وهكذا كان أن خرجا معاً . كان الصقيع ، والعتم يطبقان عى الأنفاس . وكان هناك كشافان ضونيان يغطيان ساحة المعتقل ، تتقاطع حزمتا ضوئيهما القادمتين من الزاويتين . كانت مصابيح المعتقل ، ومصابيح البراكات مضاءة ، وكانت لكثرتها تبدو كالنجوم .

كان المعتقلون يتنقلون في أرجاء المعتقل لإنجاز ما يترتب عليهم من أعمال بسرعة . الثلج يصر تحت جزماتهم وهم يطؤونه مسرعين ، منهم من يسرع لتفريغ بطنه ، ومنهم من يسرع لإحضار أسماله ، وآخرون إلى مستودع الطرود لأخذ الجريش وتسليمه في المطبخ الإفرادي... وهؤلاء وأولئك جميعاً كانت رؤوسهم غارقة بين أكتافهم ، وستراتهم الجلدية مشدودة على أبدانهم ، ولم يكن يصفعهم الجليد ، بمقدار ما كان يجمدهم التفكير بقضاء يوم كامل فيه .

أما التتري ، فمشى منتصب القامة ، في معطفه العتيق ، ذي العروات الزرق المتسخة ، كما لو أن الصقيع لا يطاله ، ولا يعنيه في شيء . عبرا بالقرب من سور خشبي مرتفع ، يحيط بالسجن الداخلي للمعتقل المبني من الحجر : كانت هناك بجوار الأسلاك الشائكة قطعة من سكة حديد عتيقة معلّقة بسلك ثخين على عمود ، وغير بعيد عنها ، على عمود آخر ، في نجوة من الريح ، علق ميزان حرارة مغلّفاً بالندى الثلجي ، بحيث لا يظهر الدرجات المتدنية جداً من الزمهرير . مال شوخوف نحو أنبوبته الحليبية البيضاء ، مؤملاً نفسه ، أن تكون الحرارة واحداً وأربعين تحت الصفر ، حتى لا يخرجوهم إلى العمل ، ولكن الحرارة ، اليوم ، لا تصل في حال من الأحوال إلى الأربعين .

دخلا براكة القيادة ، واتجها في الحال إلى غرفة السجانين هناك ، بات جلياً ما خطر ببال شوخوف في الطريق :

الأرض في غرفة السجانين قذرة بحاجة إلى تنظيف ، وبالفعل فقد أعلن التتري عن عفوه عن شوخوف ، وأمره بتنظيف أرض الغرفة .

كان تنظيف أرض غرفة السجانين ، عملاً مناطاً بحاجب خاص ، أُفرز لهذا الغرض بالذات ، لا يخرج من سور المعتقل لأي عمل ، مهمته تنظيف أرض برّاكة القيادة فحسب . لكن الحاجب الذي عمل هنا مدة طويلة ، وجد الحيلة للوصول إلى مكتب الرائد ، ثم إلى قائد الانضباط ، ثم إلى ضابط الأمن... وقام بخدمة هؤلاء ، وصار يسمع في بعض الأحيان ما لم يكن يعلم به حتى السجانون ، ولهذا صار منذ حين ، يعد تنظيف أرض غرفة الأخيرين عملاً لا يليق بمقامه . استدعوه مرّة ، وأخرى ، وثالثة... وأخيراً فهموا اللعبة ، فصاروا يأتون بالمعتقلين الشغيلة للتنظيف .

تأججت نار المدفأة في غرفة السجانين هناك جلس سجانان يلعبان الضامة ، وقد خلعا ملابسهما ، وبقيا في قميصيهما العسكريين القذرين فقط . أمّا الثالث ، فقد استلقى ، كما هو ، في سترته ، متمنطقاً بحزامه العريض ، دون أن يخلع جزمته ، على معقد خشبي ضيق . كان في إحدى زوايا الغرفة دلو وخرقة .

فرح شوخوف وعبّر للتتري عن شكره على العفو عنه . قائلاً : شكراً أيها المواطن القائد! لن أتأخر عن النهوض بعد اليوم .

كان القانون السائد لديهم بسيطاً : تنهي عملك وتذهب . أما الآن . بعد أن كلّفوا شوخوف بهذا العمل ، فقد بات يشعر كما لو أن النقزان الذي أوجعه توقف . أخذ الدلو من دون قفاز ، فقد نسي القفاز تحت مخدته في عجالته ، وذهب باتجاه البئر .

كان عرفاء المجموعات الآتين إلى إدارة تخطيط الانتاج يقفون منتصبين عند العمود . وبادر أحدهم ، يبدو عليه أنه أفتى من الجميع ، كان سابقاً بطلاً للاتحاد السوفيتي ، فتسلّق العمود ، ومسح ميزان الحرارة المعلّق عليه . نصحه الذين في الأسفل : احذر لا تتنفس عليه ، وإلاّ فإن الحرارة سترتفع .

ـ يسخن ، يؤثر... هذا لا يغير في شيء! صاح بهم لم يكن تيورين عريف مجموعة شوخوف بينهم .

راقبهم شوخوف بفضول ، واضعاً الدلو على الأرض ، حاشراً يديه في كمي سترته .

ـ سبع وعشرون ونصف... مؤيرة . قال ذلك ناظراً مرّة أخرى للتأكد ، ثم وثب .

ـ ليس صحيحاً . دائماً يكذب . قال أحدهم ـ أيعقل أن يعلّقوا ميزاناً مضبوطاً في المعتقل!

تفرّق عرفاء المجموعات . أسرع شوخوف باتجاه البئر . تحت واقيتي الأذنين المدلاتين من قبعته ، وغير المربوطتين ، فوخز الزمهرير أذنيه . كانت فوهة البئر محاطة بطبقة سمكية من الجليد ، وبصعوبة فائقة استطاع الدلو المرور عبرها ، والحبل الذي هناك ، كان منتصباً كالعصا . عاد شوخوف إلى غرفة السجانين مع الدلو الذي تتصاعد منه الأبخرة الجليدية للماء ، فاقداً الاحساس بيديه . غطّس يديه بماء البئر فسرى فيهما بعض الدفء . التتري لم يعد هناك ، أمّا السجانون ، فقد صاروا أربعة ، تركوا اللعب بالضامة ، والنوم ، وتجمعّوا يتجادلون حول كمية الحبوب التي سيعطونهم إياها في كانون الثاني . كان وضع التموين في المعتقل سيئاً ،

وقد باعوا السجانين بعض المواد الغذائية ، خارج مخصصاتهم ، بسعر مخفض ، مع أن البطاقات التموينية انتهت من زمان .

ـ اغلق الباب جيداً ، أيها النذل ، إنك تمرر الصقيع . انفصل أحدهم عن الجدال ملتفتاً إلى شوخوف .

لم يكن مناسباً ، بتاتاً ، تبليل الجزمة اللبادية بالماء منذ الصباح ، فليس هناك حذاء بديل لدى شوخوف ينتعله . لقد عايش شوخوف حالات مختلفة مع الأحذية ، خلال السنوات الثمان التي قضاها في المعتقل حتى الآن . حدث أن أمضوا الشتاء من دون جزمات على الإطلاق . حصل أيضاً أنهم لم يروا حتى الصبابيط ، كان هناك فقط أحذية مصنوعة من لحاء الأشجار وكاوتشوك الدواليب . اقتطعوا من كاتشوك الدواليب قطعاً ، وربطوها على أقدامهم... أما الآن ، فكما لو أن المشكلة حلّت ، فقد استلم شوخوف في تشرين الأول حذاءً ، حصل عليه الله أعلم كيف! تدبر أمره مع مساعد عريف المجموعة للذهاب إلى مستودع المهمات ، وحصل على صباط قوي ، ببوز قاسٍ ، وواسع ، يتسع للفافتين معاً بدل الواحدة . مشى شوخوف أسبوعاً كاملاً منتشياً كالعريس ، خابطاً الأرض بنعليه الجديدين . أمّا في كانون الأول فقد وزعّت عليهم الجزمات . ها هي الحياة قد احلوّت ، ولا يصح الموت الآن . لكن شيطاناً من شياطين محاسبة المهمات ، همس للقيادة بأن على المعتقلين أن يسلموا الصبابيط ، لكي يستلموا الجزمات فأي نظام هذا الذي يسمح بأن يكون لدى المعتقل زوجان من الأحذية معاً . وهكذا كان على شوخوف أن يختار إما البقاء طوال الشتاء في الصباط ، أو استلام جزمة اللباد ، والخوض فيها حتى في الثلج الذائب ، وتسليم الصباط .

كان قد صان صباطه جيداً ودهنه ، وهو لم يأسف على شيء طوال هذه

السنوات الثماني ، كما أسف الآن عليه . جمعوا الصبابيط ، وكوموها في كومة واحدة ، فجرّب أن تعثر في الربيع على حذائك .لقد ساقوهم كما كانوا يسوقون الخيول في الكولخوز .

وجد شوخوف حيلة يتدبر بها أمره : خلع جزمة اللباد . وضعها في الزاوية ، وألقى هناك بلفافة القدمين ، فرنت الملعقة على الأرض ، فبرغم كل السرعة التي تجهّز بها شوخوف للذهاب إلى الزنزانة لم ينس ملعقته ، ثم راح حافي القدمين ، يشبع الخرقة بالماء ، وينحني تحت أقدام السجانين :

ـ انتبه ، أيها الحقير ، كن حذراً ؟ أكثر . انتفض أحدهم ، رافعاً قدميه عن الكرسي .

ـ رز ؟ الرز يوزع بمعدل آخر ، لا تقارنه بالرز

ـ أيها المسطول ، كم أخذت من الماء ؟ من يغسل الأرض بهذا الشكل ؟

ـ أيها المواطن القائد ، لن تنظف إلا بهذه الطريقة ، لقد عشش الوسخ في روحها .

ـ ألم تر كيف كانت امرأتك تمسح الأرض أيها الخنزير!

وقف شوخوف منتصباً ، ممسكاً بيده الخرقة التي يقطر منها الماء ، وابتسم بسذاجة ، مظهراً أسنانه المخلوعة التي فتك به الاسقربوط في أوست إيجما* في عام ١٩٤٣ عندما كان يحتضر هناك ، كان يحتضر إلى درجة أنه كان يتغوط دماً صافياً ، ومعدته اليابسة من الجوع لم تعد تتقبل

---

* أوست إيجما : أوست إيشيم : تسمية لمدينة في غرب سيبيريا تقع على نهر إيرتيش . منطقة معتقلات أشغال شاقة .

شيئاً... أمّا الآن ، فلم يبق من ذلك الزمان إلاّ صفير الأنفاس العابرة في تلك الأماكن التي كانت تقطنها الأسنان .

ـ أيها المواطن القائد ، انتزعوني من امرأتي منذ عام ٤٣ ، ولم أعد حتى أذكر كيف كانت .

ـ أهكذا تُمسح الأرض!... سفلة لا يجيدون فعل شيء مفيد ، ولا يريدون... إنهم لا يستحقون حتى الخبز الذي يأكلونه ، لا يستحقون طعاماً أكثر من الخراء .

ـ ولأي شيطان ، نمسحها كل يوم ؟ الرطوبة لا تطاق ، لا تكاد تجف... إسمع يا ٨٥٤! امسحها قليلاً فقط ، وانقلع من هنا .

ـ رز! لا تقارن البشونكا* مع الرز .

أنجز شوخوف عمله بسرعة . العمل كالعصا لها نهايتان ، إذا كنت تعمل للآخرين أعط نوعيّة ، وإذا كنت تعمل لرئيسك فاستعرض ، وإلا لمات الجميع ، وهذا أمر معروف .

مرر شوخوف الخرقة الرطبة على ألواح الأرضية كي لا تبقى عليها جزر مغبرة ، وألقى بالخرقة غير المعصورة وراء المدفأة ، ثم لبس جزمته عند العتبة ، ودلق دلو الماء على الطريق حيث تمر القيادة ، وأسرع باتجاه المطعم في طريق منحرف بجوار الحمام ، وبمحاذاة مبنى النادي المعتم البارد .

كان يريد أن يعرّج على النقطة الطبية في الوقت المتاح لديه . نقز كل ما في جسمه من جديد . كان يجب ألا يقع في أيدي الحراس ثانية قبل أن

---

* بشونكا : حبوب بيضاء كروية صغيرة من النجيليات .

يصل إلى المطعم . كان هناك أمر صارم صادر عن قائد المعتقل يقضي بالقاء القبض على من يرى منفرداً وإلقائه في الزنزانة .

كانت الحالة عجيبة هذا اليوم ، فالمعتقلون لم يتزاحموا أمام المطعم ، لم يهدر القطيع هناك ، وما عليك إلا الدخول . في الداخل كان البخار في كل مكان كما في الحمام ، يتصاعد من قصعات البالاندا ، ويندفع من الباب قادماً من الزمهرير . جلس أفراد المجموعات حول طاولاتهم ، أو تدافعوا في الممرات بين الطاولات ، بانتظار أن يفرغ مكان ليحتلوه ، وسط هذا الزحام حمل معتقلان أو ثلاثة من كل مجموعة قصعات البالاندا والعصيدة على صواني خشب ، وانحشروا صائحين ، بين المعتقلين ، بحثاً عن مكان يضعونها فيه على الطاولات . ورغم كل هذ الصراخ ، فإن هذا اللوح لا يسمع ، فقد صدم إحدى الصواني .

ـ إنها تندلق ، تندلق! باليد الأخرى على رقبته ، على رقبته! معه حق ، لا تقف في الطريق ، ألا تنظر إلى اليمين واليسار لتجد لنفسك مكاناً تحشرها فيه .

وهناك ، خلف إحدى الطاولات جلس شاب ، وراح يرسم إشارة الصليب قبل أن يدفع بملعقته في القصعة ، هذا يعني أنه بينديروڤي* ، وجديد أيضاً ، فحتى البينديروفيين تخلوا عن صلبانهم بعد أن أمضوا في المعتقل فترة من الزمن .

أما الروس ، فنسوا حتى بأي يد يصلّبون . الجو في المطعم بارد ، يأكلون هنا في قبعاتهم ، ولكنهم لا يسرعون ، ويلتقطون بملاعقهم القطع

---

* بينديروڤي : جماعة مالدوڤيون حاربوا إلى جانب الألمان . نسبة إلى مدينة بينديري في مالدوڤا .

السوداء الصغيرة ، النتنة من السمك ، من تحت أوراق الملفوف المسودة ، ويبصقون الحسك على الطاولة . وعندما يتكدس جبل من المبصوقات على الطاولة أمام المعتقلين ، واحد ما يشيح بيده ، ويلقي بها على الأرض .

أمّا بَصْقُ الحسك على الأرض مباشرة ، فيعد عملاً غير لائق .

انتصب وسط البراكة صفان من الأعمدة ، أو السراميك ، جلس عند واحد منهما فيتيوكوف رفيق شوخوف في المجموعة ، وقد احتفظ له بحصة الإفطار . كان فيتيوكوف واحداً من أحدث المعتقلين في المجموعة ، وكان أكثر بدانة من شوخوف . جميع المعتقلين متشابهون من الخارج في ستراتهم السوداء ذوات رقع الأرقام المتشابهة ، أمّا في دواخلهم فالفروقات كبيرة ، والتدرج شديد الوضوح . فلا يمكن ، مثلاً ، أن تُجلس بينوفسكي لحراسة القصعة ، وشوخوف أيضاً لن يقبل القيام بأي عمل كان ، فهناك من هو أدنى منه . رأى فيتيوكوف شوخوف قادماً فتنفس الصعداء ، وافسح له مجالاً للجلوس .

ـ لقد بردت وجبتك ، كنت سآكلها بدلاً عنك ، ظننت أنك في الزنزانة .

قال ذلك ولم ينتظر جواباً فهو يعرف أن شوخوف لن يترك له لعق القصعتين بعد أن ينتهي منهما .

أخرج شوخوف الملعقة من جزمته . كانت هذه الملعقة غالية عليه ، فلقد عبرت معه مخاض الشمال كُلّه . كان شوخوف قد صبها بيديه في الرمل من شريط ألمنيوم ، وحفر عليها (أوست إيجما ١٩٤٤) .

بعد ذلك خلع شوخوف القبعة عن رأسه الحليق ، فمهما يكون الجو بارداً ، لم يكن يسمح لنفسه بتناول الطعام والقبعة على رأسه . وما أن بدأ بتحريك البالاندا التي رقدت في قصعته ، حتى فهم ما الذي صُبّ فيها ، فالذي

فيها من وسط حلّة الطبخ لا من وجهها ، ولا من قاعها ، يبدو أن فيتيوكوف قام ، بينما كان يحرس القصعة ، بالتقاط بعض قطع البطاطا منها .

الشيء الوحيد الهانئ في البالاندا ، أنها ساخنة ، وها هو شوخوف يحصل عليها الآن باردة تماماً . رغم هذا راح شوخوف يتناولها بذلك البطء والتروي ذاته ، الذي اعتاد عليه . فلا يجوز أن تسرع هنا حتى لو احترق السقف ، فعدا ساعات النوم ، لا يعيش المعتقل لذاته ، أكثر من الدقائق العشر هذه ،على الفطور . أجل ، وخمس دقائق على الغداء ، وخمس أخرى ، أيضاً ، على العشاء .

لم تتبدل البالاندا من يوم إلى آخر ، ولم تتغير إلا بتغير الخضار التي تموّنوا منها للشتاء . في العام المنصرم تمونوا من الجزر المملح فحسب ، وهكذا صارت البالاندا تطبخ من الجزر لوحده على مدى الأيام ، من أيلول وحتى حزيران . أمّا الآن فهي تعد من الملفوف الأسود . وأفضل شهر يشبع فيه المعتقل في العام هو شهر حزيران . حين يكونوا قد استنفدوا كل شيء ، ولم يبق لديهم أي نوع من الخضار ، فيضطرون حينئذ إلى طبخ الحبوب . أما أسوأ الأوقات ، فهو شهر تموز ، حين يطبخون القرّيص .

لم يتبق من السمكات الصغيرات إلا الحسك ، فقد تساقط لحمها المسلوق عنها ، ولم يتماسك إلا في الرأس والذيل . عضعض شوخوف السمكات غير مبقٍ على شيء منها ، لا هيكلها العظمي الهش ، ولا حراشفها ، ولا نتفة من لحمها ، أمّا الحسكات فمصّها ثم بصقها على الطاولة . شوخوف ، يأكل من كل سمكة كل شيء على الإطلاق ، فهو يأتي على الغلاصم ، والذيل ، والعينين أيضاً . إنه يأكل حتى العينين فيما لو كانا ما يزالان في مكانهما ، أمّا عندما تنفصل عينا السمكة الكبيرتان ،

وتسبحان لوحدهما في القصعة ، فكان شوخوف يعاف أكلهما . كان سلوكه هذا يثير ضحك الآخرين وسخريتهم .

لقد وفّر شوخوف اليوم شيئاً إلى ما بعد ، فهو لم يعرّج على البرّاكة ليأخذ حصته من الخبز ، بل جلس يأكل الآن من دون خبز ، أما الخبز ، فسيأكله لوحده فيما بعد ، فذلك أدعى للشبع .

كان هناك إضافة إلى الحساء عصيدة من الماغارا ، وهذه بدورها كانت قد تجمدت في كتلة واحدة ، فقطعها شوخوف إلى أجزاء . الماغارا هذه ليست لذيذة ، ليس فقط عندما تكون باردة ، بل وحتى عندما تكون ساخنة ، فهي لا تلذ لآكلها ولا تشبعه : حشيش بحشيش ، وليست أكثر من لون أصفر على شكل الدخن . يحتالون هنا بتقديمها بدل القمح ، يقال إنهم تعلّموا ذلك من الصينيين .

ثلاثمائة غرام من شيء ما مسلوق ، لا بأس : أهي عصيدة ، أم غير عصيدة!... المهم أنها تقدم على أنها كذلك .

بعد أن انتهى من تناول حصته لعق شوخوف ملعقته ، وحشرها في مكانها السابق في جزمته ، ووضع القبعة على رأسه ، وخرج باتجاه المستوصف . كانت السماء ، حيث طردت كشافات المعتقل النجوم ، ما تزال معتمة ، و ما زال الكشافان الكبيران يقطعان المعتقل بحزمتي ضوء عريضيتين .

يا لخصوصية هذا المعتقل ، فقد بدؤوا هنا باستخدام القنابل الحربية المضيئة . كان ما يزال لدى جنود الحراسة الكثير من الضواءات هذه ، فما أن تنقطع الكهرباء قليلاً حتى تنطلق الشهب فوق المعتقل ، بيضاء ، خضراء ، حمراء... كأنها حرب حقيقية . بعد ذلك توقفوا عن استخدام القنابل الضوئية ، أم أن الذي منعهم من ذلك ثمنها الغالي! ؟

ما يزال ذلك الليل ، الذي كان عند الاستيقاظ ، مخيماً حتى الآن كما كان ، بيد أن العين الخبيرة ، تستطيع أن تميز ببساطة من الأشياء الصغيرة أن موعد الانطلاق إلى العمل قريب .

انطلق معاون اسبوعي الطعام الأعرج (أسبوعي الطعام الأعرج راح يطعم واحداً آخر من حصته الخاصة ، ويشغله نائباً له) لينادي المعتقلين العجّز من البرّاكة السادسة لتناول الفطور ، أي ذهب لينادي أولئك الذين لا يخرجون إلى ماوراء أسوار المعتقل .

في قسم التوجيه السياسي في المعتقل سار فنان عجوز ملتحٍ ، بطيئاً ، متمايلاً تتشابك قدماه ، باتجاه ألوانه وفرشاته لكتابة أرقام المعتقلين .

خطا التتري خطوات واسعة ، مسرعاً ، متجاوزاً الحد الفاصل لبرّاكة القيادة ، عم الصمت في الخارج ، وهذا يعني أن المعتقلين وجدوا مأوى يلتجئون إليه ، وهم يتدفؤون هناك في دقائقهم الأخيرة الحلوة .

اختبأ شوخوف برشاقة خلف زاوية البرّاكة كي لا يراه التتري : أن تقع بين يديه ثانية ، يعني أن تكون تحت رحمته من جديد . يجب أن تبقى متيقظاً ، ولا تغفل في أية لحظة . عليك أن تحذر من أن يراك أي من السجانين وحيداً في أي مكان . يجب أن تبقى دوماً ضمن المجموعة ، فلربما كان أحد السجانين يبحث عن واحد ما ليرسله في عمل ما ، ربما هو يبحث عمن (يفش فيه خلقه) .

تليت الأوامر في جميع البراكات : يجب أن ترفع قبعتك محيياً على بعد خمس خطوات من السجّان الذي تقابله ، ويجب أن تعيدها إلى رأسك بعد أن تتجاوزه بخطوتين . هناك بعض السجانين يسيرون كالعميان ، ولا فرق لديهم أرفعت قبعتك أم لا ، أما بالنسبة للبعض الآخر ، فهذه متعة ، فكم

ساقوا من المعتقلين إلى الزنزانة من أجل هذه القبعة اللعينة هؤلاء الكلاب الملعونون . لا ـ فكر شوخوف ـ الأفضل هو الاختباء خلف الزاوية حتى يعبر التتري . ها هو التتري قد عبر ، أمّا شوخوف فقد عقد العزم ، نهائياً ، على الذهاب إلى المستوصف . تذكر شوخوف على حين غرة أن اللاتفي الطويل من البرّاكة السابعة كان قد وعده اليوم صباحاً ، قبل التفقد ، ببيعه كأسين من التبغ . كان شوخوف قد انشغل عن هذا الوعد ، وكادت تطير الفكرة من رأسه .

مساء الأمس ، استلم اللاتفي طرداً ، وربما لن يبقى تبغ إلى الغد ، فانتظر حينئذ شهراً آخر حتى يستلم طرداً جديداً . تبغه كان جيداً ، معتدل القوة ، ومعطَراً ، لكنه غامق اللون قليلاً .

تأسف شوخوف ، ووقع في حيرة من أمره ، أوَ ليس من الأفضل أن يغير طريقه ، ويتجه إلى البراكة السابعة ؟ ولكن لا يفصله الآن عن المستوصف سوى عدة خطوات . ها هو يعدو باتجاه سقيفة باب المستوصف . كان الثلج يسمع وهو يصر تحت قدميه . كان الممر في المستوصف ، كما هو الحال دائماً ، نظيفاً إلى درجة خشي معها شوخوف أن يطأه بقدميه . والجدران هناك كانت مطلية بدهان زيتي أبيض اللون ، والأثاث كله أبيض أيضاً ، لكن جميع أبواب المكاتب كانت مغلقة . لم ينهض الأطباء بعد من أسرتهم ، على الأغلب . أمّا في غرفة المناوبة فقد جلس الممرض كولا فدوفوشكين ، وهو ما يزال في عمر الشباب . جلس وراء طاولة نظيفة ، في معطف أبيض نظيف ، يكتب شيئاً ما . ليس ثمة من شخص آخر في المكان .

رفع شوخوف قبعته كما يفعل أمام القيادة ، وكعادة المعتقلين ، مرر عينيه إلى حيث لا يسمح له بالنظر . لم يكن ممكناً إلا أن يلاحظ بأن

الممرض نيقولاي يكتب بخط مستقيم على سطور ، بادئاً كلاً منها بحرف كبير ، واضعاً بدقة الكلمة تحت الكلمة ، تاركاً هامشاً منتظماً لكتابته . صار واضحاً لشوخوف أن هذا ليس عمله الأساسي ، بل أمر آخر ، ولكن ما علاقته هو بهذا الأمر!

ـ نيقولاي سيميونوفيتش ، كما ترى حالي ،... على ما يبدو أنني مريض .

قال شوخوف ذلك متأسفاً ، كما لو أنه يأخذ حق غيره . رفع فدوفوشكين عينيه الكبيرتين عن أوراقه . كانت على رأسه قبعة بيضاء ، ومعطفه كان أبيض أيضاً ، ولم يكن يظهر الرقم عليه .

ـ لماذا تأخرت حتى الآن ؟ لماذا لم تأت في المساء ؟ أنت تعلم أننا لا نستقبل مرضى في الصباح! فقائمة الحاصلين على استراحة مرضية صارت الآن في قسم التوجيه السياسي .

كان شوخوف يعرف كل هذا ، وكان يعرف أيضاً أن الحصول على استراحة مرضية في المساء ليس أسهل من الآن .

ـ ولكن ، يا كولا... ولكن في المساء حين يجب أن تؤلم ، هي لا تؤلم .

ـ وما هذه التي تؤلمك ؟

ـ أشعر كما لو أن لا شيء يؤلمني ، وكل شيء يؤلمني في الوقت نفسه .

لم يكن شوخوف من زوار المستوصف ، وكان فدوفوشكين يعرف ذلك ، ولكنه لم يكن يملك الحق بمنح استراحة لأكثر من شخصين ، وكان

قد منح كليهما اليوم في الصباح . وكان اسم الشخصين الحاصلين على الاستراحة مدوناً لديه ، وموضوعاً تحت زجاج الطاولة المخضرَ اللون ، ومرسوماً تحتهما خط الإغلاق .

ـ كان عليك أن تشكو باكراً ، لماذا تأخرت حتى موعد التفقد ، خذ!

أخرج فدوڤوشكين ميزان حرارة من أحد الأوعية الزجاجية ، وكان في داخله عدة موازين تغطس ، من ثقب في الشاش الذي يغلق فتحته ، في محلول التعقيم . مسح فدوفوشكين محلول التعقيم عن الميزان ، وسلمه لشوخوف . جلس شوخوف على طرف المقعد الخشبي بجوار الجدار ، على الطرف حتى كاد أن يسقط عن مقعده . هو لم يختر خصيصاً هذا المكان غير المريح ، بل حدث ذلك بشكل لا شعوري ، مؤكداً أن النقطة الطبية مكان غريب عليه ، وأنه جاء إلى هنا غير طامع بالكثير . أمّا فدوفوشكين ، فتابع الكتابة .

كان المستوصف في أبعد زوايا المعتقل المعزولة ، ولم يصل إلى هنا أي صوت ، ولم تدق عقارب الساعة ولم يكن يحق للمعتقلين أن يحملوا ساعات ، فالقيادة تعرف الوقت بدلاً عنهم . حتى إن الفئران لم تعد تصأصئ هنا فقد قام باصطيادها قط المستوصف المربى خصيصاً لهذا الغرض .

كان أمراً غير مألوف لشوخوف أن يجلس في غرفة نظيفة كهذه ، في مثل هذا الهدوء ، تحت الضوء الساطع للمصباح ، خمس دقائق كاملات ، من دون أن يقوم بأي عمل . كان شوخوف منذ دخوله قد مسح جميع جدران الغرفة بعينيه ، ولم يعثر على شيء معلق عليها . نظر إلى سترته ، لاحظ أن الرقم على صدره باهت محكوك . فكّر : لو أنهم فقط لا يتحرشون بي من أجل هذا! يجب تجديد الرقم . مسح شوخوف بيده ذقنه التي

استطالت ، فهو لم يحلقها منذ ذلك الحمّام ، منذ أكثر من عشرة أيام ، ورغم ذلك فهي لا تعيقه ، إذن فلا بأس ، سيكون هناك حمّام آخر بعد ثلاثة أيام ، وعندئذ سيقوم بحلاقتها . لِمَ الانتظار في الطابور أمام صالون الحلاقة بلا جدوى! فلا أحد هنا ليتهندم شوخوف أمامه . بعد ذلك وبينما كان شوخوف يمعن النظر في قبعة فدوفوشكين البيضاء ، تذكّر فرقة الخدمات الطبيّة على نهر لوفات ، وكيف ذهب إلى هناك بفكٍ جريح ، ثم كيف عاد من هناك كالمسطول إلى الجبهة في الحال ، في حين كان يمكنه الاستلقاء خمسة أيام أخرى على الأقل . كم هو يحلم الآن بأن يمرض أسبوعين ، أو ثلاثة أسابيع ، مرضاً غير مميت ، ومن دون عمل جراحي ، ليكون بمقدوره الرقود في المشفى . لو كان ذلك ممكناً ، كما يحلم الآن ، لاستلقى ثلاثة أسابيع بلا حراك هناك حتى لو أطعموه مرقاً مائعاً لا شيء فيه فلا بأس... لكن شوخوف تذكر أن الاستلقاء في المشفى لم يعد مسموحاً به ، فقد جاء طبيب جديد من إحدى دفعات المعتقلين وهو ستيبان غريفوريتش ، الحذق ، الصاخب ، الذي لا يستريح ، ولا يدع أحداً يستريح ، وقرر تشغيل مرضى المشفى كلهم في إنجاز الأعمال الخاصة بالمشفى : إنشاء سور لها ، رصف طرقاتها وممراتها ، نقل التراب من أجل أصص الأزهار ، وإنشاء مصدات الثلوج في الشتاء... كان يقول : إن العمل هو أفضل دواء ضد المرض . العمل يقتل حتى الخيول ، يجب أن يجرب هذا الطبيب ذلك ، فلو أنه أنهد من التعب في رصف الحجارة كغيره ، لجلس بلا حول... أما فدوڤوشكين ، فتابع كتابته .

هو ، فعلاً ، كان ينجز عملاً غير العملِ المنوط به ، ومع ذلك فأنّى لشوخوف أن يحلم بمثل هذا العمل . كان يعيد كتابة قصيدة طويلة أنهى تأليفها البارحة ، وقد وعد اليوم أن يعرضها على ذاك الطبيب ذاته ، ستيبان غريفوريتش كي يقرأها .

كما يحدث في معسكرات الاعتقال فقط ، اقترح ستيبان غريفوريتش على فدوفوشكين أن يقول عن نفسه إنه ممرض ، ثم أخذه ليعمل لديه كممرض ، وهكذا صار فدوفوشكين يتعلم ضرب الإبر في أجسام المعتقلين العبيد ، وفي أجسام الليتوانيين والاستونيين المطيعين ، الذين لا يخطر ببالهم في حال من الأحوال أن الممرض كولا يمكن ألا يكون ممرضاً على الإطلاق .

كان كولا طالباً في كلية الآداب ، وقد اعتقل في سنته الدراسية الثانية . وقد أراد ستيبان غريفوريتش لكولا أن يكتب في المعتقل ، ما لم يتركوا له فرصة لكتابته في الحرية .

... خلال الزجاج المضاعف ، الذي جعله الجليد المتكاثف عليه غير شفاف ، كان صوت منبه الاجتماع للتفقديسمع بصعوبة . تنهّد شوخوف ، ونهض واقفاً . كان جسده ما يزال يؤلمه كما من قبل ، ولكن هيهات له أن ينال ضالته هنا . مد فدوفوشكين يده ، وأخذ ميزان الحرارة من شوخوف ثم نظر إليه :

ـ كما ترى ، لا هذا ولا ذاك... سبع وثلاثون وشخطتان فقط! لو أنها ثمان وثلاثون كما هو معلوم! لا أستطيع أن أعطيك استراحة . إذا أردت البقاء ، فابق على مسؤوليتك الشخصية . إذا رأى الدكتور بعد الفحص أنك مريض يمنحك استراحة ، وإذا رأى أنك غير مريض ، يرفض ، وعندئذ تذهب إلى الزنزانة . الأفضل لك أن تخرج إلى العمل .

لم يجب شوخوف . لم ينطق حتى بكلمة واحدة . كل ما فعله أن ضغط القبعة على رأسه وخرج . متى كان الدافئ يشعر بالمقرور ؟

اجتاح البرد القارس جسد شوخوف ، وضغط عليه الزمهرير ، فأدخله

في نوبة من السعال . في الخارج سبع وعشرون درجة من الزمهرير ، وفي جسد شوخوف سبع وثلاثون ، فمن سينتصر الآن .

خب شوخوف باتجاه البراكة .

كانت ساحة التفقد فارغة ، وكان المعسكر كله خاوياً . كانت لحظة مضنية حاسمة ، حيث توقف كل شيء . وكانوا يتدارسون أمر الخروج إلى العمل .

فجنود الحراسة يجلسون في براكاتهم الدافئة مسندين رؤوسهم النعسانة إلى بنادقهم ، إذ أن خروجهم إلى نقاط الحراسة في مثل هذا البرد القارس ليس قشدة بالنسبة لهم . والخفراء المناوبون على المدخل الرئيس للمعتقل يلقون بالفحم في المدفأة .

وعسس المعتقل يجلسون في غرفتهم ، وينهون تدخين سجائرهم قبل إجراء التفقد ، أما المعتقلون فقد انتهوا من ارتداء أسمالهم ، وحزموا أنفسهم بما لديهم من أشرطة وحبال ، وتلفعوا من أسفل ذقونهم حتى رموش عيونهم بالخرق اتقاء للبرد ، واستلقوا على البطانيات فوق الأسرة ، مغمضي الأعين ، كالمغمى عليهم ، بانتظار أن يصيح العريف هيا انهضوا .

غلب النعاس البراكات التسع بمن فيها ، وهجعت المجموعة ١٠٤ معها أيضاً ، وحده باڤلو عريف المجموعة حسب شيئاً ما بقلم الرصاص ، ماطاً شفتيه ، وهناك ، على سريره العلوي ، كان اليوشا الانجيلي جار شوخوف ، النظيف ، المغسول ، يقرأ دفتر مذكراته ، حيث كتب نصف الإنجيل .

مع أن شوخوف ركض بسرعة البرق ، إلا أنه لم يصدر ضجيجاً وهو يتجه إلى براكة معاون العريف .

رفع باڤلو رأسه :

ـ ألم يحبسوكم إيڤان دينيسيتش ؟ أما زلتم تعيشون ؟ (مواطنو غرب أوكرانيا لم يتعلموا في المعتقل أبداً ، التخلي عن صيغة التفخيم في المخاطبة) .

أخذ شوخوف حصته من الطعام عن الطاولة وخرج مسرعاً . كان في الحصة قبضة من سكر صبت في كومة بيضاء .

أسرع شوخوف جداً ، ومع ذلك ، أجاب مساعد عريف المجموعة بشكل لائق ، فمساعد العريف قيادة أيضاً ، والحال يتعلق به أكثر ، حتى ، مما يتعلق بقائد المعتقل . أسرع شوخوف ، حتى إنه التقط السكر عن الخبز بشفتيه ، ولعقه بلسانه ، وإحدى قدميه على دواسة السرير ، مستعداً لاعتلائه . أمّا حصةالخبز فعاينتها عيناه يميناً وشمالاً ، ورازها بيده وهي ماتزال بعيدة عنها : أيوجد فيها تلك الخمسمائة والخمسون غراماً المخصصة له فعلاً ؟ كم ألف حصةٍ مثل هذه الحصة استلم حتى الآن في السجون وفي معسكرات الاعتقال! ومع أنه لم يقدر له أن يزن أياً منها في يوم من الأيام ، ولم يعترض أو يطالب بحقه كأي إنسان ضعيف ، إلا أنه كان واضحاً له ، كما لكل المعتقلين الآخرين أن أحداً لن يبقى في مهمة تقطيع الخبز طويلاً لو عمل بأمانة . هناك ، إذن ، نقص في كل حصة حتماً ، والسؤال هو ترى : أيكون النقص كبيراً أم صغيراً ؟ وهكذا ترقب ذلك مرتين كل يوم ، مطمئناً روحك ، فلعلهم اليوم لم يخدعوني بشدة ؟ لعل جميع الغرامات المخصصة لي موجودة في حصتي بالفعل ؟

حسبها شوخوف : الحصة أقل بعشرين غراماً . ثم قسمها إلى قسمين حشر أحدهما في عبه ، تحت سترته ، داخل جيب خاطه خصيصاً لهذا

الغرض ، فسترات المعتقلين تخاط في المشاغل دون جيوب . أمّا القسم الثاني من خبز الفطور ، ففكر شوخوف بالتهامه هنا في الحال ، إنما الطعام على عجل ليس فيه لذة الطعام ، ويضيع هباء دون إحساس بالشبع .

مد شوخوف يده ليضع نصف الحصة في كيس أشيائه ، لكنه عاد وفكّر : تذكّر أن سخرة البرّاكة كانوا قد ضُبطوا قبل ذلك مرتين يسرقون ، والبرّاكة كبيرة يعبرها من هب ودب . لذلك سحب إيڤان دينيسوڤيتش قدميه من جزمة اللباد ، وهو ما يزال ممسكاً بيده بالخبز ، تاركاً بمرونة لفافات القدمين والملعقة داخلها ، وتسلق السرير ، وهناك وسّع ثقباً صنعه في فراشه المحشو بنشارة الخشب ، وحشر فيه نصف حصة الخبز ، ثم نزع قبعته عن رأسه وأخرج منها إبرة وخيطاً ، كان قد خبأهما في العمق ، فقبعة المعتقل أيضاً خاضعة للتفتيش : في إحدى المرّات وخزت الإبرة اصبع العسس فكاد يكسر رأس شوخوف في فورة غضبه .

قطبة وراء قطبة وإذا بالثقب وراء الخبز قد خيط . في تلك الأثناء كان السكر في فم شوخوف قد ذاب . كل شيء في شوخوف كان متوتراً إلى الحد الأقصى ، فالآن سيأتي موزع المهمات ويصرخ . ارتجفت أصابع شوخوف باضطراب ، أما رأسه الذي سبقه إلى الأمام ، فحاول الإحاطة بما سيكون بعد ذلك .

تابع الإنجيلي قراءة إنجيله ، ولكن ليس بالصوت المسموع ، بل كان يقرأ كما لو أنه يتنفس الكلمات . ربما كان يتعمد ذلك من أجل شوخوف ، فهؤلاء الانجيليون يحبون نشر الدعاية كالموجهين السياسيين .

ـ «فلا يتألم أحدكم كقاتل أو سارق أو فاعل شر أو متداخل في أمور غيره ولكن إن كان كمسيحي فلا يخجل بل يمجّد الله من هذا القبيل»* .

* رسالة بطرس الرسول الأولى : الاصحاح الرابع ، ١٥ ـ ١٦ .

اليوشا يستحق الثناء ، بالفعل ، فقد كان يحشر مفكرته بمنتهى الخفة في شق الجدار ، حتى إنها لم تقع في أيدي العسس رغم كل التفتيشات .

بتلك الحركات الخفيفة ذاتها حرك شوخوف سترته على حاجز السرير ، أخرج من تحت فراشه القفازات ، وزوج اللفافات النحيلة ، وحبلاً ، وخرقة مع زوج من الأشرطة . قام بتسوية النشارة في الفراش . كانت النشارة مضغوطة ، ثقيلة . لف البطانية . رمى بالمخدة إلى مكانها ، ونزل حافياً ، وفي الأسفل ، راح يحتذي حذاءه . لف ، أولاً ، اللفافات الجديدة الحسنة ثم لف فوقها اللفافات القديمة السيئة .

وهنا قام عريف المجموعة وقحّ وهو ينهض ، معلناً :

- يكفي نوم ، المائة والأربعة! هيا اخرجوا!

وإذا بالمجموعة بكل من فيها ، الناعس وغير الناعس ، تنهض ، وتتثاءب ، وتجرجر أقدامها خارجة . كان العريف معتقلاً منذ تسع عشرة سنة ، وهو لا يخرج المعتقلين من الزنزانة قبل دقيقة واحدة من الموعد المحدد . فإذا ما قال اخرجوا ، هذا يعني أزفت اللحظة الأخيرة للخروج .

بينما كان المعتقلون يسيرون بخطا ثقيلة ، صامتين ، واحداً وراء الآخر في الممر الداخلي ومن ثم في موزع البرّاكة ، وبعد ذلك تحت سقيفة المدخل ، قام عريف المجموعة العشرين بالصياح أيضاً ، مقلّداً تيورين «اخرجوا!» .

كان شوخوف قد انتهى من لبس الجزمة فوق اللفافتين ، والسترة فوق القميص وحزم نفسه بشدة بالحبل . (كان لديه ، قبلاً ، حزام جلدي أخذوه

منه ، ففي معسكر الاعتقال ، لا يسمح باقتناء الأحزمة) . وهكذا تمكن شوخوف من إنجاز كل شيء في الوقت المطلوب ، ولحق بآخر أفراد مجموعته في الموزع . خرجت ظهور المعتقلين المرقمة من الباب إلى طنف المدخل . خرجوا بأبدانهم الثخينة ، بَعد أن لفّوا على أجسادهم كل ما كان لديهم من ملابس ، مجرجرين أقدامهم واحداً تلو الآخر ، رغماً عنهم ، باتجاه ساحة الاجتماع ، لا صوت يصدر عنهم ، إلا صوت صرير الثلج تحت أقدامهم .

كان الظلام ما يزال مخيّماً مع أن السماء اخضرت قليلاً ، وتكشفت مع الفجر ، بينما كانت ريح نحيلة شريرة تهب من جهة الشرق .

ليس هناك ما هو أكثر مرارة من هذه اللحظة ، لحظة الخروج إلى العمل عند الفجر ، في الظلمة ، في الزمهرير ، على بطن خاوية لتعمل عملاً شاقاً طوال اليوم ، ينعقد اللسان . ليس هناك من يرغب بالحديث مع الآخرين .

تمشى أمام صفوف المعتقلين عريف الانضباط .

- إلى متى سننتظرك يا تيورين ؟ ها أنت تعود إلى التأخر من جديد ؟

هل كان على شوخوف أن يخشى الآن موزع المهمات . كل شيء إلا تيورين ، فهو ، حتى ، لن ينفخ في الجليد من أجله بلا مقابل . يسير العريف صامتاً ، والمجموعة من ورائه فوق الجليد ، طُبْ ، طُبْ ، صِرّ ، صِرّ... ولكنه يجب أن يكون قد قدم كيلو غراماً من شحم الخنزير على الأقل ، فالمجموعة ١٠٤ عادت من جديد إلى الصف . وبات هذا واضحاً من خلال المجموعات المجاورة . من سيرسلون ، إذن ، للعمل في «المدينة الاشتراكية» ؟ الأفقر ، والأغبى ، طبعاً . أوّوو سيكون هناك زمهرير ، سبع وعشرون تحت الصفر ، وريح تهب ، ولا ملجأ ، ولا مدفأ!

يحتاج عريف المجموعة إلى الكثير من شحم الخنزير : لقسم التوجيه السياسي ولبطنه أيضاً . ومع أن العريف لا يحصل على طرود من خارج المعتقل ، إلا أنه لا يبقى من دون شحم ، فمن يتلقى من المجموعة طرداً يحمل إليه هدية منه . وإلا فكيف يمكنه العيش .

يكتب رئيس المهمات على لوحه :

ـ عندك واحد مريض يا تيورين ، وثلاثة وعشرون يخرجون إلى العمل اليوم ؟

ـ ثلاثة وعشرون . هزَّ العريف رأسه بالإيجاب .

من المريض ؟ بانتيلييف هو الغائب ، ومنذ متى كان بانتيلييف مريضاً ؟ وسرت في الحال همهمة في المجموعة : بانتيلييف ، ابن الكلبة ، ها هو يبقى ، من جديد ، في المعسكر ، إنه لا يشكو من أي مرض ، هذا النمام تركوه هنا ، هو لا بد سيشي بأحد ما من جديد . كل نهار يطلبونه حتماً ، ويحتفظون به ثلاث ساعات ، ولا من رأى ، ولا من سمع... كما لو أنه قضاها في المستوصف...

بدت الصفوف سوداء بلون سترات المعتقلين . سارت المجموعات ببطء متدافعة إلى الأمام لإجراء التفقد والتفتيش . وتذكر شوخوف أنه أراد تجديد الرقم على سترته . خرج من صفه والتحق بصف انتظم جانباً ، وقف فيه اثنان أو ثلاثة من المعتقلين في دورهم أمام الخطاط ، وقف خلفهم شوخوف . ليس من هذا الرقم إلا الضرر : المراقب يراه ، السجّان يراه ويكتبه من بعيد ، وإذا لم تجدده في حينه تساق إلى الزنزانة ، فلماذا أنت لا تهتم برقمك ؟

كان في المعتقل ثلاثة رسامين ، يرسمون اللوحات بالمجان للقيادة ، ويذهبون بالتناوب إلى ساحة الاجتماع لكتابة أرقام المعتقلين . اليوم ، دور العجوز ذي اللحية البيضاء ، وهو عندما يكتب الرقم على قبعة المعتقل يبدو كالكاهن الذي يمسح الجباه بالطمأنينة .

يجرّ فرشاته راسماً الأرقام ، وينفخ في قفازه . قفازه من صوف ناعم ، تتجلد اليد فيه ، ولا تطاوع صاحبها لكتابة الأرقام .

جدد الرسام الرقم (٨٥٤) على سترة شوخوف... وما أن انتهى من ذلك ، حتى ركض شوخوف ممسكاً حبل الحزام بيده ، من دون أن يشد عليه سترته ، للحاق بمجموعته ، فلم يبق إلا القليل حتى يأتي دورها بالتفقد . لاحظ شوخوف في الحال أن المعتقل سيزر يدخن ، وهو لا يدخن غليوناً ، بل لفافة تبغ ، وهذا يعني يمكن تمنية النفس بالحصول على عقبها . لكن شوخوف لا يرجو ذلك بوضوح ، بل يقف بالقرب من سيزر تماماً ، ويراقبه بطرف عينه . كان يتظاهر بالنظر جانباً بلا مبالاة ، ولكنه كان يرى بعد كل مصة من سيزر الذي نادراً ما كان يطيل سحب الدخان متأملاً ، كيف يتقدم سوار اللهب الأحمر في اللفافة ، ويلتهمها زاحفاً باتجاه المشرب .

تقدم فيتيوكوف أيضاً ، سحبه الدخان ، فوقف أمام سيزر مباشرة محدقاً في فمه عن كثب ، بينما عيناه تشعان نهماً .

لم يبق لدى شوخوف أي تبغ ، ولا حيلة لديه للحصول عليه قبل المساء . لقد توتر كل ما فيه في حالة الترقب هذه ، ونمت رغبته بعقب هذه السيجارة ، حتى غدت أقوى الآن من رغبته بالحرية بالذات ، ولكنه لم يكن ليذل نفسه كما يفعل فيتيوكوف المحدق في فم سيزر مباشرة .

كان سيزر هذا خليطاً من جميع القوميات فلا تكاد تفهم أيكون يونانياً ، أم يهودياً ، أم غجرياً... كان يصور أفلاماً سينمائية ، ولكنه لم يكد ينتهي من تصوير فيلمه الأول حتى اعتقلوه . شاربا سيزر أسودان كثان ، متهدلان . لم يحلقوا له شاربيه هنا لأن الصورة التي في إضبارته بشاربين .

ـ سيزر ماركوڤيتش! ـ لم يستطع فيتيوكوف المقاومة ، سال لعابه ـ اعطوني ولو سحبة واحدة!

اختلج وجهه من النهم والرغبة .

... باعد سيزر جفنيه ، نصف المتهدلين فوق عينيه السوداوين . ونظر إلى فيتيوكوف . لهذا السبب صار سيزر يدخن . ، غالباً ، غليوناً بدل السجائر... كي لا يقاطعوه وهو يدخن ، ولايطلبون منه سحبة ، ليس حرصاً على التبغ ، بل على سلسلة أفكاره ، التي يقطعونها . هو يدخن لكي يوقظ في نفسه الأفكار القوية ، ويطلقها من عقالها لتجد شيئاً ما . ولكنه ما أن يشعل لفافة التبغ حتى يرى ، في الحال ، الرجاء في عدد من العيون «اترك لنا قليلاً منها ندخنه!»...

التفت سيزر باتجاه شوخوف ، وقال :

ـ خذ ، يا إيڤان دينيسوفيتش!

ثم أخرج بابهامه العقب المشتعل من المشرب الكهرماني القصير . شهق شوخوف! هذا ما كان يريده وينتظره تماماً . كان ينتظر أن يعرض عليه سيزر بنفسه بقية السيجارة . مد يده ملتقطاً العقب بخفة وبحركة امتنان ، وحماه باليد الثانية من الأسفل ، كي لا يسقط على الأرض . هو لم

يزعل لأن سيزر أنف إعطاءه المشرب ليدخن منه مباشرة ، فمن الذي يدري أي من الأفواه نظيف هنا وأيها متعفن . أصابعه الخشنة المقساة ، لم تشعر بلذع النار ، فقد أمسكت بنار العقب مباشرة . المهم أنه تخلص من هذا الجقل فيتيوكوف ، وها هو الآن يسحب الدخان ، إم م م م... حتى لذعت النار شفتيه .

انتشر الدخان في جسده الجائع ، وتسلل إلى رجليه ، وإلى رأسه .

ما أن تغلغلت هذه النعمة في جسده . حتى سمع إيفان دينيسوفيتش همهمة :

ـ إنهم يأخذون القمصان!...

هكذا هي حياة المعتقل . لقد تعود شوخوف : كن على استعداد دائم ، من أن ينقضّ أحد على عنقك .

لماذا القمصان ؟ هذه القمصان ، كان القائد بذاته قد منحها ؟... لا ، لا ، ما هكذا...

بقي حتى التفتيش مجموعتان . وقف كل من في المجموعة ١٠٤ يترقب : جاء الملازم ڤولكوڤوي قائد الانضباط من برّاكة القيادة وقال شيئاً ما للعسس الذين يقومون بالتفتيش... وهكذا انقضّ هؤلاء ، الذين كانوا يفتشون من دونه كيفما اتفق ، كالوحوش على المعتقلين ، وصار كبيرهم يصيح :

ـ فكوا أزرار القمصان!

ليس فقط المعتقلون يخافون ڤولكوڤوي هذا ، وليس فقط السجانون ، بل يقال بأن قائد المعتقل بذاته يخشاه . إن الله يمهر الأنذال بخاتمه

الخاص ، ولهذا منحه هذه الكنية! وڤولكوڤوي* هذا يبدو ، فعلاً ، كذئب ، قاتم ، طويل ، متجهم ، سريع الحركة . يخرج ، فجأة ، من برّاكته «ما الذي جمعكم هنا ؟» ولا يمكن اتقاء شره . كان سابقاً يحمل سوطاً من جلد مجدول يصل إلى ركبته ، حصل عليه في الزنزانة ، كما يقولون .

عندما يحتشد المعتقلون عند البرّاكة في الاجتماع المسائي ، يتسلل من الخلف ، ويجلد الرقاب بسوطه «لماذا لا تقف في الصف يا حقير ؟» ويتدافع الحشد عنه كالموج . من سلخ السوط رقبته ، يمسح الدم عنها بصمت ، فالمهم ألا يساق إلى الزنزانة بعد كل هذا .

أمّا الآن ، فإنه لم يعد يحمل السوط . الله أعلم لماذا!

كانت إجراءات التفتيش في البرد أخف في الصباح ، مما هي في المساء : يفك المعتقل أزرار سترته ، ويفتح صدره . ويتقدم المعتقلون خمسة ـ خمسة ، ويقف للقائهم خمسة من العسس ، يخبطون على أجناب سترات المعتقلين ، يخبطون على الجيب الوحيد المسموح بوجوده على الركبة اليمنى . العسس يلبسون القفازات ، وإذا ما صادفهم شيء ما غامض ، يتحسسونه ، ولا يطالبون بإخراجه في الحال ، بل يتكاسلون عن ذلك متسائلين :

«ما هذا الذي هنا ؟»

ما الذي يبحثون عنه عند المعتقل في الصباح ؟ السكاكين ؟ المعتقلون لا يخرجون السكاكين من المعسكر ، بل يدخلونها إليه . التفتيش في الصباح يكون عن الطعام ، يفتشون... لربما كان المعتقل يحمل معه بعض

* ڤولكوڤوي : صفة من ڤولك وتعني بالروسية ذئب .

الخبز ، ثلاث كيلو غرامات مثلاً ليفر بها . مر زمن كانوا يخافون فيه على هذا الخبز ، على هذه المائتي غرام منه ، حصة الغداء ، واستمر ذلك حتى صدرت الأوامر : على كل مجموعة أن تصنع لنفسها صندوقاً خشبياً ، وتضع فيه خبز المجموعة كُلّه . يجب جمع قطع الخبز من كل المعتقلين في هذا الصندوق . ما الهدف الذي أراد الأعداء الوصول إليه ؟ من الصعب تخمين ذلك . على الأرجح أرادوا تعذيب المعتقلين بهَم إضافي : اقرض قطعة الخبز الخاصة بك ، علمِّها بطريقة ما قبل أن تضعها في الصندوق... ولكن القطع جميعها متشابهة ، فهي من الخبز ذاته! وعلى المعتقل إذن أن يفكّر بهذا طوال الطريق ، ويتعذب ، ألن يبدلوا خبزه!

كان المعتقلون يتجادلون مع بعضهم بعضاً ، حتى يصل الأمر إلى العراك . حصل ذات مرة ، أن فر من موقع العمل ثلاثة في سيارة وأخذوا معهم حقيبة الخبز . صار القادة عندئذ أذكياء وأمروا بجمع صناديق الخشب ، وإلغاء استعمالها . ليكن ، إذن ، احمل خبزك معك .

أجل ، ويجب أن يبحث العسس في الصباح عن بدلة مدنية ، ربما تكون قد ارتديتها تحت لباس المعتقل! لكنهم كنسوا اللباس المدني منذ زمن من عند جميع المعتقلين ، ولن يراه أحد قبل الإفراج عنه ، هكذا قالوا آنئذ . ولكن لا أحد في هذا المعتقل يرى يوماً يفرج فيه عنه .

التفتيش أيضاً يجب أن يشمل الرسائل ، ألا تحمل معك رسالة ما لتبعث بها مع واحد من العمال الأحرار الأجراء ؟

لا ينقصنا هنا إلا البحث عن الرسائل ، فسيستغرق ذلك حتى حلول الغداء .

لكن ڤولكوڤوي أمر بالتفتيش عن شيء ما آخر . خلع العسس قفازاتهم

بسرعة . وأمروا بفتح السترات ، حيث خبأ كل معتقل دفء البرّاكة في عبه ، وأمروا بفك أزرار القميص ، وحشروا أيديهم يفتشون ، ألم يلبس المعتقل شيئاً ما لا تسمح به التعليمات . التعليمات تسمح للمعتقل بارتداء قميصين فقط واحد داخلي وآخر خارجي ، وكل ما عداها يجب خلعه في الحال!

وهكذا تناقل المعتقلون أمر ڤولكوڤوي من صف إلى آخر . كان حظّ المجموعات التي مرّت قبل قدومه سعيداً ، فقد غادرت معسكر الاعتقال ، أما من بقي هنا فليفتح صدره ، وإذا كنت تلبس زيادة ما ، فلتخلعها هنا ، على الجليد مباشرة!

بدؤوا بتنفيذ الأوامر ، ولكن بدأ مع ذلك التأخير . يصيح الحراس من بوابة المعتقل : هيا ، هيا! فيلجأ فولكوڤوي إلى حل آخر ، ينزل رحمة على المجموعة ١٠٤ التي تنتظر دورها بالتفتيش : سجلّوا أسماء من لديهم لباس زائد ، وهم بأنفسهم يأتون في المساء إلى المستودع ، ويسلمونه ، ويكتبون هناك تصريحاً يوضحون فيه كيف ولماذا لم يعترفوا بوجوده قبلاً .

كان كل ما لدى شوخوف حكومي . هيا فتش الصدر والروح إن شئت أما عند سيزر فعثروا على قميص صوفي ، وعثروا عند بوينوفسكي على كنزة وجيليت ، أو قميص بلا أكمام . غص بوينوفسكي بقهره ، فهو لم ينس بعد كاسحة الألغام ، ولم يكمل ثلاثة الأشهر ، هنا ، في معسكر الاعتقال :

ـ أنتم لا تملكون الحق بتعرية الناس في الجليد! ألا تعرفون المادة التاسعة من قانون العقوبات...!

يملكون ، ويعرفون! هذا أنت يا أخي الذي لا يعرف .

ـ أنتم لستم سوڤييتيين! تابع النقيب بوينوڤسكي اعتراضه .

كان فولكوفوي قد صبر على المادة التاسعة ، أمّا هنا ، فانتفض كالبرق الأسود :

ـ عشرة أيام في الزنزانة!

وتوجه ، بهدوء أكثر ، إلى قائد العسس :

ـ نظمها مع حلول المساء .

هم لا يحبون السوق إلى الزنزانة في النهار!

يضيع يوم العمل . ليحن ظهره في النهار ، وليسق إلى زنزانة السجن في المساء .

زنزانات سجن المعتقل واقعة على اليمين من ساحة التفقد ، في جناحين من بناء حجري . بُني ثانيهما في الخريف الفائت ، حين لم يعد يتسع الأول للمعتقلين . في هذا السجن ثمانية عشر عنبراً ، أما الإفراديات ، فمقتطعة من هذه العنابر . معسكر الاعتقال كله مبني من الخشب ، ما عدا السجن فقد بني من الحجر .

تسلل البرد تحت القميص ، ولن يكون بمقدورك أن تطرده الآن . عبثاً لف المعتقلون أجسادهم بحثاً عن الدفء . ها هو الألم يمسك بظهر شوخوف . لو يرقد على سرير في مشفى الآن ، وينام . إنه لا يحلم بأي شيء آخر ، فقط لو يكون اللحاف أثقل ما يمكن أن يكون .

وقف المعتقلون أمام البوابة يزررون ملابسهم ، يتزنرون . يستحثهم من الخارج صراخ الحراس :

ـ هيا ، هيا!

ورئيس المهمّات يدفعهم من الخلف .

ـ هيا ، هيا!

هناك بوابة أولى ، ثم ممر قبل المعتقل ، ثم بوابة ثانية ، ثم حواجز من الجهتين بالقرب من محرسي البوابة .

ـ قف! ـ يصيح الحارس ـ هيا اصطفوا خمسة ـ خمسة كقطيع الخراف .

ها هي الظلمة قد انقشعت . تأججت النار التي أشعلها الحراس خارج البوابة . إنهم ، دائماً ، يشعلون النار قبل الخروج إلى العمل للتدفؤ ، وليصبح عد المعتقلين أسهل عليهم .

صاح أحد الحراس بصوت عالٍ :

ـ الخمسة الأولى ، الثانية ، الثالثة...

تنفصل الخمسات وتسير في سلاسل مستقلة . ولتنظر كيفما تشاء ، من الخلف ، من الأمام ، من أي مكان ، فسترى خمسة رؤوس ، خمسة ظهور ، عشرة أقدام .

أما الحارس الثاني المدقق ، فوقف عند الحاجز الآخر ، صامتاً ، يدقق في أعداد المعتقلين . الملازم ، وقف أيضاًيتفحصهم .

كل هذا من جهة المعتقل .

الإنسان هنا أغلى من الذهب . لن تخرج رأساً واحداً من وراء الأسلاك الشائكة ، قبل أن تضيف رأسك إليها .

عادت المجموعة لتلتحم من جديد . وهنا بدأ رقيب الحرس يعد :

ـ الأولى ، الثانية ، الثالثة!

ومرة أخرى ، تعود الخمسات لتنفصل ، وتسير في سلاسل مستقلة .

ومن الجهة الثانية من البوابة يقف معاون رئيس الحرس مدققاً في أعداد المعتقلين ويقف قربه ملازم أيضاً .

هذا من جهة الحرس .

لا يجوز الخطأ هنا على الاطلاق . تخطئ في رأس ، يكون رأسك هو البديل .

يحيط الحراس من كل جهة بالمعتقلين ، بنادقهم مشرعة ، سبطاناتها في الوجوه مباشرة . والكلابة أيضاً يقفون هنا مع كلابهم الرمادية .

واحد من الكلاب كشر عن أنيابه كما لو أنه يسخر من المعتقلين .

جميع جنود الحراسة في معاطف فرو قصيرة ، ما عدا ستة منهم في فروات خراف . فرواتهم مشتركة للجميع ، يلبسها من يخرج في نوبة حراسة .

وما أن تعود المجموعات لتتحد ، حتى يقوم الحراس بعدّ جميع المعتقلين في المستعمرة ، مرّة أخرى ، خمسة ـ خمسة .

ـ الزمهرير الأعتى يكون عند الفجر! ـ أعلن المقدم البحري ـ لأنها آخر نقطة في التبريد الليلي .

يحب المقدم أن يوضح ، دائماً ، في أي طور يكون القمر : هلال ، بدر... ويحسب لك أي يوم تريد ، في أي عام .

ينحل المقدم على مرأى النظر ، خداه يضمران ، لكنه ما يزال نشيطاً .

أمسك الجليد ، هنا خارج المعتقل ، مع هبات الريح بوجه شوخوف

الصابر على كل شيء . أدرك أن الهبوب سيستمر في صفع وجوههم طوال طريقهم إلى موقع العمل . قرر شوخوف أن يتقنع بخرقة . كانت لديه خرقة للحالات الطارئة . حين تهب ريح صرصر في الوجه ، كما عند الآخرين .

خرقة شوخوف مزودة بذيلين طويلين . أدرك المعتقلون أن مثل هذه الخرقة تعين في اتقاء شر الجليد . لف شوخوف وجهه من الأسفل وحتى عينيه ولف ذيلي الخرقة حول رأسه ، ثم ربطهما على جبهته . ومن ثم غطى جبهته بمقدمة قبعته ، ورفع ياقة سترته . وهكذا لم يبق من رأسه شيءٌ مشكوفٌ إلا عيناه . حزم سترته جيداً بالحبل ، الآن لا بأس عليه . لكن كميه رقيقان ، وها هما يداه فريسة للصقيع . فركهما شوخوف ، وخبط عليهما ، ولكن لا فائدة ، وعليه الآن أن يضعهما وراء ظهره طوال الطريق .

قرأ رئيس الحرس « صلاة » المعتقلين اليومية المضجرة :

ــ المعتقلون ، انتباه! حافظ على النسق ، وعلى الرتل جيداً أثناء المسير! لا تتمهل ، ولا تركض ، ولا تنتقل من خمسة إلى أخرى ، ولا تتحدث ، ولا تتلفت جانباً ، حافظ على يديك وراء ظهرك! خطوة إلى اليمين ، أو خطوة إلى اليسار ستعد بمثابة محاولة الفرار ، وسيفتح الحراس النار من دون انذار! بخطوة إلى الأمام سر .

وكما تقضي التعليمات سار حارسان في المقدمة ، وتحركت الأرتال إلى الأمام ، وهزت اكتافها ، وجنود الحراسة ، من اليمين ومن اليسار ، يمشون على بعد عشرين خطوة من المعتقلين ، بين واحدهم والآخر عشر خطوات ، يحملون رشاشاتهم المستعدة لإطلاق النار .

لم يسقط الثلج منذ أسبوع ، فالطريق الآن مرصوصة بالأقدام ، مقتولة .

ها هم قد خلّفوا معسكر الاعتقال وراءَهم . صارت الريح تسفعهم من الجانب . سار المعتقلون بأيدٍ مشدودة إلى الخلف ، ورؤوس مطأطأة ، كما لو أنهم في جنازة . لم يكن الواحد منهم يرى أكثر من أقدام اثنين ، ثلاثة أمامه ، أو قطعة تراب مداسة ، حيث سيكون عليه أن يدوس .

من حين إلى آخر يصيح واحد ما من جنود الحراسة : «يو ـ ٤٨! شد يديك جيداً إلى الخلف!» «بي ـ ٥٢! شد ظهرك!» ، ولكن حتى هؤلاء الجنود يخف صياحهم مع مرور الوقت ، فالريح تصفعهم في وجوههم . وتعيق المراقبة . لا يسمح للجنود بلف خرق على وجوههم . خدمتهم ليست مريحة .

عندما يكون الجو أدفأ ، يتحدث الجميع أثناء المسير ، ولا يلقون بالاً إلى صراخ الحراس ، وتهديداتهم . أما اليوم ، فقد انكمش الجميع ، كل يحتمي بظهر الآخر ، وكل يسير حاملاً همومه .

هموم المعتقل ، معتقلة أيضاً ، فكل الأفكار تعود إلى هناك : أليس محتملاً أن يعثروا على قطعة الخبز المخبأة في الفراش ، ويسرقوها ؟ أسيكون بالإمكان الحصول على استراحة مرضية من المستوصف في المساء ؟

أيحبسون المقدم البحري في الزنزانة ، أم أنهم لا يحبسونه ؟ كيف حصل سيزر على ملابسه الداخلية الدافئة ، ومن أين ؟ إنه على الأرجح رشا من في المستودع ، وإلا فمن أين له بهذه الحاجيات الشخصية ؟

لأن شوخوف أفطر اليوم بلا خبز ، وأكل طعامه بارداً ، فهو لا يشعر بالشبع الآن . ولكي لا تقرقر أمعاؤه ، ولا تلح في طلب الطعام ، لم يعد يفكر بمعسكر الاعتقال ، بل راح يفكر كيف سيكتب ، قريباً ، رسالة إلى البيت .

سارت أرتال المعتقلين قرب مبانٍ خشبية ، كان قد بناها معتقلون أيضاً ، لكن يعيش فيها أحرار الآن ، وسارت قرب نادٍ جديد ، بناه المعتقلون أيضاً من أساسه ، وحتى لوحاته الجدارية ، يتفرج فيه الأحرار الآن على الأفلام السينمائية .

خرج المعتقلون إلى السهب ، في مواجهة الريح مباشرة ، وفي مواجهة الغسق . رقد الثلج الأبيض الجليدي العاري على جانبي الطريق ، ولم تكن هناك شجرة واحدة على امتداد هذا السهب الفسيح .

بدأ عام جديد ، العام الواحد والخمسون ، وكان يحق لشوخوف أن يكتب خلاله رسالتين . كان قد أرسل آخر رسالة في تموز ، وحصل على رد عليها في تشرين الأول . كانت الأنظمة في أوست إيجما مختلفة عما هي هنا ، فهناك اكتب رسالة كل شهر إن أنت أردت . ولكن عما عساك تكتب في الرسالة ؟ لم يكتب شوخوف هناك من الرسائل أكثر مما يكتب هنا .

خرج شوخوف من بيته في الثالث والعشرين من حزيران ، سنة ١٩٤١ .

جاء الناس يوم الأحد من بولومنا وقالوا بدأت الحرب . وصل خبر نشوب الحرب إلى مكتب البريد في بولومنا ، أما في تيمغينيوڤ فلم يكن أحد يملك جهاز المذياع قبل الحرب ، ولكن الآن ، كما يكتبون ، صار لدى الناس في كل كوخ مذياع . وكلها مربوطة بشبكة إذاعة مركزية .

ما الذي أكتبه الآن ـ فكر شوخوف ـ أأكتب أن الحجارة تلقى في اللج العميق ، وأن ما سقط غار ، وانتهى إلى غير رجعة... لا تستطيع أن تكتب في أية مجموعة تعمل ، ومن هو عريف مجموعتك ، أندريه ، أم بروكوفيڤيتش ، أم تيورين... أم سيكليد غسوم اللاتفي الآن... عم نتحدث إذا لم نتحدث عن

الأشياء البيتية ، عن الحياة اليومية! وحتى هم لا يكتبون أكثر من مرتين في العام ، فأنّى لك أن تفهم ما يدور في حياتهم .

رئيس الكولخوز ، يقولون ، جديد . وماذا في ذلك! هو كل عام جديد . فهم لا يبقونهم في منصبهم أكثر من عام... وسعوا الكولخوز ، وماذا عنه ، فهم يوسعونه قبل ذلك أيضاً ، ومن ثم يصغرونه... ومن لا ينجز خطة العمل الالزامية يقتطعون من أرضه الخاصة ، ويبقون له ما لا يزيد عن ١٥٠٠ متر من الأرض ، أو حتى إنهم يأتون على كل شبر من أرضه حتى حدود بيته... وماذا غير ذلك ؟ كتبت إحدى الفلاحات ذات مرّة أن هناك قانوناً يعاقب من لا ينجز الخطة بموجبه ، وكل من لا ينجز الخطة يزج في السجن ، ولكن هذا القانون ، لحسن الحظ ، لم يعمل به...

الشيء الذي لا يستطيع شوخوف فهمه ، هو أنه منذ الحرب وحتى الآن ، لم يأت أي شخص جديد إلى الكولخوز ، فالشبان والشابات كل منهم يحتال بطريقته ، ويغادرون الكولخوز تباعاً . منهم من يذهب إلى العمل في المدينة ، ومنهم من يذهب إلى العمل في مجمعات التورف . أما الرجال ، فنصفهم على الأقل لم يرجع من الحرب ، ومن عاد منهم لم يعد يعترف بالكولخوز . إنهم يعيشون في الكولخوز ، ويعملون في مكان آخر غيره ، يقتصر الرجال في الكولخوز على رئيس فريق العمال زاخار فاسيليتش ، والنجار تيخون ذي الثلاثة والثمانين عاماً ، والذي تزوج منذ فترة قريبة ، وأنجب أطفالاً ، أمّا الكولخوز ، فيسير على أكتاف النساء اللواتي يعملن فيه منذ عام الثلاثين... فإذا ما هن سقطن ، هلك الكولخوز معهن . وهذا ما لا يستطيع شوخوف فهمه على الإطلاق . يعيشون في الكولخوز ، ويعملون في مكان غيره . كان شوخوف يعيش في الكولخوز ، ويحيا حياة مستقلة ، وهو

لا يفهم كيف يمكن للفلاحين ألا يعملوا في قريتهم . هذا ما يصعب عليه تقبلّه ، أيكون ذلك ، يا ترى ، نتيجة «مزاولة الحرفة» في مكان آخر ؟ ومن الذي سيحش العشب إذن ؟ الذهاب «لمزاولة حرفة» تخلوا عنه ، كما تقول زوجته ، منذ زمن . فلا أحد يتجه الآن للعمل بالنجارة التي اشتهرت بها بلدتهم ، ولا هم ينسجون السلال... ليس هناك من يريد هذه الأشياء الآن . أمّا بالنسبة للحرفة ، فهناك على أية حال حرفة جديدة طريفة ، هي تلوين البسط . جاء واحد من الحرب بقوالب رسوم ، وبدأ التلوين ، ومنذئذ ازداد عدد المشتغلين بهذه الحرفة يوماً بعد يوم ، وهؤلاء لا يلتزمون بأي عمل ، ولا يعملون في أي مكان ، يساعدون الكولخوز شهراً واحداً ، فقط ، في العام ، في موسم حش العشب وحصاد المحاصيل ، ومقابل ذلك ، يعطيهم الكولخوز وثيقة عن أحد عشرشهراً ، تقول بأن الفلاح الكولخوزي فلان بن فلان يسمح له بمزاولة أعماله الخاصة ، وإنه ليس مديناً للكولخوز بأي شيء . وبالتالي يتجول هؤلاء في أنحاء البلاد ، ويطيرون بالطائرات ليقتصدوا الوقت ، ويجمعون الآلاف الكثيرة من الروبلات . يلونون البسط في كل مكان . يرسمون على أي شرشف قديم مقابل خمسين روبلاً . أي شرشف تعطيهم إياه... أي شرشف لا أسف عليه... يطبعون الرسم عليه خلال ساعة واحدة لا أكثر .

زوجة إيڤان تحتضن أملاً ، بأن زوجها حين يعود لن يذهب إلى العمل في الكولخوز ، بل سيصبح ملون بسط كغيره من الرجال ، وعندئذٍ سيخرجون من ربقة الفقر المدقع التي غرقوا فيها ، ويرسلون أولادهم للتعلم في المعاهد ، ويبنون كوخاً جديداً ، بدل كوخهم العتيق المتهالك . كل ملوني البسط عمرّوا بيوتاً جديدة قرب سكة الحديد . صار البيت بخمسة وعشرين ألفاً ، وليس بخمسة آلاف كما كان سابقاً .

مع أن شوخوف ، عليه أن يبقى في المعتقل زمناً ليس بقليل ، شتاء وصيف ، وشتاء وصيف ، فقد شغلته هذه البسط ، فهذا عمل يناسبه ، خاصة إذا كان سيحرم من حقوقه ، أو ينفى بعد المعتقل إلى مكان ما . طلب في إحدى رسائله من زوجته أن توضح له كيف سيصبح ملوناً إذا كان لا يجيد الرسم منذ ولادته . ثم ما هذه البسط العجيبة ، وما الذي يثير فيها ؟ أجابته زوجته ، بأن الأبله وحده ، هو من لا يستطيع رسمها : ضع قالب الرسم ، واملأ الفراغات بواسطة الريشة . أمّا البسط ، فثلاثة أصناف : واحد منها ترويكا ، حيث تجر ثلاثة خيول عربة عليها ضابط ؛ الثاني غزال ؛ والثالث تقليد للعجمي ، وليست هناك أية رسومات أخرى . وهذه الرسومات يلتقطها الجميع من يديك ، ويقولون لك شكراً ، فالبساط الحقيقي ، ليس بخمسين روبلاً كهذه ، بل بألف . لو يستطيع شوخوف أن يلقي نظرة ، لا أكثر ، على هذه البسط...

في السجون والمعتقلات ، لم يعد إيڤان دينيسوڤيتش يجيد التفكير بما سيكون غداً ، أو بعد عام ، وبالطريقة التي سيعيل بها أسرته . فالقيادة هنا تفكر بكل شيء بدلاً عنه... وكما لو أن ذلك يريحه هنا ، ولكن كيف سيتصرف عندما يخرج ؟...

بات واضحاً لشوخوف من خلال أحاديث السائقين الأحرار ، وعمّال الحفارات أن الطرق المستقيمة مغلقة أمام الناس ، ومع هذا فهم لا يضيعون ، بل يلتفون ويعيشون . شوخوف أيضاً يمكنه أن يلتف ، فالدخل على ما يبدو سهل المنال ، ويثير الحماس . عدا عن ذلك ، فالتخلف عمن في القرية أمر معيب... بيد أن تلوين البسط لا ينسجم مع روح إيڤان دينيسوڤيتش ، فمن أجل النجاح في ذلك لا بد من الشطارة ، والوقاحة ، ورشوة الشرطة...

وشوخوف الذي يجوس الأرض منذ أربعين عاماً ، لم يبق خلالها في فمه أسنان ، ولا على رأسه شعر ، لم يرش أحداً في حياته ، ولم يرتش من أحد بتاتاً ، وحتى هنا في المعتقل لم يستطع تعلم ذلك .

مال سهل ، لكن لا وزن له ، لا تشعر بأنك أنجزت عملاً تستحق لقاءه الحصول على المال . صحيح ما يقوله العجائز : كل ما لا تدفع ثمنه ، لا تبليه .

ما تزال يدا شوخوف طيبتين ، قادرتين . أيعقل أنه لن يجد في الحرية عملاً شريفاً يزاوله ؟ وأية حرية تلك! أسيأتي ، بالفعل ، يوم يخلون فيه سبيله ؟ ألن يضيفوا عشرة أعوام أخرى مقابل لا شيء ؟...

وصل طابور المعتقلين إلى بوابة واسعة مشرعة على معسكر الأشغال الشاقة . وقف أمامها المعتقلون . قبل الوصول بقليل انفصل اثنان من جنود الحراسة في فروتيهما ، وتقدما عبر الساحة إلى محرسيهما . لن يسمحوا للمعتقلين بالدخول قبل أن يشغل الحراس جميع نقاط الحراسة . اتجه قائد الحرس ، معلقاً رشاشة على كتفه ، باتجاه محرس البوابة . ومن هناك ، من مدخنة غرفة المحرس ، كان الدخان يتصاعد كخيط مجدول : يجلس هناك حارس حر طوال الليل كي لا يسرقوا ألواح الخشب ، أو أكياس الأسمنت .

جانباً ، عبر البوابة المشبكة بالاسلاك الشائكة ، عبر معسكر الأشغال الشاقة كله ، وعبر تلك الأسلاك الشائكة البعيدة ، كانت الشمس ترى وهي تصعد أكبر ، وأكثر احمراراً ، كما لو أنها قرص ضوء في العتمة . كان اليوشا بالقرب من شوخوف ينظر صوب الشمس فرحاً ، يفترّ ثغره عن ابتسامة . خدّا أليوشا ضامران . إنه يعيش على الخبز وحده ، ولا يحصل على أي شيء إضافي...

ما الذي يفرحه ؟ يتهامس أليوشا في آيام الآحاد مع بقية الانجيليين .

المعتقلات من دونهم كالإوزة بلا ماء . حكموا الواحد منهم بخمسة وعشرين عاماً على ديانته ، أيظنون أنهم ، بذلك ، سيحيدونهم عن دينهم ؟

بللت الأنفاس في الطريق تلك الخرقة التي تلف الوجه ، وفي مكان ما تجلّدت عليها ، حتى اكتست بقشرة صلبة ، رفعها شوخوف عن وجهه وتركها تحيط بعنقه ، ووقف مديراً ظهره باتجاه الريح . على أية حال . لم يستطع البرد أن يطال جسده بشدة في أي مكان ، إلا من كميه الرقيقين ، فقد طال يديه . وخزهما الصقيع ، كما نَملت أصابع قدمه اليسري في جزمة اللباد . كانت الفردة اليسرى قد احترقت ، وهو يخيطها للمرة الثانية . إنه الآن يشعر بتشنجات عموده الفقري ، وظهره يرتعش من أسفله حتى الكتفين ، فكيف سيتمكن من العمل ؟

تلفت شوخوف حوله ، فالتقطت عيناه عريف المجموعة وهو يتجه صوب الخمسة الأخيرة . العريف رجل عريض المنكبين ، جسيم ، يقف بنشاط ، لا يدلّل مجموعته ، ولكنه يطعمها بصورة لا بأس بها ، إنه يسعى ، دوماً ، للحصول على مخصصات أكبر ، وهو معتقل للمرة الثانية ، فهو ابن غولاغ* ، يعرف عادات المعتقل عن ظهر قلب .

عريف مجموعتك في المعتقل ، هو كل شيء بالنسبة لك : عريف جيد ، يمنحك حياة أخرى ، عريف سيىء ، يحشرك في التابوت . عرف شوخوف عريف مجموعته أندريه بروكوفيڤيتش مذ كان في أوست إيجما ، ولكنه هناك لم يكن في عداد مجموعته . بيد أن تيورين عندما نقلوا المحكومين بالمادة ٥٨ من معتقلهم العام في أوست إيجما إلى معسكر الأشغال الشاقة هنا ، ضم شوخوف إلى مجموعته . لا علاقة لشوخوف بقسم التوجيه

* غولاغ : منظومة المعتقلات السوفيتية (التسمية أصلاً من مختصرات : الإدارة للمعتقلات) .

السياسي ، ولا بالمشرفين ، ولا بالمهندسين ، فالعريف هو من يدافع عنه في جميع هذه الأماكن . صدر العريف فولاذي . وبالمقابل ، ما على العريف إلا أن يؤشر بإصبعه : اركض ، اعمل... اخدع من تشاء في المعتقل ، ولا تخدع أندريه بروكوفيڤيتش ، وستبقى حياً .

ما أشد ما يتمنى شوخوف أن يسأل العريف إذا ما كانوا سيعملون هناك حيث عملوا البارحة ، أم أنهم سيعملون في مكان جديد ، ولكنه يخشى قطع سلسلة أفكاره العظيمة . فهو بالكاد نفض «المدينة الاشتراكية» عن كتفيه ، وراح يفكر بنسب الانجاز ، فطعام الأيام الخمسة القادمة يتعلق بهذه النسب . وجه العريف مغطى ببثور كبيرة خلفتها الجدري . هو يقف في مواجهة الريح ، ولا يتجعد جلد وجهه ، كقلف البلوط .

يخبط المعتقلون الواقفون في أرتالهم بأيديهم وبأرجلهم . الريح عاتية صرصر! يخيّل إليهم أن نقاط الحراسة الست شغلها الحراس ، ومع ذلك ، لا يدعونهم للدخول إلى المعسكر . يظهرون المزيد من الحذر . ولكن ها هو رئيس الحرس يخرج من محرس البوابة ، أخيراً . وهناك من يقف على جانبي البوابة ويبدأ بفتحها .

ـ انتظموا في خمسات! الأولى! الثانية...

سار المعتقلون كما لو أنهم في عرض عسكري ، بخطوات تكاد تكون منتظمة ، همهم فقط أن يدخلوا إلى ساحة المعسكر ، وهناك لا حاجة لهم بمن يعلمهم ماذا يفعلون .

بعد محرس البوابة ، مباشرة ، تنتصب برّاكة الإدارة ، وبالقرب منها يقف مشرف الأعمال . يتوجه المشرف صوب عرفاء المجموعات ، وهم من دون ذلك يتجهون نحوه . وإلى هناك أيضاً يتجه المعتقل دير رئيس فرقة

العمال ، لكن هذا الحقير يعامل أخاه المعتقل أسوأ من معاملة الكلاب من موقعه كرنيس فرقة .

الساعة الثامنة... الثامنة وخمس دقائق... الآن فقط شخر مولّد الطاقة . تخشى الإدارة أن يضيع المعتقلون الوقت ، وأن يتجمعّوا للتدفؤ . يوم العمل عند المعتقلين طويل ، وهو يكفي لفعل كل شيء .

ترى الذي يدخل المعسكر ينحني هنا ، وينحني هناك ، فهنا قطعة خشب وهناك كسرة منه... وهي نار للموقد ، تتلوى وتطقطق في بيت النار .

أمر تيورين مساعده باڤل بالذهاب معه إلى برّاكة الإدارة . وإلى هناك راح سيزر أيضاً .

سيزر رجل غني ، يحصل مرتين في الشهر على طرود ، يرشي كل من يلزم ، ليعمل في الإدارة كمساعد للمحصص .

أمّا بقية أفراد المجموعة ١٠٤ فيولّون جانباً متراكضين .

بزغت الشمس حمراء سديمية ، فوق المعسكر الخاوي ، حيث ألواح البيوت المسبقة الصنع مغمورة بالثلج ، وحيث أساسات البناء التي بُدئ العمل بها وتركت ، وحيث ذراع الحفارة المكسورة ملقى جانباً ، وحيث الجرافة ، وقرّاضة الحديد ، وخنادق الأساسات المحفورة ، والأخاديد ، والحفرات ، ومحترفات صيانة الآلات المنقولة إلى تحت الأسقف ، وحيث ، هناك ، على التّلة تقف المداميك الأولى في الطابق الثاني من مبنى المحطة الحرارية .

اختفى الجميع ، وحدهم جنود الحراسة يقفون في محارسهم ، في نقاط الحراسة الست . أجل ، وهناك حركة قرب برّاكة الإدارة أيضاً

هذه هي لحظتنا بالذات! يقولون إن كبير المشرفين على الأعمال هدد بإعطاء أوامره لجميع المجموعات منذ المساء ، ولكن الأمور لم تجر كما كان يريد ، فمنذ المساء وحتى الصباح يسير كل شيء عندهم عكس ما يريدون .

فاللحظة ، إذن ، لنا! طالما تبحث الإدارة عن حلول ، ابحث أنت عن مكان دافئ ، واجلس ، وتمطّ . وليت ذلك يكون قرب النار ، لنعيد لف لفافات أقدامنا ، وندفئها قليلاً ، إذن ، لظل القدمان دافئين طوال اليوم . وحتى من دون نار ، فلا بأس بالراحة أيضاً .

دخلت المجموعة ١٠٤ إلى الصالة الكبرى ، إلى ورشة إصلاح الآليات ، حيث زججت النوافذ منذ الخريف ، أما المجموعة ٣٨ فراحت تصب بلاطات أسمنتية ، بعضها في قوالب على الأرض ، وأخرى منتصبة في قوالب مهيكلة بقضبان حديد تبرز منها نهاياتها .

أرض الصالة ترابية ، ولن تشعر هنا بالدفء ، مع أنهم يدفئون هذه الصالة ولا يبخلون بالفحم ، لا لكي يدفئوا المعتقلين ، طبعاً ، بل لكي ينجبل الإسمنت ، ويتماسك بشكل أفضل . حتى ميزان الحرارة معلّق هنا . وحتى في أيام الأحد ، حين لا يسوقون المعتقلين إلى العمل لسبب ما ، يقومون بتدفئة هذه الصالة .

طبعاً ، المجموعة الثامنة والثلاثون لا تترك مجالاً لأحد للاقتراب من الموقد ، فلقد جلست تجفف لفافات أقدامها ، ليكن ، فلا بأس علينا ، نحن هنا في الزاوية أيضاً .

جلس شوخوف على القالب الخشبي ، في سرواله القطني ، وأسند ظهره إلى الجدار . عندما رفع ظهره انشدت سترته ، وانشد معطفه الجلدي ،

وانشد شيء آخر على صدره ، من جهة اليسار ، عند القلب . أحس بشيء ما صلب يضغط هناك . هذ الصلب الضاغط ، كان زاوية قطعة الخبز ، التي خبأها في جيبه الداخلي . ذلك النصف من حصة الخبز الصباحية ، التي جاء بها معه ليتغدّاها هنا . هو ، دائماً يأخذ الكمية نفسها من الخبز ، ولا يمسها قبل الغداء . هو عادة ، يأكل النصف الآخر مع الفطور ، إنما اليوم على غير عادته لم يأكله .

فهم شوخوف أنه في الحقيقة لم يدخر شيئاً : فالرغبة في أن يأكل هذه القطعة من الخبز ، الآن ، هنا ، في الدفء راحت تمتص أحشاءَه من الداخل . بقي حتى موعد الغداء خمس ساعات ، ما أطوال هذه الساعات الخمس . ما كان يوجعه في ظهره هبط الآن إلى قدميه . فما أضعف قدميه الآن ، لكم تمنى لو يتاح له وضعهما قرب الموقد . وضع شوخوف قفازه على ركبتيه . فك الخرقة عن وجهه المتجلد ، وسحبها عن عنقه ، وطواها طيات عدّة ، ثم خبأها في جيبه . عندئذ أخرج قطعة الخبز الملفوف في خرقة بيضاء ، وصار ، وهو ممسك بها في عبه ، كي لا تسقط منها نتفة واحدة خارج الخرقة ، يقرض نتفاً صغيرة ويمضغها . جاء بالخبر تحت سترتين ، دفّأه جسدُه ، ولذلك لم يكن متجمداً ، البتة .

في المعتقلات ، يتذكر شوخوف بين الحين والآخر ، الطعام الذي يأكلونه في القرية : بطاطا ملء المقلاة ؛ عصيدة ملء الطنجرة ، أمّا قبل ذلك ، أي قبل الكولخوزات ، فكانوا يأكلون من اللحم قطعاً كبيرة . أما الحليب ، فيشربون منه حتى التخمة .

فهم شوخوف ، في المعتقل ، أن ذلك لم يكن ضرورياً ، وأن نوعاً واحداً من الطعام يجب أن يشغل المرء ، كما هو الآن يمضغ فتات الخبز ،

ويلوكها بلسانه ، ويمصها ببطانة خدية... ويا له من عَطِرٍ شهي هذا الخبز الأسود الرطب . ما الذي يأكله شوخوف طوال هذه السنوات الثمان ، التسع ؟ لا شيء . ومع هذا يعمل ؟ أوهوو! كم هو يكد .

هكذا جلس شوخوف مشغولاً بمنتي غرام الخبز ، وفي جواره كانت كل مجموعته الـ ١٠٤ تستريح . هنا جلس الاستونيان كأخوين حميمين ، جلسا على بلاطة اسمنتية واطئة ، ودخّنا معاً ، بالتبادل نصف سيجارة من مشرب واحد . كان كل من الاستونيّين أبيض ، طويلاً ، نحيلاً ، وكانا بأنفين طويلين ، وعينين واسعتين . تمسّك الواحد منهما بالآخر بشدة ، كما لو أن الهواء الأزرق لا يكفيه من دون رفيقه . وعريف المجموعة لم يفصلهما عن بعض أبداً . أكلا ، معاً ، مناصفة ، وناما على سرير واحد في الأعلى ، معاً . وعندما يقفان في الطابور ، أو في الصف ، أو عندما يلجأان إلى النوم... يتحدثان ، دائماً ، فيما بينهما ، بصوت منخفض . لم يكونا أخوين على الإطلاق ، بل تعارفا في المعتقل ، هنا ، في المجموعة ١٠٤ .

قال أحدهما عن نفسه إنه كان سمّاكا من الساحل ، أمّا الآخر ، فعندما أسست السوفيتات ، كان ما يزال طفلاً صغيراً ، نقله أهله معهم إلى السويد ، وعندما كبر فكر بالعودة إلى الوطن لتحصيل تعليمه ، وفي الوطن اعتقلوه حال وصوله .

يقولون : المشكلة ليست في انتماء الناس القومي ، فمهما تكن قومية الأشخاص يوجد بينهم أناس جيدون وآخرون سيئون ، ولكن شوخوف كان قد رأى كثيراً من الاستونيين ، ولم ير بينهم واحداً سيئاً .

جلس الجميع ، بعضهم على البلاطات الإسمنتية ، وآخرون على القوالب الخشبية ، والبعض الثالث ، على الأرض مباشرة ، صامتين ، غارقين في

همومهم ، فاللسان لا يطاوع صاحبه ليقول شيئاً منذ الصباح .

كان الجقل فيتيوكوف يجمع أعقاب السجائر من كل مكان ، وهو يفتش عنها حتى في المبصقة ، ويأخذها . ها هو الآن يفلشها على ركبيته ، ويجمع فتات التبغ ، الذي لم يحترق فيها ، على ورقة واحدة .

ترك فيتيوكوف ، في الخارج ، في الحرية ، ثلاثة أطفال وزوجة . لكن ، ما أن اعتقلوه حتى تخلى أبناؤه عنه ، وتزوجت زوجته من رجل آخر ، فبقي وحيداً ليس لديه من يعينه في شيء .

اقترب بوينوفسكي من فيتيوكوف ، وانحنى فوقه ، محدقاً ، وأخيراً صاح قائلاً :

ـ ما بك ، تجمع ما هب ودب من الوباء ؟ سيأكل السفلس شفتيك! ارمها ، أحسن لك .

لقد تعود هذا المقدم البحري على إعطاء الأوامر ، لذلك فهو يتحدث مع جميع الناس كما لو أنه يأمرهم . لكن فيتيوكوف لا علاقة له ببوينوفسكي ، ولا يأتمر بأمره ، وهذا المقدم ، أيضاً ، لا يحصل على طرود من أحد .

نظر فيتيوكوف قائلاً بفم ساخر ، نصف فاغر :

ـ انتظر أيها المقدم ، سنراك بعد أن تمضي ثماني سنوات هنا ، تقوم بجمعها مثلي .

هذا صحيح ، فهنا ، حتى الذين لديهم عزة نفس أكثر من المقدم ، اضطروا إلى ذلك بعد حين

ـ ماذا... ماذا ؟

تساءَل سينكا كليفشين الخفيف السمع ، فهو لم يسمع ، وظن أن الحديث يدور حول ما حصل لبوينوفسكي عند الخروج إلى العمل ، وكيف خاب أمله :

ـ كان يجب ألا يأمل! ـ هزَّ رأسه قليلاً ـ وما كان لكل ذلك أن يحصل .

سينكا كليفشين رجل هادئ ، تكالبت عليه المصائب . كان قد ثقب غشاء الطبل في إحدى أذنيه في عام ٤١ . بعد ذلك وقع في الأسر . حاول الهرب من أسره ثلاث مرّات ، وفي كل مرّة كانوا يمسكون به ، وأخيراً حشروه في بوخينڤالد* وهناك نجا من الموت بأعجوبة ، وها هو الآن يقضي حكمه بهدوء .

إذا أملت بالكثير ، تموت هنا . هذا صحيح ، توجّع! ولكن انحنِ ، فإذا ما عاندت ستنكسر .

طمر اليكسي وجهه في راحة يده ، وصمت . إنه يمارس صلواته .

حلب شوخوف قطعة الخبز عن آخرها ، إلا شيئاً واحداً منها ، تلك القشرة المقوسة من الأعلى ، لم يشأ أن يأكلها الآن ، فتركها للغداء ، فأية ملعقة لن تستطيع تنظيف قعر القصعة من العصيدة ، كما تفعل قطعة الخبز . أعاد شوخوف لف قشرة الخبز بالخرقة البيضاء ، ليخبئها حتى الغداء ، ثم حشر الخرقة في جيبه الداخلي ، تحت سترته ، وزررها في وجه البرد ، وبذلك بات مستعداً ، فليسوقوهم إلى العمل إن شاؤوا الآن .

نهضت المجموعة ٣٨ من أماكنها ، وتوزّعت : البعض إلى الجبّالة ، وآخرون لإحضار الماء ، وغيرهم لإعداد قضبان الحديد . ولكن ، لا تيورين ذهب مع مجموعته ، ولا معاونه باڤلو .

---

* بوخينڤالد : معسكر اعتقال ألماني (١٩٣٧ ـ ١٩٤٥) يقع قريباً من ڤيمر . أعدم فيه ٥٦ ألف إنسان .

مع أن المجموعة ١٠٤ لم تسترح ، على الأرجح ، أكثر من عشرين دقيقة ، فإن يوم العمل الشتوي ، المختصر ، الذي يمتد حتى السادسة مساءً فقط ، جعل هذه الدقائق العشرين مصدراً لسعادة عظيمة للمعتقلين ، فكما لو أن ما بقي من يوم العمل قليل .

ـ إيه! من زمان لم تهب عواصف ثلجية! ـ تنهد كيلديفس ، اللاتفي ، الأحمر الوجه ، البدين ـ ولا واحدة طوال الشتاء! أي شتاء هذا ؟!

ـ أجل... عواصف ثلجية... عواصف...

تنهّد كل من في المجموعة . عندما تهب العواصف الثلجية هنا ، فإنهم ليس فقط لا يخرجون المعتقلين إلى العمل ، بل ويخشون حتى إخراجهم من البرّاكات : فحتى من البرّاكة إلى المطعم إذا أنت لم تمد حبلاً تضيع ، يتجمد دم المعتقل في الثلج ، وتأكله الكلاب . وإذا ما هرب واحد ما ؟! وقد حصلت مثل هذه الحوادث...

ثلج العاصفة ناعم ، ناعم ، ولكنه يتكدس في تلال ، كما لو أن أحداً ما يكنسه ويكبسه . ويصير بإمكان المعتقلين أن يهربوا عبر تلال الثلج هذه ، من فوق الأسلاك الشائكة . ولكنهم ، على أية حال ، لا يستطيعون الهرب بعيداً .

لا نفع يرتجى من العاصفة الثلجية : في العاصفة يحبسون المعتقلين في البرّاكات ويقفلون عليهم الأبواب ، والفحم لا يكفي ، والريح الباردة تنفخ دفء البرّاكة وتطرده بسرعة ، ولا يتمكنون من إيصال الطحين إلى معسكر الاعتقال : وبالتالي لن يكون هناك خبز ، وما الذي يستطيعون في المطبخ فعله ، فهم يعجزون عن عمل أي شيء... ومهما تهبّ العاصفة يوما ، اثنين ، ثلاثة ، أسبوع... فستحسب هذه الأيام من أيام العطل ، وسيسوقوننا إلى العمل آحادات بعددها .

ومع ذلك يحب المعتقلون العاصفة ، ويصلّون من أجلها . فما أن تشتد الريح ، حتى ينظرون جميعاً إلى السماء : هاتي نسيجاً ثلجياً هاتي ، اثلجي ، اثلجي...

الدوامات التي تسفع وجه الأرض لا تتحول أبداً إلى عواصف ثلجية حقيقية .

واحد من المجموعة الثامنة والثلاثين تسلسل إلى الموقد ، ليتدفأ قليلاً ، طردوه من هناك .

ها هو تيورين يدخل الصالة متجهّماً . فهم المعتقلون أن عليهم أن يقوموا بشيء ما في الحال .

ـ هـ كـ ذ ا ـ تلفت تيورين ـ الجميع هنا كل الـ ١٠٤ ؟

ومن دون أن يتحقق من وجودهم ، ومن دون أن يحصي عددهم ، لأن أحداً لن يستطيع الذهاب ، بعيداً عن تيورين ، إلى أي مكان ، بدأ يوزعهم على مهمات عمل في الحال :

أرسل الإستونيين ، ومعهم كليفيشين ، وغوبتشيك لإحضار جرن الإسمنت الكبير ، من مكان غير بعيد ، إلى مبنى المحطة الحرارية . بات واضحاً للجميع أنه سيكون عليهم العمل في المكان الذي أُسس وترك قيد الإنشاء منذ نهاية الخريف ، في مبنى المحطة الحرارية . أَرسل اثنين آخرين إلى مستودع المعدات . حيث حصل باڤلو على عدته اللازمة . وأمر أربعة بجرف الثلج بالقرب من المحطة ، وعند مدخل صالة الآليات ، وفي الصالة ذاتها ، وعن الطرقات ، وأمر اثنين آخرين بإيقاد الموقد هناك وإلقامه بالفحم ، وتقطيع الأخشاب ونشرها من أجل النار ، وأمر واحداً بنقل

الاسمنت في العربة ، لوحده ، إلى هناك ، واثنين بنقل الماء ، واثنين غيرهما بنقل الرمل ، وواحداً بتنظيف الرمل الذي تحت الثلج ، وتكسيره بالمخل .

بعد هذا التوزيع بقي شوخوف وكيلديفس ، أول حرفيين في المجموعة ، بلا مهمة عمل ، ناداهما العريف قائلاً :

ـ اسمعوا ، إذن ، يا شباب! (لم يكن تيورين أكبر منهم سناً ، ولكن كان من عادته أن يخاطب الآخرين بـ «يا شباب») بعد الغداء ستقومان ببناء حيطان الطابق الثاني ، هناك حيث كانت تعمل المجموعة السادسة في الخريف . أما الآن فعليكما بتدفئة صالة الآليات . هناك ثلاث نوافذ واسعة ، يجب قبل القيام بأي عمل سدها بأي شيء . سأرسل لكم آخرين لمساعدتكما ، ولكن فكّرا بماذا ستسدان هذه الشبابيك . فصالة الآليات ستكون مكاناً لجبل الاسمنت ، وللتدفؤ... إذا لم نتدفأ نتجمد كالكلاب ، أتفهمان ؟

ربما كان تيورين يريد أن يضيف شيئاً آخر ، لكن غوبتشيك كثير الشكوى الذي لم يتجاوز السادسة عشرة من عمره ، الزهري اللون ، كالخنوص ، أسرع إليه ، متظلماً ، فالمجموعة الأخرى لم تسمح لهم بأخذ جرن الاسمنت ، وهم هناك يتعاركون . انطلق تيورين مسرعاً إلى هناك .

مهما كان البدء بيوم العمل صعباً ، المهم فيه تجاوز نقطة الانطلاق ، فقط الخطوة الأولى .

نظر كل من شوخوف وكيلديفس إلى الآخر ، إنها ليست المرة الأولى التي يعملان فيها معاً ، وكل منهما يحترم في الآخر الحجّار ، والنجّار .

لم يكن من السهل أن تجد على هذا الثلج العاري ما تغلق به النوافذ ، لكن كيلديفس بادر قائلاً :

ـ الحمّام! هناك عند البيوت المسبقة الصنع ، أعرف مكاناً يوجد فيه لفافة كبيرة من ورق القطران ، أنا بنفسي خبأته... هيا بنا!

مع أن كيلديفس لاتفي ، إلا أنه يتقن اللغة الروسية كلغته الأم . كان هناك بالقرب من قريتهم في لاتفيا قرية يقطنها روس من المذهب القديم* ، تعلم منهم كيلديفس الروسية . وهو هنا في المعتقل منذ عامين فقط ، ومع ذلك بات يفهم كل شيء «أن عليك بنفسك!» .

كيلديفس ، اسمه يان ، وشوخوف يناديه بڤاينا .

اتفقا على الذهاب لاحضار ورق القطران . لكن شوخوف ذهب قبل ذلك مسرعاً إلى الجناح الذي يتم بناؤه لورشات الصيانة ، ليأخذ مسطرينه . المسطرين أداة بالغة الأهمية للمعماري ، إذا كانت خفيفة بيده . إنما هناك قاعدة تشمل جميع من في الموقع : تستلم عدتك صباحاً ، وتسلّمها في المساء ، وأية أداة ستقع بيدك ، مسألة حظ . لكن شوخوف خدع في إحدى المرّات موزع العدد ، وحصل على مسطرين إضافية جيدة من دون حساب . وها هو الآن يخبئها كل مساء ، ويخرجها حين يكون عليه أن يبني في الصباح . بالطبع ، لو أنهم ساقوا المجموعة ١٠٤ ، اليوم ، للعمل في «المدينة الاشتراكية» لبقي شوخوف بدون مسطرينه المفضلة . لكن ذلك لم يحصل ، وها هو المعماري يحشر أصابعه في الشق ، وها هي المسطرين بين يديه .

خرج شوخوف وكيلديفس من مبنى الورش واتجها إلى المسبقة الصنع .

---

* المذهب القديم : يعبّر عن التمسك بالدين بالشكل الذي اختاره الأمير ڤلاديمير (؟ ـ ١٠١٥م) أمير نوفغورود ثم كييف ، وأدخله إلى روسيا (٩٨٨ ـ ٩٨٩م) ، في مواجهة الاصلاح الديني (الانقسام الديني الكبير) الذي بدأه البطريرك الروسي نيكون (نيكيتا بن مينا) (١٦٠٥ ـ ١٦٨١) في عهد القيصر الكسي بن ميخائيل (١٦٢٩ ـ ١٦٧٦) .

تصاعد من أنفاسهما بخار كثيف . كانت الشمس قد ارتفعت في السماء ، ولكنها ما تزال بلا أشعة ، كما لو أنها في ضباب ، وكان يقطعها من الجانبين خطّان .

ـ أليسا عمودين ؟ سأل شوخوف كيلديفس .

ـ والاعمدة ، أيضاً ، لا تعيقنا ـ لوّح كيلديفس بيده وضحك ـ ولكن ماذا لو نصبوا بين العمود والآخر أسلاكاً شائكة! هذا ما يجب أن تفكر فيه .

لا يتحدث كيلديفس من دون مزاح . ولهذا السبب بالذات كان كل من في المجموعة يكنّ له الود . أمّا اللاتفيون ، في كافة أرجاء المعتقل ، فيحترمونه جداً! والحقيقة ، إن كيلديفس يتغذى جيداً . فهو يحصل على طردين من البيت في الشهر ، ولهذا فهو يبدو مورّد الخدين ، كما لو أنه لا يعيش في المعتقل... فكيف له ألا يمزح .

معسكر الأشغال الشاقة كبير ، وعليك أن تقطع مسافة طويلة لتصل إلى ذلك الطرف! في الطريق التقى كيلديفس وشوخوف معتقلين من الـ ٨٢ ، كانوا قد أجبروهم على حفر الجور من جديد ، الجور المطلوبة ليست كبيرة ، خمسين بخمسين وبعمق خمسين سنتيمتراً ، أيضاً ، ولكن الأرض هنا صلبة كالحجر ، حتى في الصيف ، فكيف بها الآن وقد أمسك بها الجليد! جرّب أن تقتطع منها نتفة ، إذن! يحاولون حفرها بالمعول... لا شيء إلا الشرارات تتطاير من تحته ، يتزحلق المعول ، ولا تخرج حبة تراب من الأرض . يقف المعتقلون في العراء كل فوق حفرته ، لا مكان يلتجئون إليه من البرد ، ولا يسمح لهم ، أصلاً ، بمغادرة أماكنهم ، فليس أمامهم إلا العودة إلى معاولهم . المعاول تدفئهم على أية حال .

رأى شوخوف بينهم أحد معارفه من مدينة فياتكا ، فنصحه :

ـ لو أنكم تشعلون النار فوق كل حفرة ، لكانت تذوب الأرض المتجلدة .

ـ لا يسمحون لنا ـ تنهدَ ابن فياتكا ـ ولا يعطوننا حطباً .

ـ ابحثوا عنه بأنفسكم .

أما كيلديفس فبصق على الأرض فقط .

ـ قل لي ، يا ڤانيا ، لو أن الإدارة كانت ذكية ، فهل كانت لترسل الناس في مثل هذا الجليد لحفر الجور بالمعول ؟

وجه كيلديفس عدة شتائم وأطبق فمه ، فلا مجال للحديث في مثل هذا الزمهرير .

تابعا سيرهما أبعد فأبعد ، حتى وصلا إلى ذلك المكان ، حيث رقدت ألواح البيوت المسبقة الصنع تحت الثلج .

مع أن شوخوف يحب العمل مع كيلديفس ، إلا أن شيئاً فيه لا يعجبه...

كيلديفس لا يدخن ، ولن تعثر في طروده على تبغ .

كيلديفس هذا لمّاح ، بالفعل : رفعا معاً اللوح الأول ، فالثاني ، كان يرقد تحتهما ورق القطران ، ملفوفاً في لفافة . أخرجاه من ملجئه ، والآن ، بات عليهما أن ينقلاه ، فكيف يفعلان ؟ سيراهم الخفراء من محارسهم . إنما هذا ليس مشكلة ، فالمهم بالنسبة للحراس ألا يهرب المعتقل ، عدا عن ذلك فلتقطّع كل الألواح إلى شقف إن شئت . وإذا صادفهما مراقب العمل في الطريق! أيضاً ، لا بأس ، فهو نفسه يبحث عما يمكن أن يفيد منه . وعرفاء المجموعات ، أيضاً ليسوا مشكلة . المسؤول عن هذا الورق هو مشرف الأعمال الحر ، ورئيس فريق العمل المعتقل ، وشكورو باتينكو النحيل

الطويل ، ولا أحد آخر . هذا الشكورو باتينكو لا أحد ، ليس أكثر من معتقل ، لكن روحه روح لعينة . يكلفونه بمهمة خاصّة ، هي فقط حراسة البيوت المسبقة الصنع ، فيمنع المعتقلين من سرقتها . وهذا الشكورو باتينكو هو من سيراهما ، على الأرجح ، في هذه الأرض المكشوفة .

ـ هكذا ، إذن ، ، يا ثانيا ، لن نستطيع نقله بالعرض ـ فطن شوخوف ـ دعنا نحمله بشكل عمودي ، نعانقه معاً ، ونسير بهدوء ونحن نغطيه بجسدينا . لن يدركوا عن بُعد ما الذي يحدث . .

فكرة جيدة ، هذه التي خطرت ببال شوخوف . ضغطا لفافة الورق المقطرن بينهما كأنها شخص ثالث ، ومشيا . ومهما نظرت من بعد ، فلن ترى إلا شخصين يسيران ، ملتحمين ، معاً .

ـ ولكن مشرف الأعمال سيراه بعد حين على الشبابيك ، ولا بد أن يكتشف السر . قال شوخوف .

ـ ونحن ما لنا ؟ ـ تعجّب كيلديفس ـ جئنا إلى مبنى المحطة الحرارية ، وهناك كانت النوافذ مسدودة به ، فهل يعقل أن ننزعه عنها ؟!

فعلاً ، هذا صحيح .

لكن أصابعهما تجمدت في قفازاتهما الرقيقة ، فما عادا يحسان بها أبداً . أما فردة جزمة شوخوف اليسرى فما زالت تحتفظ بالدفء . الجزمة ، هذا هو المهم ، أما اليدان ، فلا بأس ، يسترخيان مع الشغل .

سارا عبر السهب الثلجي ، ومشيا على خط زلاجات من مخزن المعدات إلى مبنى المحطة . طريق الزلاجات يقول : لا بد أنهم نقلوا الإسمنت إلى هنا .

مبنى المحطة يقع على تلّة ، وينتهي وراءه المعسكر . يبدو أن أحداً لم يذهب إلى مبنى المحطة منذ زمن طويل ، فكل الطرق المؤدية إليها مغمورة بالثلج . أثر الزلاجة واضح ، والأخدود الذي خلفته طري ، والآثار عميقة... لقد مرّوا من هنا ، إذن .

في جوار المحطة يقحفون الثلج بقحافات من خشب ، ويقحفونه أيضاً عن طريق السيارات . سيكون جيداً لو أن الرافعة تعمل في المحطة ، ولكن محركها احترق من زمان ، ومنذ ذلك الحين ، لم يصلحوها ، على الأرجح . هذا يعني ، سيكون عليهم أن يعتلوا مجبول الاسمنت والطوب على أكتافهم إلى الطابق الثاني .

وقف مبنى المحطة شهرين كهيكل عظمي ، رمادي ، مغمور في الثلج ، والآن ، ها هي ، الـ ١٠٤ تأتي إليه ، فبماذا تتشبث أرواح من فيها ؟ بطونهم مشدودة بالأحزمة ، والجليد يصر ، ولا مدفأة ، ولا شرارة نار... ومع هذا جاءت الـ ١٠٤ لتعيد الحياة إلى هنا ، من جديد .

عند مدخل صالة الآليات ، بالضبط ، انفرط في أيديهم جرن المجبول الاسمنتي المصنوع من ألواح الخشب . كان متداعياً ، ولم يكن شوخوف يثق بأنهم سيوصلونه بما فيه .

شتمهم العريف ، لضرورات النظام لا أكثر ، فهو يرى أن أحداً منهم لم يكن مذنباً .

وإذا بشوخوف ، وكيلديفس يصلان مع الورق المقطرن . فرح العريف ، وهنا بدأت الترتيبات الجديدة تأخذ مجراها : يقوم شوخوف بضبط بواري الموقد كي تشتعل النار فيه بصورة أفضل ، يقوم كيلديفس بإصلاح الجرن الخشبي ، يساعده في ذلك الاستونيان ، أما سينكا كليفيشين فإلى

البلطة لتقطيع شطفات طويلة من الخشب ، يثبتون بها أطراف الورق على النوافذ : كان الورق أقل عرضاً من النافذة بمرتين ، فمن أين يحصلون على عارضة خشبية لتتوسط النافذة ؟ مشرف الأعمال لا يعطي خشباً لأحد من أجل التدفئة .

التفت العريف ، ومعه التفت الجميع . هناك مخرج واحد : فك خشبتين من الجسر الخشبي الممدود إلى الطابق الثاني ، وبعد ذلك لا تتثاءب وأنت تسير عليه ، وإلا فإنك تسقط! إن لم يكن ذلك فما العمل ؟

يخطر تساؤل بالبال : ما الذي يجعل المعتقلين يعملون في معسكر الأشغال الشاقة بهذه الجدية عشر سنوات ؟ لا أريد ، وانتهينا... مط نهارك كيفما تستطيع فالليل ملكك .

لا ، هذا أمر غير ممكن . فمجموعة العمل هنا لم تشكل من أجل ذلك . المجموعة هنا ليست كالمجموعة في الحرية حيث يحصل إيفان إيفانوفيتش على أجره مستقلاً ، ويحصل بيوتر بتروفيتش على أجره مستقلاً... المجموعة في المعتقل شكلّت ، بحيث لا تضطر الإدارة للضغط على المعتقلين ليكدّوا ، بل هم بأنفسهم يقومون بالضغط على بعضهم بعضاً . تتم الأمور هنا على هذه الشاكلة : إما أن الجميع يحصلون على حصة طعام ، أو يموت الجميع . أنت الذي لا تشتغل أيها الحقير ، وأنا الذي سيجوع بفعلتك! لا ، هيا اعمل ، أيها السافل كما نعمل! ويضغط أمر آخر هنا أيضاً ، هو الضرورة ، فكما هو الحال الآن لا مجال للاسترخاء . شئت أم أبيت نط هنا . ودر هناك ، فإن أنت لم تجهز ملجأً دافئاً خلال ساعتين ، فستموت من البرد .

لقد جاء باڤلو ببعض البواري ، وبالعدة ، وقام بتوزيعها . في الواقع ،

ليست لديهم عدة خاصة بحدادة البيتون ، فكل الذي لديهم مطرقة ، وبلطة ، فلتتدبر أمرك .

يخبط شوخوف قفازاً بالآخر ، يرّكب البواري بعضها مع البعض الآخر ، ويحشرها جيداً ، ويعود ليخبط ثانية ، ويعود ليركب البواري . كان شوخوف قد خبأ مسطرينه في مكان غير بعيد من هنا ، ورغم أن الذين حوله من مجموعته ذاتها إلا أنهم يمكن أن يبدلوها بأخرى ، وحتى كيلديفس أيضاً .

كما لو أن كل الأفكار انغسلت من رأس شوخوف ، فهو الآن لا يتذكر شيئاً ، ولا يهتم بشيء . هو ، فقط يفكر الآن كيف سيضع كوعاً للبواري ، وكيف سيخرجها من النافذة ، بحيث لا تنتشر الدخان في الداخل . قام بإرسال غوبتشيك ليبحث في مكان ما عن شريط يربط به البواري عند النافذة قبل خروجها .

في زاوية الصالة يوجد موقد مبني من الآجر ، سقفه من الأعلى صفيحة حديد تحمّيها النار ، يدفأ الرمل عليه ، ويجفف . كانوا قد أحموا هذا الموقد ، وكان المقدم وفيتيوكوف ينقلان الرمل إليه بالنقاّلة . حمل النقّالة لا يحتاج إلى ذكاء ، لذلك أوكل العريف هذا العمل إلى المدراء السابقين . كان فيتيوكوف ، سابقاً ، مسؤولاً كبيراً في واحدة من الإدارات ، وكان يركب سيارة . هذا الفيتيوكوف ، في الأيام الأولى من وجوده هنا ، رفع ذيله حتى على المقدم ، وخاطبه بفظاظة ، ولكن المقدم أجابه بلكمة على أسنانه ، ومنذئذ بدأت صحبتهما .

اندفع المعتقلون إلى الموقد الذي يُسخّن عليه الرمل ، لكن العريف أوقفهم محذراً : ـ هيّا ، أنا مستعد لتدفئة جبهة من يريد منكم! تجهزوا قبل كل شيء .

يكفي أن ترفع العصا في وجه الكلب المضروب . البرد قارس ، لكن العريف أقرس . تفرّق الرجال إلى أعمالهم من جديد . سمع العريف ، في هذه الأثناء ، شوخوف يقول لباقل :

ـ ابق أنت هنا ، تمسك بمكانك ، أما أنا ، فذاهب لانجاز المعدّل المطلوب .

أهمية معدلات الانجاز ، أكثر من أهمية الانجاز ذاته . فالعريف الذكي يبذل جهده ليس في نوعية العمل ، بل في المعدل المطلوب . اللقمة مرتبطة بهذ المعدل .

أرني ما الذي أنجزت ، أثبت لي بالأرقام ، تصرّف بحيث تحصل من القليل على الكثير...

..هنا مكان العقل الكبير للعريف ، وهنا أهمية العلاقة بموزعي المعدلات ، فعليك أن تعتني بهم . أما التفكير بأهمية هذه المعدلات ، ولمن تعود ، فشيء آخر . تعود لمعسكر الاعتقال . المعسكر يكسب عدة آلاف من تشييد هذا البناء ، أجل ، ويمنح ضباطه المكافآت ، لڤولكوڤوي مكافأة على كرباجه ، ولك مائتا غرام إضافية من الخبز على العشاء . مائتا غرام تعدل الحياة . على هذه المائتي غرام بنيت قناة بيلومور* .

جاؤوا بدلوين من الماء ، لكن الماء استحال إلى جليد في الطريق . فكّر باڤلو ، ولماذا العذاب بنقلها من هناك ، فالأسرع لنا تذويب الثلج المتراكم على بعد خطوتين منا . وُضع الدلوان على الموقد .

* قناة بيلومور : قناة تمتد بطول ٢٢٧ كم وبعمق ٥ متر تصل البحر الأبيض في المحيط المتجمد الشمالي وبحيرة أونيجسكويه . افتتحت عام ١٩٣٣ . شقت بجهود المعتقلين (العبيد) .

أحضر غوبتشيك كابل ألمنيوم جديد ، من تلك التي يستخدمونها في شبكات الكهرباء ، وقال :

- إيڤان دينيسيتش! ألمنيوم جديد من أجل الملاعق . أتعلمني كيف أصب ملعقة .

كان إيڤان دينيسيتش يحب هذ الغوبتشيك الصغير الشاطر (كان ابنه قد مات وهو صغير ، وبقيت لديه ابنتان صبيتان في البيت) . اعتقلوا غوبتشيك لأنه كان يحضر الحليب للبنديروڤيين إلى الغابة ، حكموه كما يحكموا الكبار ، وهو ما يزال عجلاً صغيراً . لطيفاً يعامل جميع الرجال ببشاشة ، ومع ذلك فهو خبير مكّار ، لا يقاسم أحداً ما يرسله أهله له من الطعام ، ويأكله أحياناً في أنصاف الليالي . وبالفعل ، فمن أين لك أن تطعم الجميع .

اقتطع جزءاً من شريط الألمنيوم ، خبأه في الزاوية من أجل الملعقة .

صنع شوخوف ما يشبه السلّم من خشبتين ، ورفع غوبتشيك عليه ، ليقوم بتثبيت البوري . غوبيتشيك خفيف الوزن كسنجاب . ارتقى خشبات السلم ، دق مسماراً ، ربط الشريط ، ولف به البوري .

لم يتكاسل شوخوف بوضع كوع إضافي عند مخرج البوري من الجدار . اليوم ليس هناك ريح ، أما غداً ، فستهب ، والكوع ضروري كي لا تكبس الريح الدخان . هم يصنعون هذه المدفأة من أجل أنفسهم ، يجب فهم ذلك .

أما سينكا كليفشين فكان قد انتهى من دَقّ عارضتين خشبيتين ، وأجبر غوبتشيك الهمّام على تثبيتهما جيداً بالمسامير . ها هو هذا الشيطان الصغير يتسلق ويعلو صياحه من هناك .

ارتفعت الشمس أكثر طاردة العتمة ، ولم تعد تقطعها أية أعمدة . التمع الضوء الأحمر في الداخل متوهجاً . هنا ، أيضاً ، ارتفعت النار ، لقد أوقدوا المدفأة بالأخشاب التي سرقوها ، ما من أحد أسعد منهم في هذه اللحظات .

ـ يا لشمس كانون الثاني! تدفئ خصر البقرة! قال شوخوف .

انتهى كيلديفس من دق خشبات جرن المجبول الاسمنتي ، ضرب بالبلطة عدة ضربات ختامية ، وصاح :

ـ أتسمعني يا باڤلو ، سآخذ على هذا الشغل من العريف مائة روبل ، لن أقبل أقلّ من ذلك!

ضحك باڤلو

ـ تحصل على مائة غرام .

ـ يضيفها القاضي! صاح غوبتشيك من الأعلى .

ـ لا تلمسوه ، توقفوا! صاح شوخوف عندما رآهم يقصون الورق باعوجاج . وأوضح لهم كيف يجب أن يقوموا بذلك .

تكوّم الرجال حول المدفأة ، فصرفهم باڤلو عنها . أعطى ليكيلديفس رجلاً يعاونه ، وأمرهما بصنع أجران لنقل الأسمنت ، وأرسل أيضاً اثنين اضافيين لنقل الرمل . أرسل آخرين إلى الأعلى ، ليكشطوا الثلج عن السقالات ، وعن طوب الجدران ، وينظفوها جيداً . أرسل كذلك واحداً لينقل الرمل المُدفأ ، في الداخل ، من الموقد إلى جرن الاسمنت . تفرّغ باڤلو .

شخر المحرك في الخارج . لقد بدؤوا ينقلون الطوب ، الشاحنة تبحث عن مكان تفرغ حمولتها فيه . ركض باڤلو ملوّحاً بيديه ، مؤشراً صوب المكان المطلوب .

غرزوا صفيحة الورق الأولى ، ثم الثانية . وأي ملجأ من الورق ؟ فالورق يبقى ورقاً . ولكنه مع ذلك يسد منافذ الجدران . اشتدت العتمة في الداخل فبدت نار المدفأة أكثر توهجاً من قبل .

أحضر اليوشكا الفحم . صار بعضهم يصيح : ألقمها ، وآخرون : لا ، لا تضع منه شيئاً ، فالخشب على الأقل يدفئنا! احتار اليوشكا ، صوت من يسمع .

تسلل فيتيوكوف إلى المدفأة وها هو الآن يحشر جزمته اللبادية في قلب النار أمسك المقدم بتلابيبه ، وبدأ يهزه :

ـ هيا ، قم إلى نقل الرمل ، أيها الناحل!

ينظر المقدم إلى العمل في المعتقل نظرته إلى العمل في البحر : قالوا اعمل ، يعني اعمل! ومع أنه هزل في الشهر الأخير بشدة ، فهو ما يزال يمسك بالعنان .

أستغرق ذلك وقتاً طويلاً ، أم قصيراً... المهم أن النوافذ الثلاث مغطاة الآن بالورق المقطرن . بقيت الأبواب منفذاً وحيداً للضوء ، ومصدراً للبرد أيضاً . أمر باڤلو بسد الجزء العلوي من الأبواب ، وترك فتحات من الأسفل ، فيها بحيث يستطيع المرء المرور حين ينحني . دقوا ألوح الخشب كما أمر .

كانوا في هذه الأثناء قد أفرغوا كومات ثلاث من الطوب ، والمطلوب الآن رفعها ، ولكن ، كيف يقومون بذلك من دون رافعة ؟

ـ أيها المعماريان ، هيا بنا نلق نظرة! دعاهما باڤلو .

هذا عمل معتبر . صعد شوخوف وكيلديفس مع باڤلو إلى الأعلى .

كان الجسر الخشبي الممدود ضيقاً ، بالأساس ، فكيف بعد أن شطف

منه سينكا شطفة للنافذة . انحشر بالجدار ، وإلا سقطت إلى الأسفل . الأسوأ من ذلك أن الثلج تجلدّ على العوارض الخشبية وبات أملس ، زلقاً فلا مكان تستند إليه القدم . فالانزلاق يمكن في أية لحظة كما ينزلق مجبول الاسمنت .

نظروا إلى المكان الذي سيكون عليهم التعمير فيه . كانوا هناك يزيلون الثلج بالمعاول عن الجدران . انظر هنا ، سيكون من الضروري تكسير الجليد عن المدماك الأخير من الطوب ، وكنسه جيداً بالمكنسة .

فتشوا عن مكان يرفعون منه الطوب . نظروا إلى الأسفل قرروا : الأفضل من نقله عبر الجسر الخشبي . أن يقوم اثنان برفعه من الأسفل إلى السقالة الأولى ، ومن هناك يرفعه اثنان آخران إلى السقالة الأعلى ، وهكذا يوصلونه ، وهذا أسرع .

مع أن الريح ليست قوية في الأعلى ، إلا أنها تهب ، وستسفع الأجساد حين يبدأ العمل هناك . لكن ما أن تلتجئ وراء الجدار المصفوف ، حتى تشعر بالدفء ، هناك أدفأ بكثير .

رفع شوخوف رأسه باتجاه السماء ، ثم تأوه : السماء صافية ، والشمس تكاد تعتلي قبتها . عجيبة العجائب : كم من الوقت مضى! كم مرّة لاحظ شوخوف : لا تكاد تشعر كيف تمضي الأيام مسرعة في المعتقل : ورغم ذلك لا تقل معها مدة الاعتقال ، ولا تنتهي أبداً ، ولا تشعر باقتراب يوم الانعتاق مع مضيها إطلاقاً .

هبطوا إلى أسفل . هناك كان الجميع قد تحلّقوا حول المدفأة ما عدا المقدم ، وفيتيوكوف ، اللذان تابعا نقل الرمل .

استشاط باڤلو غضباً ، فأمر ثمانية بالذهاب حالاً لرفع الطوب ، واثنين لخلط الاسمنت الجاف بالرمل ، وآخر بالذهاب لاحضار الماء ، وواحد غيرهم لاحضار الفحم ، ثم وجه لكيلديفس تعليماته الخاصّة :

ـ ما بكم يا شباب ، ألم يئن أوان الخلاص من تجهيز الجرون!

ـ ربما ، أساعدهم ؟ قال شوخوف ، طالباً لنفسه عملاً .

ـ ساعدهم . هز باڤلو رأسه بالإيجاب .

احضروا دلو ثلج لإذابته من أجل جبل الاسمنت . سمعوا من واحد ما أن الساعة تقارب الثانية عشرة ظهراً .

ـ فعلاً ، ليست أقل من ١٢ ـ أكد شوخوف ذلك ـ فالشمس بدأت بالانحدار إلى الغرب .

ـ إذا بدأت تنحدر ـ انخرط المقدم في الحديث ـ هذا يعني الساعة الواحدة ، وليس الثانية عشرة .

ـ ولماذا تفكّر هكذا ؟ ـ سأله شوخوف ـ أجدادنا يقولون : الشمس أعلى ما تكون عند الظهيرة .

ـ هذا ما كان يعرفه الأجداد! ـ قطع المقدم الطريق عليه ـ وبعد ذلك عُدِّل الوقت وصارت الشمس تعلو قبة السماء في الواحدة ظهراً .

ـ وأي قانون يقول ذلك ؟

ـ قانون السلطة السوڤيتية!

خرج المقدم مع نقالات الاسمنت ، وحتى لو لم يخرج لما كان شوخوف سيستمر في النقاش . لم يبق إلا الشمس لتنصاع لأوامرهم .

ضربوا ، دقوا المزيد من المسامير ، جهزوا أربعة أجران أخرى لنقل الاسمنت .

لا بأس ، استريحوا قليلاً ، وتدفؤوا ـ قال باڤلو للمعماريين ـ أما أنتم ، يا سينكا ، فستعمرون ، أيضاً ، بعد الغداء ، اجلسوا الآن .

وجلسوا جلسة قانونية حول المدفأة . في كل الأحوال لن يتمكنوا من رص الطوب على الجدران قبل الغداء ، فجبل الاسمنت ليس بهذه السهولة . إنه يتجمد بسرعة .

تجمّر الفحم على مهل ، وها هو الآن يمنح وهجه بثبات . لكنك لا تشعر به إن لم تكن لصق المدفأة . ففي بقية أنحاء الصالة كان البرد ما يزال مخيّماً .

خلعوا قفازاتهم ، ومدّوا أربعتهم أيديهم إلى المدفأة .

ولكن حذار أن تقرب قدميك في الحذاء من النار ، هذا ما يجب إدراكه والانتباه إليه ، فإذا كنت تلبس حذاء من الجلد ، سيجف الجلد ويتشقق ، وإذا كنت تلبس جزمة من اللباد ستترطب ويخرج منها البخار ، ولن تشعر بالدفء أبداً ، وإذا قربتها من النار أكثر تحرقها . وسيكون عليك أن تبقى في جزمة مثقوبة حتى الربيع ، فلا أمل بالتبديل .

ـ وما هم شوخوف! ـ بدأ كيلديفس الحديث ـ شوخوف يا أخوان ، إحدى قدميه صارت في البيت .

ـ أجل ، تلك القدم الحافية ، أضاف واحد ما . ضحكوا . نزع شوخوف فردة جزمته اليسرى ، وصار يدفئ اللفافة .

ـ شوخوف ينهي مدة الحكم .

كيلديفس بالذات محكوم بخمس وعشرين . أما شوخوف فقد جاء إلى هنا مع موجة السعادة ، حين كانوا يحكمون الجميع بعشر سنوات . فبدءاً من عام تسعة واربعين صاروا يحكمون الجميع بخمس وعشرين ، دون تمييز . يمكن أن يعيش الانسان بشكل ما عشر سنوات ، دون أن ينفق ، ولكن جرب أن تعيش خمساً وعشرين ؟!

يريح شوخوف أن يشير الجميع بأصابعهم إليه : (أمّا هذا ، فإن خروجه قريب) . ولكنه ، في داخله ، لم يكن يثق بذلك . فأولئك الذين انهوا أحكامهم في فترة الحروب ، احتفظوا بهم حتى صدور تعليمات أخرى ، وهكذا بقوا حتى عام ستة وأربعين . فمن كان محكوماً ، كالغالبية آنذاك ، بثلاث سنوات ، أمضى في المعتقل خمس سنوات . هكذا هو القانون قلاب ، تنهي العشرة ، يقولون ، خُذ واحدة أخرى ، أو إلى المنفى .

ومع ذلك ، تستجمع همتك ، وتفكّر أحياناً : الحكم فعلاً ينتهي ، وبكرة الأيام تكّر...

... يا إلهي! أأخرج بقدميّ هاتين إلى الحرية ؟

لكن من غير اللائق لمعتقل قديم أن يتحدث عن ذلك بصوت مسموع .

قال شوخوف لكيلديفس :

ـ لا تعد سنواتك الخمس والعشرين . فلا أحد يعلم أن كنت ستقضيها في المعتقل ، أم لا . ما أستطيع قوله بثقة إنني أمضيت ثماني سنوات ، هذا هو الشيء المؤكد ، أمّا غيره ، فلا ،

وهكذا تعيش ، يمرّغون وجهك بالتراب ، ولا يدعون لديك وقتاً للتفكير : كيف اعتقلت ، وكيف ستخرج ؟

كُتب في إضبارة شوخوف انه أُعتقل على خيانته للوطن ، وأنه اعترف ، فعلاً ، بتعمده الوقوع في الأسر ، لكي يخون الوطن ، وأنه عاد من الأسر لتنفيذ المهمة التي كلفته بها الاستخبارات الألمانية . ولكن أية مهمة تلك! لا شوخوف استطاع أن يخترع لنفسه مهمة ، ولا المحقق استطاع ذلك ، ولذلك بقيت في إضبارته بلا شروح : مهمة وانتهينا .

تعرّض شوخوف في فرع مكافحة التجسس للكثير من التعذيب . هناك حسبها شوخوف ببساطة : إذا لم توقع على ما يتهمونك به فالتابوت جاهز ، أما إذا وقعت ، فيمكن أن تعيش بضع سنوات أخرى ، ولذلك وقّع شوخوف . أما الواقع فيقول بأنهم في شباط سنة إحدى وأربعين كانوا في المنطقة الشمالية الغربية المحاصرة ، ولم يكن لديهم ما يأكلون ، وحتى الطائرات لم تلق إليهم بلقمة يأكلونها ، وما كانت هناك طائرات أصلاً... وصل بهم الأمر درجة صاروا ينزعون معها حذوات الخيول ، وينقعونها في الماء ويأكلون ، ولم يكن لديهم ما يطلقونه باتجاه العدو . وهكذا صار الألمان يلاحقونهم ، ويلتقطونهم في الغابات... وهكذا ، وقع شوخوف في الأسر مع إحدى المجموعات في الغابة ، وبقي مأسوراً يومين ، وتمكّن بعدهما مع خمسة من رفاقه من الفرار ، وتمكنوا بأعجوبة من التخفي في الغابات ، والمستنقعات ، حتى وصلوا إلى جماعتهم . استقبلهم أحد الجنود السوفييت برشقة رصاص قتلت اثنين منهم في الحال ، ثم مات الثالث متأثراً بجراحه ، فوصل اثنان سالمين فقط . لو أنهما قالا ببساطة ، بأنهم تاهوا في الغابات ، لما أحاق بهم ضرر ، لكنهما قالا بصراحة ، بأنهما آتيان من الأسر الألماني . من الأسر ؟ ؟ يا أولاد الـ...! جواسيس فاشيون! إلى المعتقل . لو بقوا خمستهم على قيد الحياة ، ربما كانوا قارنوا بين إيفاداتهم ، ووثقوا بهم ، أمّا ، وهما اثنان فقط ، فلا مجال لتصديقهما ، فهذان الحقيران اتفقا معاً لكي تتطابق أقوالهما على حكاية الفرار تلك .

سمع سينكا كليفشين ، عبر طرشه ، أنهم يتحدثون عن الفرار من الأسر ، فحكى لهم بصوت مرتفع قصته .

ـ أنا ، هربت من الأسر ثلاث مرّات ، وفي كل مرّة كانوا يمسكون بيّ .

سينكا صبور ، يقضي معظم وقته صامتاً ، لا يسمع ما يتحدث الآخرون ، ولا يخوض في أحاديثهم ، ولذلك فهم لا يعرفون عنه إلا القليل ، لا أكثر من أنه كان في معسكر اعتقال بوخينڤالد الفاشي ، وكان هناك في عداد منظمة سريّة ، وكان يحضر أسلحة إلى المعسكر من أجل الانتفاضة ، ثم كيف علّقه الألمان من يديه المربوطتين وراء ظهره ، وضربوه بالعصي .

ـ أنت ، يا ڤانيا ، حبست ثماني سنوات ، لكن في أية معتقلات مضيتها ؟ ـ دخل كيلديفس على الخط ـ في المعتقلات العامّة ، وكان معكم هناك نساء! وكنتم لا تحملون أرقاماً هناك... جرب ، هنا ، في معسكر الأشغال الشاقة أن تعيش ثماني سنوات ، لم يعشها احد .

ـ مع نساء!... مع خشبات ، وليس مع نساء ، مع قرمات ، يعني .

تملّى شوخوف نار المدفأة ، وراح يتذكر سبع سنوات أمضاها في الشمال... تذكر كيف عمل هناك ثلاث سنوات في تقطيع الأشجار ، وكيف كان يدحرج القرم والجذوع... وها هي النار ، واللهب المتقلب ذاته ، لنار قاطعي الأشجار... لا نار النهار ، بل نار الليل . كان القانون هناك بسيطاً : المجموعة التي لا تنجز الخطة في النهار ، تمضي الليل في الغابة . يمضي نصف الليل قبل أن تصل إلى المعسكر ، ومع مجيء الصباح عليك أن تعود ثانية إلى هناك .

ـ لا ، لا يا أخوان... أعتقد هنا أكثر راحة ـ تمتم شوخوف ـ القانون هنا قانون أجُراء ، تنجز ، لا تنجز ، في كل الأحوال تعود إلى المعسكر ، وهنا توجد ضمانة ، أيضاً ، على الأقل بمائة غرام من الخبز أكثر مما هناك . هنا يمكن العيش بطريقة ما ، وليكن بأية طريقة... وهل تثقل عليكم هذه الأرقام إلى هذه الدرجة ؟ إنها لا تتدلى على أية حال .

ـ أكثر راحة! ـ همس فيتيوكوف ، وكان وقت الاستراحة قد اقترب ، فدنا الجميع من المدفأة ـ كيف أكثر راحة! يذبحون الناس في فرشاتهم .

ـ ليس الناس ، بل المخبرين! قال باڤلو ، رافعاً أصبعه ، مهدداً فيتيوكوف .

وبالفعل ، شيء ما جديد راح يجري في المعتقل ، فلقد ذُبح اثنان من المخبرين الشهيرين في سريريهما مباشرة ، ثم ذُبح بعدهما أحد المعتقلين الأبرياء ، يبدو أنهم أخطؤوا المكان . مخبر آخر فر بنفسه إلى إدارة المعتقل ، إلى الزنزانة ، فخبؤوه هناك في سجنهم الحجري... لم تكن تحصل مثل هذه الأحداث في المعتقلات العامة ، وهنا أيضاً لم تكن تحصل من قبل...

صدر ، فجأة ، زمور مولّد الطاقة . لم يزمّر مباشرة بكامل قوته ، بل حشرج في البداية ، كما لو أنه كان ينظف حنجرته .

انقلع نصف اليوم! استراحة الغداء .

آخ ، فوّتناها! كان يجب أن نصف في الطابور ، لنأخذ دوراً في المطعم من زمان .

في المعسكر إحدى عشرة مجموعة ، أما المطعم فلا يتسع لأكثر من اثنتين .

العريف لم يأت إلى هنا حتى الآن . أطرق باقلو ، مفكراً ، للحظات ، ثم قرر :

ـ شوخوف ، وغوبتشيك تأتيان معي ، وأنت يا كيلديفس... سأرسل في طلبكم غوبتشيك فيما بعد لتأتي بباقي المجموعة .

ما أن نهض هؤلاء ، حتى احتلت الأماكن التي اخلوها قرب المدفأة . لقد أحاطوا بتلك المدفأة ، وتدافعوا لعناقها كما لو كانت امرأة .

ـ يكفيكم نوماً! ـ صاح الرجال ـ هاتوا ندخن! وراحوا ينظرون إلى بعضهم البعض ـ من سيدخن . لكن أحداً منهم لم يشعل لفافة تبغ ، إمّا لأنه لا تبغ لديهم ، أو لأنهم يحرصون عليه ، ولا يريدون إخراجه الآن .

خرجا مع باقلو . راح غوبتشيك يقفز وراء شوخوف وباقلو كالأرنب .

ـ صار الجو أدفأ ـ خمَّن شوخوف ـ ثماني عشرة درجة تحت الصفر ، لا أكثر سيكون التعمير سهلاً علينا .

نظروا إلى الطوب . كان الرجال قد رفعوا الكثير منه إلى الجسر الخشبي ، ثم رفعوها أيضاً إلى السقالة في الطابق الثاني .

نظر شوخوف إلى الشمس ، مضيقاً عينيه ، متحققاً من قانون الوقت الذي أعلن عنه المقدم .

ثماني عشرة درجة! ولكن في الفلاة ، حيث المدى أمام الريح مفتوح ، يشتد البرد قرساً هناك . هذا يعني ، لا تنس نفسك ، فهو كانون الثاني يعبّر عن نفسه .

مطبخ المعسكر ، برّاكة صغيرة من أخشاب مصفوفة حول الموقد ، ومغطاة بصفيح صدئ يسد الفواصل بينها . هناك حاجز يقسم هذه البراكة في

وسطها إلى مطبخ ، وغرفة طعام . الأرض هنا ، في المطبخ وكذلك في غرفة الطعام غير مفروشة بأي شيء عدا التراب ، فمهما كبست الأقدام هذه الأرض ، بقيت على حالها ، بحفراتها ، ونتوءاتها . أما المطبخ ، فلا يعدو كونه موقداً مربع الشكل ، وضعت عليه حلة الطعام .

يعمل في هذا المطبخ شخصان : الطباخ والمراقب الصحي . ومنذ الصباح حين يخرجون من المعتقل باتجاه معسكر الأشغال ، يحصل الطباخ على الجريش من مطبخ المعتقل الكبير . لكل أخ ، على الأغلب ، حوالي خمسين غراماً ، أي للمجموعة كلها كيلو غرام واحد . أي للمعسكر كله ، أكثر بقليل من بود واحد .

الطباخ ، طبعاً ، لا يحمل بنفسه كيس الجريش ثلاث كيلو مترات إلى المعسكر ، بل يوكل بذلك إلى سخرة تخدمه . فما الذي يجعله يتعب ظهره إذا كان يستطيع ، بحصة إضافية يعطيها لخادمه على حساب الشغيلة ، أن يرتاح .

الطباخ أيضاً لا ينقل بنفسه لا الماء ، ولا الحطب ، ولا يقوم حتى بإيقاد النار... يقوم بذلك الشغيلة والناحلون مقابل وجبة مضاعفة من حصة الغير ، فلا أحد يأسف على ما لغيره .

التعليمات تقضي بأن يأكل المعتقل داخل المطعم فقط : والقصعات ، بالتالي يجب أن تنقل من المعسكر ، فلن تتركها هناك ، لأن العمال الأجراء يسرقونها في الليل . إذن فيجب نقل القصعات الخمسين لا أكثر ، وهنا يقومون بغسلها ويسلمونها بأسرع ما يمكن . حامل القصعات أيضاً يحصل على وجبة مضاعفة من الطعام .

لكي لا يخرجوا القصعات من براكة المطعم يضعون خادماً آخر على

الباب ، ليمنع المعتقلين من حملها إلى الخارج ، ولكنه مهما حاول وأجهد نفسه فإنهم يخرجون بالقصعات ، فهم إمّا يقنعونه ، أو لا يلقون إليه بالاً... إذن ، يجب أن يكون هناك من يجمع هذه القصعات من شتى أطراف المعسكر . وبالتالي ، هناك من سيجمع القصعات المتسخة ، وينقلها إلى المطبخ . ولهذا وجبة إضافية ولذاك أيضاً . أمّا ما يقوم به الطباخ بنفسه ، فهو التالي : يلقي بالجريش والملح في القدر ، ويقطع الشحم ، بعضه إلى القدر وبعضه إلى جيبه . الشحم الجيد لا يراه المعتقلون ، أما السيىء منه ففي القدر . وهكذا تصبح جل أمنيات المعتقلين أن يسلّموا الطباخ شحماً سيئاً . بالإضافة إالى ذلك يقوم الطباخ بتحريك الطبخة ، حتى تنضج .

أما المراقب الصحي ، فلا يقوم حتى بهذا القليل ، يجلس وينظر : نضجت العصيدة ، حسناً ، فكل الآن ملء بطنك من رأس الطبخة . وهنا يأتي العريف المناوب ، فهم يتبدلون كل يوم ، ويأخذ عينة من الطبخة ، كأنما ليتحقق هل يمكن تقديم مثل هذه العصيدة للشغيلة ، ويحصل لقاء خدمته على وجبة مضاعفة ويحصل على وجبة أخرى كفرد في المجموعة .

وهنا ينطلق البوق ، وتأتي المجموعات بالدور ، ويقدم لها الطبّاخ القصعات عبر الكوة الضيقة . وهذه القصعات بالكاد تغطي العصيدة قعرها . ما هي حصتك من الطعام ، وعلى أي وزن تحصل ، لا يسمح لك بالسؤال تحصل على مائة فجلة في فمك إن أنت فتحته .

الريح تعول فوق السهب الأجرد . هي في الصيف جافة ، وفي الشتاء زمهريرية . لم تنمُ نبتة واحدة في هذه الأرض على الإطلاق . أمّا ما بين الأسلاك الشائكة فينمو القمح ، منذ زمن ، على خشبة تقطيع الخبز فقط ، ويحصد الشوفان في مستودع المؤن فقط .

حتى لو كسرت ظهرك هنا ، وحتى لو زحفت على بطنك... فلن تحصل على شيء يؤكل من هذه الأرض ، فلا شيء إلا ما تقرره الإدارة لك . وحتى هذا الذي تقرره لا تحصل عليه بعد أن يمر بالطباخين ، والخدامين ، والدنيئين .

هنا يسرقون . وفي المعتقل يسرقون ، وقبل ذلك في المستودع يسرقون . كل هؤلاء الذين يسرقون ، لا يمسكون معولاً بأيديهم . أمّا أنت فاعمل بكد ، وخذ بصمت ما يقدمونه لك ، وابتعد عن الكوة .

كل (يمسح الجوخ) لمن يستطيع .

دخل باڤلو وشوخوف وغوبتشيك إلى المطعم . في الداخل وقف الرجال متلاصقين ، فلا يمكنك أن ترى بينهم لا مقاعد المطعم ، ولا طاولات الطعام . البعض يتناول طعامه جالساً ، ولكن معظمهم يأكلون واقفين .

وحدها المجموعة ٨٢ ، التي حفرت الجور في العراء منذ الصباح وحتى الغداءاحتلت الأمكنة الأولى مع انطلاق بوق الطعام . وهم الآن ، بعد أن انتهوا من تناول طعامهم ، لا يغادرون ، فلا مكان يخرجون إليه . أما الآخرون فيصرخون بهم ، ويشتمونهم ، ليخلوا أماكنهم... اصرخ ما شئت فكأنك تخاطب الجدار . فكل الأشياء أهون من الخروج إلى الزمهرير .

بالدفع ، وبعون السواعد تمكن باڤلو وشوخوف من الدخول . مجموعة واحدة ، فقط ، تحصل على طعامها ، وواحدة أخرى ، فقط ، تنتظر دورها في الخلف . هناك يقف مساعدو العرفاء ، عند الكوة ، أما البقية ففي الوراء .

ـ قصعات! قصعات!

يصيح الطباخ من ثغرته ، فيحشرون له القصعات من ناحيتهم .

وشوخوف أيضاً ، يبدأ بجمع القصعات ، ويحشرها في الكوة ، ليس من أجل حصة أكبر ، بل من أجل تسريع الدور .

هناك ، أيضاً ، وراء الحاجز ، يقوم الخدم بغسل القصعات ، إنما هم يقومون بذلك من أجل العصيدة . ها هو مساعد العريف الذي يقف أمام باڤلو يستلم حصتهم .

صاح باڤلو من بين الرؤوس :

غوبتشيك!

ـ أنا هنا . صاح من عند الباب . جاء صوته ناعماً كصوت سخل .

ـ ناد المجموعة .

ركض غوبتشيك .

المهم أن الحساء اليوم جيد ، مصنوع من جريش الشوفان الأفضل . هذا لا يحصل كثيراً ، فغالباً ما يقدمون الماغارا مرتين في اليوم ، أو يقدمون محلول الطحين . المرق في حساء الشوفان مُشبع ، وهذا ما يجعله غالياً عليهم .

كم من المرّات قدم شوخوف ، منذ صغره ، الشوفان للخيول ، لكنه لم يفكر ، في يوم من الأيام ، بأن روحه ستنهد يوماً على حفنة من هذا الشوفان .

ـ قصعات! قصعات! يصيح من الكوة .

جاء دور الـ ١٠٤ مساعد العريف في المقدمة ، حصل على وجبة عرافة مضاعفة ، وابتعد عن الكوة . هي أيضاً على حساب الشغيلة ، وأيضاً ، ليس لأحد أن يحاسب على ذلك .

لكل عريف حصة مضاعفة ، وهو كما يشاء ، يأكلها إن أراد ، أو يعطيها لواحد آخر إن رغب ، وها هو تيورين يعطي حصته لباڤلو .

أمّا شوخوف ، فقد اندس وراء إحدى الطاولات . طرد من هناك ناحلين اثنين ، ورجا أحد الشغيلة ، بلطف ، أن يخلي محله ، نظّف جزءاً من الطاولة يتسع لاثنتي عشرة قصعة . فيما لو صفّت جنباً إلى جنب ، ولستٍ أخرى توضع فوقها . وبات عليه ، الآن ، أن يتناول القصعات من باڤلو ، ويكرر الرقم وراءَه ، ويحفظ القصعات تحت نظره ، كي لا يأخذ أحد أية واحدة منها . لم يكن شوخوف ليدفع الآخرين بكوعيه ، ولا ليحتل أمكنتهم ، ولكن الوضع مختلف هنا ، فهناك من ينهض ، وهناك من يشغل مكانه ، وعليه أن يبقي القصعات ضمن هامش نظره : ألا يمد أحد يده ، ويأكل من قصعاتنا ، أم هم يأكلون حصصهم فقط ؟

ـ اثنان! أربعة! ستة!

يعد الطبّاخ من وراء كوّته . إنه يحمل قصعتين معاً ، وهذا أسهل من حمل واحدة ، قد يتقلقل السائل فيها .

ـ اثنتان ، أربعة ، ستة... يكرر باڤلو وراءه بصوت غير مرتفع ، ويسلّم بدوره قصعتين ، قصعتين لشوخوف ، أمّا شوخوف ، فيضع القصعات على الطاولة من دون أن يكرر الرقم بصوت مسموع . هو فقط يحصيها بانتباه أشد .

ـ ثمانية ، عشرة...

ما الذي دها كيلديفس ، إنه لم يحضر المجموعة بعد!

ـ اثنتي عشرة ، أربعة عشرة... يتابع العد .

لكن قصعتين لم تخرجا من الكوة . كان شوخوف يرى ، بمحاذاة رأس وكتفي باڤلو ، يدي الطباخ تحملان قصعتين وقد وضعهما على حافة الكوة ، وتوقف ممسكاً بهما ، كما لو أنه كان يتأمل . يبدو أنه يوبخ من يغسل القصعات على أمر ما ، فمن تلك الجهة تأتيه دستة قصعات يحشرونها له قرب الكوة .

خلّفَ شوخوف كومة القصعات وراءه ، على الطاولة ، مباشرة . مدَّ جسده عبر المقعد ، والتقط القصعتين ، وكما لو أنه يكرر الرقم ، ليس للطبّاخ ، بل لباڤلو ، صاح بصوت مسموع :

ـ أربع عشرة .

ـ قف! إلى أين أخذتها ؟ صاح الطبّاخ

ـ إنه ، معنا ، معنا ، أكد باڤلو .

ـ معكم ، معكم... ولكن لا تتدخل بالعد!

ـ أربع عشرة ـ لمَّ باڤلو كتفيه ، فهو لم يكن ليهرب قصعاته ، فباعتباره مساعد عريف ، عليه أن يحافظ على شخصيته . وهنا كرر وراء شوخوف . وكان يمكنه الاعتماد عليه ـ أربع عشرة .

ـ أنا قلت «أربع عشرة»! صرخ الطباخ!

ـ وماذا في ذلك! قلت ، ولكن لم تعطني القصعات ، أبقيتها في يديك! ـ ضجّ شوخوف ـ تعال ، وعدّها إذا كنت لا تصدق ، ها هي على الطاولة!

صرخ شوخوف بالطباخ ، ولكنه في هذه الأثناء ، لاحظ أن الاستونيين يتقدمان صوبه ، فقدم لهما قصعتين على الماشي ، وعاد إلى وضعه السابق قرب الطاولة ، ليتأكد من أن القصعات ما تزال في مكانها ، وأن الجيران لم يسحبوا بعضاً منها ، وكان بإمكانهم فعل ذلك .

برزت من الكوة سحنة الطبّاخ الحمراء ، وصاح من هناك :

ـ أين القصعات ؟ قالها بصرامة .

ـ ها هي ، تفضل! ـ صاح شوخوف ـ ابتعد أنت ، يا صديقي الشبعان ـ قال ذلك وهو يدفع بأحدهم ـ هذه اثنتان! ـ رفع قصعتين من الطبقة الثانية إلى أعلى ـ انظر ، بقي على الطاولة ثلاثة صفوف ، في كل منها أربع قصعات ، عُدّها .

ـ ولكن مجموعتكم لم تأت ؟ نظر الطباخ ، نظرة شك في الفسحة الضيقة التي تتيحها له كوته الصغيرة . هذه الكوة صغيرة كي لا ينظر منها المعتقلون ، فيرون ما بقي في القدر .

ـ لا ، لم تأت المجموعة بعد . ، هزّ باڤلو رأسه

ـ ولأي شيطان ، أنتم تأخذون هذه القصعات ، ما دامت المجموعة لم تأت بعد ؟ احتدم الطباخ غيظاً .

ـ ها هم ، ها هم . صاح شوخوف .

تعالت بالباب ، صيحات المقدم البحري ، كما لو أنه كان يصيح من على منصة القبطان :

ـ ما الذي يجعلكم تتجمعون هنا ؟ أكلتم فانصرفوا! افسحوا مجالاً لغيركم!

تابع الطباخ تذمره ، ثم ما كان منه إلا أن استقام ، وظهرت يداه في الكوة ، من جديدة ، مع قصعتين .

ـ ست عشرة ، ثماني عشرة...

وآخر قصعة مضاعفة .

ـ ثلاث وعشرون . انتهى! المجموعة التي تليها!

بدأ المعتقلون يشقون لأنفسهم طريقاً ، بينما كان باڤلو يمد القصعات صوبهم ، من فوق رؤوس الجالسين وراء الطاولات .

كان يمكن أن يجلس على المقعد الواحد في الصيف خمسة رجال ، أمّا الآن ، ففي هذه الملابس السميكة ، هيهات أن يتسع المقعد لأربعة منهم . وحتى هؤلاء الأربعة ، بالكاد يتمكنون من تحريك أيديهم لاستعمال ملاعقهم .

آملاً ، أن حصة على الأقل من الوجبتين المهربتين ستكون من نصيبه ، باشر شوخوف في الحال استعداده لالتهام ما لديه . رفع ركبته اليمنى إلى ما تحت إبطه ، وسحب من ساق جزمته ملعقته «أوست إيجما ، ١٩٤٤» . خلع قبعته ، وحشرها تحت إبطه ، وحرّك أطراف العصيدة .

الآن ، في هذه اللحظة بالذات ، يجب استنفار كل الطاقات من أجل الطعام .

راح ، جارفاً الطعام من قاع القصعة ، يرفع الملعقة إلى فمه بحذر ، ليستقبلها فمه هناك ، بيد أنه كان عليه أن يسرع أكثر ، ليرى باڤلو أن شوخوف انتهى من تناول طعامه ، ويعرض عليه الحصة الثانية . لكن فيتيوكوف جاء مع الاستونيين ، هنا أيضاً ، وكان قد رأى كيف هربت القصعتان ، وها هو الآن يقف قبالة باڤلو مباشرة ويأكل محدقاً في القصعات الأربع التي لم توزع على المعتقلين بعد . أراد فيتيوكوف أن يقول من خلال ذلك ، بأن عليهم أن يعطوه ، إن لم يكن حصة كاملة ، فليكن نصف حصة .

إلا أن الشاب الأسمر باڤلو راح يأكل حصته الثانية بكل هدوء... وكان من الصعب أن تلاحظ على وجهه ، في هذه الأثناء ، أيرى الذي يقف قبالته ، أم لا ، أيتذكرالقصعتين الإضافيتين ، أم لا ؟!

انتهى شوخوف من تناول حصته ، لكن بطنه الموعود بحصتين ، لم يشعر بالشبع ، كما كان يشعر عادة بعد تناول الشوفان . حشر شوخوف يده في جيبه الداخلي ، وأخرج من الخرقة البيضاء التي هناك قشرة الخبز المقوسة التي لم تتجمد ، وصار يجمع بواسطتها كل ما التصق بزوايا القصعة من العصيدة بعناية فائقة . بعد ذلك قام بلعق ما علق بكسرة الخبز هذه بطرف لسانه ، وعاد ليكرر مسح القصعة بها ثانية . أخيراً ، باتت القصعة نظيفة ، كأنها غسلت ، مع فارق بسيط هو أنها لا تلمع . مرّر من فوق رأسه القصعات المأكولة وسلّمها لجامع القصعات ، وبقي جالساً في مكانه ، حاسر الرأس ، دقيقة أخرى .

مع أن شوخوف هو الذي هرّب القصعتين ، إلا أن القرار بيد معاون العريف . تباطأ باڤلو قليلاً ، بأكل ما في قصعته ، لكنه لم يلعقها ، نظفّها بالملعقة لا أكثر ، ثم خبأ الملعقة ، ورسم إشارة الصليب ، وبعدئذٍ دفع بقصعتين ، من الأربع المتبقية ، إلى الجانب قليلاً ، كما لو أنه يقدمها إلى شوخوف ، بيد أن ضيق المكان لم يسعفه بإيصالها إليه .

- إيڤان دينيسوڤيتش ، خذ واحدة لك ، وأعط الأخرى لسيزر .

تذكر شوخوف أن عليه أن يحمل إحدى القصعتين إلى سيزر في الإدارة ، فسيزر لم يذل نفسه بالمجي ، يوماً ، إلى المطعم ، لا هنا في معسكر الاشغال ، ولا هناك في المعتقل . تذكر شوخوف ذلك ، ولكن قلبه تجمّد في صدره حين دفع باڤلو بالقصعتين صوبه : أوَ لم يرد باڤلو إعطاء القصعتين الزائدتين له بالذات ؟

الآن ، عاد قلبه يخفق كما كان .

ها هو ينحني فوق صيده الشرعي ، ويأكل بتمهل ، غير ملق بالاً إلى دفعات المعتقلين من المجموعات الأخرى في ظهره . كل ما كان يقلقه أن يعطي باڤلو الحصة الأخرى لفتيوكوڤ . هذا الجقل فيتيوكوف حاذق ، دائماً في كلبيته ، لكن جرأته لا تكفيه لأن يعض .

... قريباً منهم ، جلس المقدم البحري بونيوفسكي وراء الطاولة . كان قد أتى على حصته ، من زمان ، وكان يعلم أن هناك زيادة في طعام المجموعة ، لكنه لم ينظر ليرى كم بقي من القصعات عند مساعد العريف . هو فقط يستريح هنا ، يتدفأ... ليس لديه من العزم ما يكفي لينهض ، ويخرج إلى الجليد ، إلى الصالة المصقعة غير المدفأة . هو أيضاً شغل مكاناً خارج القانون ، وحرم القادمين الجدد منه ، هؤلاء الذين هم كأولئك الذي طردهم بصوته المعدني ، منذ خمس دقائق لا أكثر . رغم أنه لم يمض وقت طويل على وجوده في المعتقل ، فإن مثل هذه الدقائق ، باتت فائقة الأهمية بالنسبة له ، من دون أن يدري ، هذه الدقائق راحت تحوله من ضابط بحري همّام ، إلى معتقل قليل الحركة ، كثير الحذر . قلّة الحركة هذه هي التي يمكن أن تعينه في قضاء تلك الخمس والعشرين سنة الملصقة به .

كانوا يصرخون به ، ويدفعونه من الخلف كي يخلي مكانه .

قال باڤلو :

ـ أيها القبطان ، أيها القبطان! ؟

انتفض بوينوفسكي كأنما استيقظ من غفوته ، متلفتاً حوله . مَدَّ باڤلو قصعة نحوه ، من غير أن يسأله أيريد ذلك أم لا .

ارتفع حاجبا بيونوفسكي ، حدقت عيناه في العصيدة ، كما لو أنهما تريان أعجب عجائب الدنيا .

ـ خذوا ، خذوا... هدّأه باڤلو ، وخرج آخذاً معه قصعة العريف الأخيرة .

باعدت الابتسامة المذنبة ما بين الشفتين المتشققتين لهذا القبطان ، الذي أبحر ، في يوم من الأيام ، ، حول أوربا ، ودار حول القطب الشمالي .

انحنى القبطان فوق حفنة عصيدة الشوفان السائلة ، التي لا أثر للدسم فيها . انحنى فوق الشوفان والماء .

نظر فيتيوكوف بحقد إلى شوخوف ، وإلى القبطان ، وخرج .

يعتقد شوخوف بأن باڤلو كان محقاً في إعطاء القصعة للقبطان .

سيأتي يوم يتعلم فيه القبطان الحياة هنا ، أما الآن فهو لا يعرف كيف يحيا .

كان لدى شوخوف أمل ضعيف آخر ، أفلا يمكن أن يعطيه سيزر وجبته أيضاً ؟ ربما لا يعطيه ، فهو لم يستلم طرداً منذ أسبوعين .

بعد أن انتهى من تناول ما في القصعة الثانية ، لعق شوخوف قاعها أيضاً ، ومسحها كسابقتها بقشرة الخبز ، ولحس الخبزة ككل مرّة... وأخيراً وضع نتفة الخبز هذه في فمه وأكلها . بعد كل ذلك ، حمل عصيدة شيزر الباردة ، وخرج بها .

ـ إلى الإدارة .

قال ذلك ، دافعاً الخادم الواقف في الباب ، لمنع إخراج القصعات .

كانت الإدارة براكة صنعت من ألواح الخشب ، تقع قرب محرس البوابة .

كان الدخان يتصاعد من مدخنتها ، كما كان في الصباح . كان يوقد المدفأة هنا حاجب خاص يقوم على خدمتهم . أمّا ما يتعلق بالخشب ، والحطب ، فلا يبخلون على الإدارة به .

فتح شوخوف باب البراكة الخارجي ، محدثاً صريراً ، ثم فتح باباً ثانياً محاطاً بحزام ، منعاً لتسرب الهواء ، ودخل ساحباً وراءه غيمة من البخار الجليدي ، وأغلق الباب خلفه مسرعاً ، كي لا يصيحوا به : أي ، أنت ، اغلق الباب وراءك يا ملعون .

خيّل إليه أن الجو هنا حار ، شعر كأنه يدخل إلى حمّام .

كانت أشعة الشمس تتلألأ فرحة وراء زجاج النافذة ، الذي ذاب الجليد عنه ، لم تكن الشمس هنا تنظر بجهامة كما في مبنى المحطة الحرارية .

تفرق الدخان الكثيف ، الخارج من مدخنة سيزر ، في حزمة الضوء كدخان بخور الكنيسة . أما المدفأة فكانت حمراء كالجمر . هكذا حمّاها الأصنام . البواري جمرتها النار ، أيضاً . لو جلست في مثل هذا الدفء لحظة واحدة لغفوت .

في براكة الإدارة غرفتان . الثانية منهما لمشرفي الأعمال . باب هذه الغرفة لم يكن مغلقاً جيداً . كان صوت المشرف يأتي من هناك راعداً :

ـ لقد تجاوزنا الميزانية المخصصة لنا ، للرواتب ، ولمخصصات البناء . ألواح الخشب أفضل ، لن أتحدث عن الخشب المضغوط... يقوم معتقلوكم بتقطيعها ، ويحرقونها في مواقد النار ، وأنتم لا ترون شيئاً . والاسمنت أيضاً ، أنزله المعتقلون بالقرب من المستودع عندما كانت الريح شديدة ، ونقلوه أكثر من عشرة أمتار في أجران مفتوحة ، فتغطت الساحة كلها ،

بطبقة اسمنت ، بسماكة الشوكولاته . ، وخرج شغيلتكم من هناك ليس بلونهم الأسود ، بل بلون رمادي ، بلون الاسمنت ، فكم من الاسمنت خسرنا!

هذا يعني ، أن هناك اجتماعاً عند المشرف مع رؤساء فرق العمل ، أغلب الظن .

في الزاوية عند الباب جلس الحاجب على مقعد خشبي في وضعية استرخاء . وكان هناك شكورو باتينكو ، ذو الرقم ب ـ ٢١٩ ، ذلك القضيب الأعوج ، ملتصقاً بالنافذة يراقب عبر غشاوة زجاجها ألا يسرق أحد بيوته المسبقة الصنع ، فمنذ لحظات تذمّر العم المشرف .

كان هناك محاسبان ، هما أيضاً ، من المعتقلين . كانا يشويان الخبز على المدفأة . ولكي لا يحترق الخبز ، وضعاه على شبكة من الأسلاك الشائكة ، صنعاها لهذا الغرض .

كان سيزر يجلس مسترخياً بالقرب من طاولته ، مديراً ظهره باتجاه الباب فلا يرى شوخوف ، أمّا قبالته ، فكان يجلس خ ـ ١٢٣ المحكوم بعشرين سنة أشغالاً شاقة ، وهو عجوز صبور يأكل عصيدته بتأن .

ـ لا ، يا عم ، الأمور رخوة من دون هذا ـ يقول سيزر مباعداً كلماته ـ الموضوعية تقتضي الاعتراف بأن ايزينشتين* رجل عظيم . أليس عمله «إيڤان الرهيب» عملاً عظيماً! ؟ رقصة الاوبريتشينا** في الأقنعة ـ المسرح في الكنيسة!

---

* سيرغي ميخائيلوفيتش ايزينشتين (١٨٩٨ ـ ١٩٤٨) : مخرج ومنظر سينمائي . من أعماله الشهيرة : =
= باتيومكين (١٩٢٥) ، اكتوبر (١٩٢٧) ، الكسندر نيڤسكي (١٩٣٨) ، إيڤان الرهيب (جزء أول ١٩٤٥ وجزء ثانٍ ١٩٥٨) .

** أوبريتشينا : نظام اجراءات سياسية داخلية لإيڤان الرهيب (١٥٦٥ ـ ١٥٧٢) تتضمن اعتقالات جماعية ، إعدامات ، ومصادرات أملاك... وصارت الكلمة تستخدم فيما بعد للدلالة على الجهاز الأمني المخابراتي .

ـ كل هذا تصنّع! غضب خ ـ ١٢٣ ، وقال ممسكاً بالملعقة أمام شفتيه ـ كم كثرت الفنون... كثرت حتى لم تعد فنّاً... فلفل ، وخشخاش بدل الخبز الضروري! بعد ذلك فكرة سياسية عفنة لتبرير حكم الطاغية الأوحد... ازدراء لذاكرة ثلاثة أجيال من المثقفين الروس!

ثم راح يأكل العصيدة بلا تذوق ، فهي بلا نفع له .

ـ لكن ، ما هي المعالجة التي كان يمكن أن يقدموها غير ذلك ؟...

ـ آه ، لو أنهم عالجوا أصلاً لا تقولوا لي إنه عظيم ، قولوا إنه متزلّف ، نفّذ طلباً كلبياً . العظيم لا يمكن أن يعالج عمله المسرحي على ذوق الطاغية .

ـ إحمْ ، إحم . تنحنح شوخوف ، خجلاً من مقاطعته للحديث المنعقد ، ولم يكن أمامه إلا أن يفعل ذلك ، فلا يمكن له أن يقف على هذه الحال هنا .

التفت سيزر . مد يده لتناول العصيدة ، من دون أن ينظر باتجاه شوخوف ، كما لو أن العصيدة جاءت لوحدها ، محمولة بالهواء ، وتابع حديثه :

ـ اسمعوا ، ولكن الفن شيء خاص ، هكذا...

ـ ما هو هذا الخاص ؟ ـ قاطعه خ ـ ١٢٣ ـ خابطاً بحرف يده الطاولة ـ ليذهب فنكم إلى الجحيم إذا لم يكن قادراً على إيقاظ مشاعر الخير في داخلي!

وقف شوخوف ـ وما كان احترامه لنفسه يسمح له بالوقوف أكثر ـ منتظراً أن يقدم له سيزر شيئاً يدخنه ، لكن سيزر نسي تماماً أنه يقف هنا ، وراء ظهره مباشرة .

خرج شوخوف بهدوء ، نافضاً يده .

في الخارج كان برد لا يرحم ، لن يكون التعمير هيناً اليوم .

سار شوخوف في درب ضيق فوق الثلج . رأى في طريقه قطعة مكسورة من شفرة منشار حديد ، مرمية على الثلج . ورغم أنه لا يحتاج إليها في شيء الآن ، رفعها وحشرها في جيب سرواله ، فمن يستطيع هنا أن يتنبأ باحتياجاته في المستقبل ، المحتاط أفضل من الغني ، ليأخذها إذن وليخبئُها في مبنى المحطة .

عندما وصل إلى مبنى المحطة ، كان أول شيء يفعله أن أخرج مسيعته من مخبئها ، وحشرها وراء حزامه . وبعد ذلك غرزها في جبلة الإسمنت .

هنا ، بعد ضوء الشمس ، بدا له المكان مظلماً جداً ، ورطباً نوعاً ما ، وليس أدفأ مما في الخارج .

تجمهر الجميع حول المدفأة الاسطوانية ، التي ركبها شوخوف في الصباح ، وحول ذلك الموقد الذي يدفأ عليه الرمل . تجمعوا ينفثون البخار من أفواههم . أمّا ، من لم يستطيع منهم احتلال مكان قريب ، فجلس على حافة جرن الاسمنت .

كان العريف يجلس بمحاذاة المدفأة ، يتناول عصيدته . وكان باڤلو قد سخن له العصيدة على المدفأة .

سرت وشوشات بين الشباب ، دب المرح بينهم ، قالوا لإيڤان دينيستش بصوت منخفض : حصل العريف على معدل إنتاج جيد ، جاء من هناك مسروراً .

أين وجد العمل ، وأي عمل ؟ هذا شيء يخصّ عقله العريفي وحده .

ها هو نصف اليوم قد مضى ، فماذا عملنا ؟ لا شيء... فحفظ الصالة من شر البرد لا أحد يُعطى أجرٌ عليه ، وتركيب المدفأة ، لا أجر يقابله أيضاً... فكل هذا ـ يقولون ـ تقومون به من أجل أنفسكم ، لا من أجل الانتاج . وهناك في السجلات ، يجب أن يكتبوا شيئاً ما .

ربما كان سيزر يعين العريف هناك ، في السجلات ، فليس العريف من يحترمه هكذا لوجه الله .

«غطيَ معدل الانتاج بشكل جيد!» . هذا يعني ، سنحصل على طعام جيد لخمسة أيام . خمسة! ليس خمسة ، ليكن أربعة : من الخمسة المقررة تقتطع القيادة واحداً توزعه بالتساوي على كل من في المعتقل ، على الأسوأ ، والأفضل . وكما لو أن ذلك لا يزعج أحداً ، فالجميع متساوون ، ولكن كيف ذلك ، فهم يوفّرون على حساب بطوننا نحن! لا بأس ، أيضاً ، فمعدة المعتقل تعودت على كل شيء : اليوم نتدبر أمرنا كيفما كان ، وغداً نشبع . ومع حلمه هذا يغفو المعتقل إلى الغد .

أمّا إذا شغلنا التفكير بالأمر ، فنقول : خمسة أيام نعمل ، ونأكل أربعة فقط ، وتصخب المجموعة .

من لديه دخان ، يدخن في صمت .

تجمعوا مثل عائلة كبيرة حول النار ، وراحوا ينظرون إليها . والمجموعة ، فعلاً ، عائلة . ها هم يستمعون كيف يحدّث العريف اثنين ثلاثة منهم... هو لا يلقي بالكلمات هباءً ، أبداً ، فإذا ما قرر الحديث ، فهذا يعني أنه سيتحدث من كل قلبه .

أندريه بروكوفيتش العريف لا يستطيع ، أيضاً ، تناول الطعام والقبعة

على رأسه . رأسه من دون قبعة رأس عجوز ، محلوق كرؤوس الجميع حلاقة ناعمة . كان يمكن تحت ضوء وهج المدفأة أن ترى كم وخط الشيب شعره الرمادي .

... أنا ، كنت أرتجف حتى أمام قائد الكتيبة ، أما هنا فقائد فوج!

«المقاتل الأحمر تيورين تحت أمركم...» ، وإذا به يقول من بين حاجبيه المتوحشين : «ما هو اسمك ، واسم أبيك ؟» ، أجيبه . «تاريخ ميلادك ؟» أقول له . كان عمري آنذاك في عام الثلاثين اثنتين وعشرين سنة فقط . كنت عجلاً صغيراً . «وكيف تخدم يا مقاتل تيورين ؟» أقول : «أخدم الشعب العامل!» وإذا به يفور ، ويخبط بكلتا يديه على الطاولة : «تخدم الشعب العامل! ومن أنت حتى تخدمه أيها السافل ؟!» . عندما أسمع ذلك ، أغلي من الداخل ، ولكنني أتماسك... «رامي رشاش ، رقم واحد . مقاتل ممتاز وسيا...» «أي رقم واحد ، حقير ؟ ابن كولاك*! جاءتنا ورقة من كامين تقول بأن أباك كولاك ، وأنت تتخفى هنا... إنهم يبحثون عنك منذ عامين!» شحب لوني ، والتزمت الصمت . لم أكتب رسائل لأهلي طوال عام ، كي لا يقتفوا أثري ، ولست أدري أهم أحياء ، هناك ، أم أموات ، وهم أيضاً لا يعرفون شيئاً عني «وأين ضميرك! ـ يصرخ فتهتز الأوسمة الأربعة المعلقة على صدره ـ تخدع سلطة العمال والفلاحين ؟!» ظننته سيضربني ، ولكنه لم يفعل .

وقّع أمراً ، وبعد ست ساعات ألقوا بي خارج الوحدة... كان تشرين الثاني ينتظرني في الخارج . خلعوا عني ملابسي الشتوية ، وأبقوا لي بدلة

---

* كولاك : ملاّك . هؤلاء تم تجريدهم من ملكيتهم أو ضم ملكيتهم إلى الكولخوزات . ثم تمت محاربتهم كأعداء للثورة .

صيفية مستعملة ثلاثة أجيال متتالية ، ومعطفاً خفيفاً قصيراً . كنت ما أزال أبله . لم أكن أدري أن بإمكاني ألا أسلّمها . كان يمكن أن أرسل بهم إلى الشيطان... والورقة الشريرة «مطرود من الخدمة في الجيش ، لأنه ابن كولاك» بيدي ، فجرّب أن تجد عملاً بهذه الوثيقة . كان علي أن أسافر أربعة أيام بالقطار . لم يزودوني ببطاقة سفر ، ولا بقسائم طعام ، ولو ليوم واحد . أطعموني لآخر مرّة وألقوا بي خارج الثكنة... نسيت أن أقول لكم إنني في عام ٣٨ التقيت أثناء سوقنا ، في الطريق ، قائد فصيلتي ، كانوا قد حكموه بعشر سنوات أيضاً ، وعرفت من خلاله بأن قائد الفوج والمفوض أعدما في عام ٣٧ ، ولست أدري أكان هؤلاء بالنسبة لهم بروليتاريا ، أو كولاك ، أكان لديهم ضمير ، أم لم يكن... رسمت إشارة الصليب ، وقلت : «أنت موجود ، على كل حال ، أيها الخالق في السماء ، تمهل طويلاً ، ولكنك لا تهمل ، وفي النهاية تضرب ضربتك القاسية» .

بعد قصعتين من العصيدة أراد شوخوف أن يدخن . كان يحدوه أمل بأن يتمكن من شراء كأسين من التبغ من الليتواني من البرّاكة السابعة ، على أن يدفع ثمنهما لاحقاً . قال للاستوني السمّاك :

ـ اسمع ، يا إينو... أعرني لفافة واحدة حتى الغد ، فأنا لا أخدع... حدّق إينو في عيني شوخوف مباشرة ، ثم أزاح نظره عنه ببطء ، ملتفتاً إلى أخيه الاستوني الآخر .كل ما لديهما مناصفة ، وهما لا يستهلكان نتفة دخان واحدة . غمغما بشيء فيما بينهما ، ثم أخرج إينو كيس التبغ ، المزين بشريط زهري . أخرج من الكيس قليلاً من التبغ ، المفروم في الريجة ، بين أصابعه ، وضعه في راحة يد شوخوف ، وعاين الكمية ، ثم أضاف إليه عدة ألياف أخرى . كانت تكفي ، فعلاً ، للفافة وحدة ، لا أكثر .

أمّا ما يتعلق بورق اللف ، فكان عند شوخوف ورقة جديدة . اقتطع منها مزقة ، وصنع منها لفافة . ثم رفع جمرة تدحرجت بين قدمي العريف ، وسحب نفساً! وراح يدخن! شعر بدوخة لذيذة تجتاح جسده كُلّه ، فكما لو أن نشوة سكر احتلت قدميه ، ورأسه .

ما أن بدأ شوخوف يدخن حتى حملقت فيه عينان خضراوان عبر فضاء الصالة كلها : إنه فيتيوكوف . كان يمكن أن تعطف على هذ الجقل وتعطيه سحبة ، ولكنه دخّن اليوم . رآه شوخوف بأم عينيه يدخن .

يجدر بي أن أترك قليلاً لسينكا كليفشين ـ فكّر شوخوف ـ وهو لا يستمع إلى حديث العريف ، الذي يجلس هناك قرب المدفأة ، أمام النار . مسنداً رأسه على كتفه . وجه العريف مجدور يضيؤه ألق النار .

يتحدث بلا شكوى ، كما لو كان يحكي شيئاً عن واحد آخر ، لا عن نفسه :

ـ أية نفايات ، تلك التي كانت لدي ، بعتها لأحدهم بربع قيمتها ، واشتريت من السوق السوداء رغيفين من الخبز . كان الخبز يباع بالقسائم فقط في ذلك الحين . فكّرت بالسفر في قطار شحن ، لكن التعليمات كانت صارمة : اطلقو النار على كل من يتسلق قطار شحن...

والبطاقات! من منكم يتذكر... حتى بنقودك لن تتمكن من شرائها ، فكيف بلا نقود . كانت الساحة أمام المحطة مفروشة بفروات الرجال . كانوا هناك يموتون من الجوع قبل أن يتمكنوا من السفر . أمّا البطاقات فكنا نعلم لمن تعطى : للمخابرات ، للجيش ، للمسافرين بمهمات رسمية... لم يكن ممكناً أن تسير على رصيف المحطة أيضاً ، فالشرطة تغلق أمامك الباب ، والحراس يتجولون على السكة من الجانبين... فإلى أين ؟ الشمس الباردة

تميل إلى المغيب ، وبرك الماء تتجمد ، فأين عساي أقضي الليل ؟... تسلقت جداراً حجرياً أملس . قفزت مع رغيفيّ ، وإذا بي في مراحيض المحطة . لم يكن هناك أحد ليطردني . خرجت إلى رصيف المحطة كمسافر ، كجندي . على السكة ، توقف ، كما يجب ، قطار فلاديڤوستوك ـ موسكو . وكان هناك هرج ومرج ، فالناس يتزاحمون لأخذ الماء الساخن ، يضربون بعضهم البعض على رؤوسهم بالأباريق . كانت هناك فتاة في بلوزة زرقاء تدور مع ابريقها الكبير ، الذي يتسع ليترين من الماء ، ولا تجرؤ على الاقتراب من غلاية الماء . قدماها صغيرتان يسلقونها لو دنت ، أو يسحقونها هناك .

«امسكي خبزي ، قلت لها ، الآن أحضر لك الماء!» وبينما كنت أملأ الإبريق تحرك القطار ، وبقيت هي على الرصيف ممسكة برغيفي الخبز ، تبكي ، لا تعرف ماذا تفعل بهما ، غير مهتمة لأمر إبريقها . «اركضي ، قلت لها ، اركضي ، فأنا وراءك!» . هي في الأمام ، وأنا وراءها . لحقت بالقطار ، حاولت رفعها بإحدى يدي . انطلق القطار مسرعاً ، تمكنت بصعوبة من وضع قدمي على دوّاسة العربة . لم يضربني مراقب التذاكر على يدي ، ولم يدفعني من صدري . كان جنود آخرون يسافرون في هذه العربة ، حسبني واحداً منهم .

لكز شوخوف سينكا في خاصرته : خذ ، يعني دخن ، لا تعرف كيف تدبر رأسك .

أعطاه شوخوف بقية اللفافة ، مع المشرب الخشبي ، ليمص الدخان ، لا ضير في ذلك . سينكا غريب الأطوار كالممثل : وضع إحدى يديه على قلبه ، وصار يهز برأسه : وماذا تنتظر من الأطرش غير ذلك!...

تابع العريف حديثه :

ـ كان هناك ست صبايا ، سافرن في مقصورة مغلقة في العربة . كن طالبات لينينغراديات جئن من التدريب العملي . كان لديهن على الطاولة زبدة و... ومعاطف على العلاقات ، وحقائب سفر مغلّفة بأكياس من القماش . إنهن يسافرن على هامش الحياة ، الإشارات الضوئية أمامهن خضراء... تحدثنا ، تضاحكنا ، شربنا الشاي معاً... وإذا بهنَّ يسألنني ، على حين غرة ، من أي عربة أنتم ؟ تنهدت ، وفتحت لهن صدري! من أي عربة أكون تُرى يا بنات! لكنَّ الحياة ، وليس لي إلا الممات...

نارالمدفأة تشتعل ببطء في صالة الاسمنت .

ـ تأوهن ، تنهدن ، تناقشن... أخيراً غطينني بمعاطفهن بعد أن سمحن لي بالنوم على رف الحقائب في مقصورتهن . وعندما جاء مفتش التذاكر مع عناصر الأمن ، لم يكن الحديث يدور عن أخذ البطاقة ، بل عن أخذ الروح . المهم . ، قمن بحمايتي حتى وصلت إلى نوڤوسيبيريسك... أتعلمون بعد ذلك بزمن استطعت أن أرد الجميل لواحدة من تلك الفتيات في معتقلات بيتشورا :

لقد وقعتْ عام خمسة وثلاثين في موجة كيروف ، هلكتْ في الأشغال الشاقة العامّة ، أما أنا فاستطعت أن أتدبر لها عملاً في الخياطة هناك .

ـ أنبدأ بجبل الاسمنت ؟ سأل باڤلو عريف المجموعة هامساً .

لم يسمع العريف ، بل تابع حديثه :

ـ وصلت إلى البيت ليلاً ، عبر البساتين . كانوا قد اعتقلوا والدي ، وانتظرت أمي مع الصغار أن تساق إلى المعتقل أيضاً . ووصلت برقية بخصوصي إلى سوڤيت القرية ، وهم يبحثون عني ليلقوا القبض عليّ . أطفأنا

أضواء البيت ، وجلسنا على الأرض ، قرب الحائط نرتجف خوفاً ، فقد تجوّل النشطاء في القرية طوال الليل ، ونظروا في النوافذ . في تلك الليلة بالذات ، أخذت أخي الصغير ، ورحلت به إلى بلد دافئ ، إلى فرونزا . لم يكن لدي ما أطعمه إياه ، أو ما أقتاته أنا نفسي . رأيت في فرونزا بعض الزعران المراهقين يجلسون حول وعاء كبير يغلي فيه القار ، جلست قربهم : «اسمعوا ، أيها السادة العراة! خذوا أخي الصغير ، وعلّموه كيف يعيش!» ـ قلت لهم ـ أخذوه... وأنا ، الآن ، نادم لأنني لم التحق حينها بهؤلاء اللصوص الصغار مع أخي...

ـ ولم تر أخاك بعد ذلك أبداً ؟ سأله المقدم .

تثاءب تيورين .

ـ لا ، لم ألتقيه بعد ذلك ـ تثاءب ثانية ، وأكمل ـ ولكن لا تتأسوا يا شباب ، فهنا في المحطة يمكن أن نعيش . هيّا فلتبدؤوا بجبل الاسمنت ، لا تنتظروا البوق .

هذه هي مجموعة العمل ، بحق ، وهكذا تكون . لا تستطيع الإدارة حتى أثناء وقت العمل زحزحة المعتقل من مكانه ، أمّا العريف ، فيقول إلى العمل... يعني إلى العمل ، فهو الذي يطعمنا ، ولا يجبرنا على العمل عبثاً .

إذا بدؤوا بجبل الاسمنت مع البوق ، فهذ يعني سيكون على العمّارين الانتظار! تنهد شوخوف ، ونهض :

ـ لنذهب ، ونكسّر الجليد .

أخذ معه ، لإزالة الجليد ، بلطة ومكنسة ، وأخذ من أجل التعمير فاساً ، وقدة ، وميزان الشاقول وميزان الزئبق .

نظر كيلديفس المورد الخدين إلى شوخوف مستاءً ، يريد أن يقول ما الذي يجعلك تنهض قبل العريف ؟ هذا صحيح ، ولكن ليس كيلديفس الذي يفكر كيف سيطعم المجموعة : ما هم هذا الأصلع حتى لو حسموا من حصته مائتي غرام خبز ، فهو يستطيع أن يعيش على طروده من دونها .

ومع هذا ينهض . يفهم أنه لا يجوز أن تتأخر المجموعة بسببه :

ـ انتظر ڤانيا ، أنا أيضاً!... آت معك .

لا عليك ، لا عليك ، لو كان ثخين الرقبة هذا يعمل لنفسه لقام قبل الآن بزمان .

ما دفع شوخوف للإسراع ، أيضاً ، رغبته بأخذ الشاقول قبل كيلديفس فقد سلموهم في المستودع واحداً فقط .

سأل باڤلو العريف :

ـ سيقوم بالتعمير ثلاثة ؟ ربما نضيف إليهم واحداً آخر ؟ وعندئذ لا يجمد المجبول!

العريف مفكراً :

ـ الرابع سأكون أنا ، يا باڤلو ، أمّا أنت فابق هنا عند الجبلة!

الجرن كبير ، شغّل هنا ستة رجال ، اعملوا هكذا : خذوا من أحد النصفين اسمنتاً مجبولاً ، واجبلوا في النصف الثاني اسمنتاً جديداً ، واحرصوا ألا نضطر لانتظاركم ولا دقيقة .

ـ إخ! ـ قفز باڤلو من مكانه . فهو ما يزال شاباً صغيراً ، دمه طازج ،

لم تعركه المعتقلات بعد ، وجهه السمين تربّى على الغالوشكي الأوكرانية* ـ أنتم ستعمّرون هناك ، وأنا سأجبل هنا ، وسنرى من منا أشغل! هاتوا لي أكبر معول لديكم .

هذه هي مجموعة العمل ، فعلاً! لو أن باڤلو أطلق النار في الأحراج ، وهجم على الحارات في عتمة الليالي لما حنى ظهره هنا الآن! أمّا بالنسبة للعريف ، فهذه مسألة أخرى .

صعد شوخوف وكيلديفس إلى أعلى ، تناهى إليهما صرير أقدام سينكا الذي مشى في أعقابهما . خمّن الأطرش ما يدور ولحق بهما إلى هناك .

جدران الطابق الثاني ما تزال في بدايتها . ثلاثة مداميك من الطوب في معظمها ، ونادراً أعلى بقليل . يمكن رص الطوب هنا بسرعة كبيرة ، فالمداميك من الركبة وحتى الصدر لا تحتاج إلى سقالة .

أما السقالات ، فأية سقالات هذه التي تبقت ، وأين منها تلك التي كانت! لم يبق المعتقلون على شيء : حملوا بعضها إلى مبان أخرى ، نشروا بعضها... المهم ألا تنال المجموعات الأخرى منها شيئاً . والآن ، لو نظرت إليها نظرة عملية تقول : يجب نصب سقالات جديدة في الغد ، وإلا فإن العمل سيتوقف .

من على مبنى المحطة يمكن أن ترى بعيداً ، كل المعسكر مكسواً بالثلج . صحراء ثلجية لا أثر فيها للمعتلقين الذين لجؤوا إلى مخابئهم ، يتدفؤون ، حتى يضرب البوق ، نقاط الحراسة سوداء ، والأعمدة مدببة الرؤوس ، منصوبة بين الأسلاك الشائكة . ترى الأسلاك الشائكة إن أدرت

---

* غالوشكي أوكرانية : صنف من الطعام تشتهر به اوكرانيا : عبارة عن عجين يحشى بالجبن ويسلق بالماء .

ظهرك إلى الشمس ، ولا تراها في الاتجاه المعاكس ، فالشمس تسطع بقوة ، لا تستطيع معها فتح عينيك .

وفي مكان غير بعيد ، تُرى من هنا أيضاً ، عربة توليد الطاقة ، وهي تنفث الدخان ، وتدخّن السماء ، وتتنفس بصعوبة ، إنها دائماً تشخر قبل أن تزمّر ، وها هي تضرب بوقها الآن .

هم لم يفعلوا الكثير قبل هذا البوق .

ـ إيه ، أنت يا ستاكانوفيتش*! تتدبر أمورك أسرع مع هذا الشاقول! يحاول كيلديفس اللحاق به .

ـ صحيح ، ولكن انظر إلى جدارك كم يتراكم عليه من الجليد! فهل ستنتهي من تكسير الجليد عنه قبل المساء ؟ لا بأس ، على الأقل أنت لم تأخذ المسطرين معك عبثاً إلى فوق .

ضحك منه شوخوف .

أرادوا العمل في تعمير الجدران كما وزعهم العريف قبل الغداء ، ولكن ها هو صوت العريف يأتي من أسفل :

ـ أي ، يا شباب! دعونا ننقسم إلى مجموعتين كي لا يتجمد الاسمنت في الجرن : أنت يا شوخوف ، خذ معك كليفشين ، وأنا سأعمّر مع كيلديفس ، أمّا الآن ، فسيقوم غوبتشيك بتنظيف الجدار عند كيلديفس بدلاً مني .

---

* ستاكانوڤيتش : صيغة سخرية (التابع للكأس ، كأسي أو قدحي) من ستاخانوفيتش أي من أتباع الكسندر غريغوريڤيتش ستاخانوف (١٩٠٦ ـ ١٩٧٧م) مؤسس حركة نشطاء الانتاج ، الذي سجّل في عام ١٩٣٥ رقماً قياسياً في استخراج الفحم الحجري . وتم تمجيده في العهد السوڤيتي .

نظر كل من شوخوف وكيلديفس إلى الآخر : فعلاً ، هكذا أسرع . وأمسك كل بفأسه .

لم ير شوخوف بعد ذلك لا الأفق البعيد حيث تتلألأ أشعة الشمس على الثلج ، ولا كيف خرج المعتقلون من مخابئهم ، وانتشروا في ساحة المعسكر ، بعضهم يحفر الجور ، التي لم ينته منها في الصباح ، وبعضهم الآخر يرفع عوارض الخشب إلى المحترفات . لم يعد شوخوف يرى شيئاً ، إلا جداره ، الممتد من ربطة الخيط يساراً ، حيث يرتفع الجدار أعلى من الخصر ، حتى الزاوية ، يميناً ، حيث يلتقي جداره بجدار كيلديفس ، ويتداخلان .

أوضح شوخوف لسينكا أين عليه أن يزيل الجليد ، وهو أيضاً كان يكشطه بحماس حيناً برأس الفأس ، وحيناً آخر بشفرته .

تتطاير شظايا الجليد حولهم ، مصطدمة بوجوههم بين الحين والآخر .

لقد أدار شوخوف هذا العمل بمهارة حتى من دون تفكير ، بيد أن شعوره وعيناه كانا مع الجدار ، جدار الواجهة الخارجية لمبنى المحطة الحرارية بصفي الطوب من تحت الجليد . هذا الجدار بدأ بناءَه ، قبله ، معماري لا يعرفه شوخوف ، غير متقن لعمله ، أو لنقل مهمل له ، أما شوخوف فيتعامل مع الجدار الآن كأنه جداره الخاص . ها هو الجدار منحن ، هنا ، ولن يكون بالإمكان تسوية أعوجاجه بصف واحد من الطوب ، بل سيتطلب ذلك صفوفاً ثلاثة مع إضافة المزيد من الاسمنت في كلّ مرّة . وها هو الجدار يتحدب إلى الخارج هناك ، ويجب أن يعدل المدماكان التاليان تحدبه .

قسم شوخوف الجدار بعلامات في ذهنه ، محدداً ، إلى أين سيصف الطوب من ناحية عقدة الخيط يساراً ، ومن أين سيرصه سينكا ليصل إلى كيلديفس .

هناك في الزاوية ـ فكّر شوخوف ـ سيكون من المتعذر على كيلديفس انتظار سينكا من دون أن يعينه ، سيرص عنه قليلاً ، وستكون ، هكذا ، الأمور أسهل . ريثما يتدبرون أمرهم مع الزاوية يكون شوخوف قد بنى نصف الحائط ، كي لا تتخلف ثنائيته في الشغل عن ثنائيتهم .

خمّن شوخوف كم من الطوب سيكون عليه أن يرص ، وما أن صعد حملة الطوب إلى أعلى ، حتى صاح بأليوشكا :

ـ إلى هنا ، احملها إليّ ، ضعها هنا!

واصل سينكا تحطيم الجليد ، أما شوخوف فأمسك بالمكنسة المصنوعة من أسلاك معدنية ، وبدأ ، بكلتا يديه ، بجرفها إلى هنا وهناك... ، على طول الحائط ، منظفاً الصف العلوي من الطوب ، ليس كل ما عليه من جليد ، إنما على الأقل تلك العوالق البسيطة المحشورة في الشقوق .

عريف المجموعة صعد ، أيضاً ، إلى أعلى ، وبينما كان شوخوف يكنس بمكنسته قام بدق خشبة القدة في الزاوية . أمّا في زاوية شوخوف وكيلديفس فكانت القدة منصوبة قبل أن يأتي .

ـ هيه ـ صاح باڤلو من تحت ـ أنتم الذين فوق ، أحياء ؟ خذوا الطين .

استدرك شوخوف ، فجأة ، أنه لم يمد الخيط! انشغل عنه . أخذ الخيط وقرر أن يمده ليس لصف واحد ، ولا لصفين ، بل لثلاثة صفوف معاً .

ولكي يسهل الأمر على سينكا يمكنه أن يأخذ عنه جزءاً من الصف الخارجي ، ويترك له قليلاً من الداخلي .

وبينما كان شوخوف يشد الخيط على الحجر العلوي شرح لسينكا ، بالكلمات والاشارات ، أين سيكون عليه أن يشتغل . فهم الأطرش . هز

رأسه ، عاضاً على شفته ، مشيراً بعينيه باتجاه جدار العريف ، بما معناه سنسبقهما ، لن نتخلف عنهما ، وضحك .

وها هم يحملون طينة الاسمنت في الطريق . ستقوم أربعة أزواج بنقل الطينة .

قرر العريف ألا يترك بالقرب من البنّائين أية أجران إسمنت ، فنتيجة تكرار سكب الاسمنت سيتجمد الكثير منه . وهكذا يوصلون الطينة في أجران النقل ، فيأخذها المعماريان منهما ويصبانها مباشرة على الجدار ، وفي هذه الأثناء كي لا يتجمد الحمّالان ، من البرد ، في الأعلى ، يقومان برفع الطوب إلى فوق . وما أن يفرغ جرنهما ، حتى يأتي اثنان آخران بجرن جديد ، وعندئذ ينزل هذان إلى تحت في الحال . هناك ، في الداخل يحاولون تذويب الاسمنت المتجلد على الجرن ، بما يتيح لهم الوقت .

جاؤوا بجرنين معاً ، واحد إلى جدار كيلديفس ، وآخر إلى جدار شوخوف .

يتصاعد البخار من الاسمنت في الصقيع ، يدخّن ، مع أن الدفء فيه قليل . تلطمه بمسطرينك على الجدار ، وتتثاءَب وإذا به يابس . جرّب أن تضربه بعد ذلك بالفأس أو بالمسطرين ، فلن ينكسر . وإذا وضعت الطوبة بوضع منحرف قليلاً . تجلدت في وضعها وبقيت منحرفة ، فلن تستطيع نزعها إلا برأس الفأس ، ولن تتمكن من فصل الاسمنت عنها إلا بالفأس أيضاً .

لكن شوخوف لا يخطئ . الطوب ليس متماثلاً ، الواحدة ليست كالأخرى ، فتلك مكسورة الزاوية ، وأخرى مترقرقة ، وثالثة مبعوجة... وهذه وتلك يراها شوخوف في الحال ، ويرى كلاً منها في أي مكان تريد أن ترقد ، ويرى ذلك المكان في الجدار ، الذي ينتظر هذه الطوبات دون غيرها .

يمسك شوخوف بالمسطرين ، وينقل بواسطتها الاسمنت الذي تتصاعد منه الأبخرة إلى الجدار ، محتفظاً في ذهنه بمكان اتصال الطوبتين ، لكي تأتي التالية في مكانها الصحيح . ينقل من الاسمنت ذلك المقدار الكافي للطوبة الواحدة تماماً ، ويمد يده آخذاً واحدة من كومة الطوب . لكنه يمسك بها بحذر ، خشية أن يمزق قفازه ، فهي يمكن أن تجرحه بصورة مؤلمة . يسوي بعد ذلك طينة الاسمنت بالمسطرين ، ويخبط الطوبة التي بيده هناك! ثم يدقها بمقبض المسطرين لتستقر في وضعها الصحيح ، لكي تكون واجهة الجدار منتصبة على الشاقول ، ممتدة على الزئبق . وها هي الطوبة تعلق في مكانها ، تتجمد .

وبعد ، فما اندفع من الطينة خارجاً من تحتها ، يجب نزعه ، بالمسطرين ، عن الجدار في الحال . لو كان الوقت صيفاً لأمكن وضعه تحت الطوبة التالية ، أمّا الآن فلا تشغل بالك بهذا اللا ممكن . بعد ذلك يجب معاينة الفراغات بين الطوبة وجاراتها . يحصل أن تكون الواحدة منها غير كاملة ، شقفة ما مكسورة من هنا أو هناك ، يجب عندئذ ملء الفراغ بالاسمنت . وحين تكون الطوبة مائلة ، ويجب تسميك الطينة تحت جانبها الأيسر ، لا يضعها شوخوف كغيرها ببساطة ، بل يقوم بسحبها من جهة اليمين إلى اليسار لتجرف معها الطين الزائد وتحشره بينها وبين جارتها اليسرى . عين على الشاقول وأخرى على ميزان الزئبق .

مضبوطة ، إذن ، إلى التالية!

انطلق العمل . نعمّر صفين ، ونسوي أخطاء السابقين ، وهكذا تسير الأمور بيسر أكبر . أما الآن فاعمل بمزيد من الانتباه!

راح شوخوف يتابع رص الطوب في الصف الخارجي للحائط بملاقاة سينكا .

سينكا ، أيضاً ، ابتعد عن العريف وراح يجد بملاقاة شوخوف .

أشار شوخوف إلى حَمَلة طينة الاسمنت ، أن ضعوا الطينة تحت أيدينا ، بهمة هنا ، هيّا!

هكذا اندفع العمل ، لا وقت لدى الواحد منهم ليمسح أنفه .

ما أن التقى شوخوف وسينكا حتى صارا يغرفان الطينة من الجرن ذاته ، وبدأت مسطرينتاهما تصدران صريراً فيه .

ـ طينة! يصيح شوخوف من وراء الجدار .

ـ اعطوه! يصيح باڤلو .

جاء الحمالون بالطينة ، غرفوا منها ما كان طرياً ، فقد جمد الاسمنت على جدران الجرن . اقحفوه بأنفسكم! سيزداد سماكة ، فأنتم الذين تحملونه إلى أعلى وأسفل . هيّا صبوا الثاني .

لم يعد شوخوف والبناؤون الآخرون يشعرون بقرس البرد . حتى إنهم في حمية العمل اجتاحتهم موجة دفء ، ذلك الدفء الذي ينبثق معه العرق تحت القميص الداخلي والقمصلة ، وسترة القطن والجلد... ومع هذا لا يتوقفون للحظة واحدة ، بل يتابعون بناء الجدران أعلى ، فأعلى .

بمرور ساعة من العمل اجتاحتهم موجة دفء أخرى جففت عرقهم . لم يطل الزمهرير أقدامهم ، وهذا أهم ما في الأمر ، فكل ما عداه لا يهم ، وحتى الريح الباردة التي تسفعهم لم تكن لتشغلهم عن عملهم .

كليفشين ، فقط ، كان يضرب قدماً بالأخرى ، فنمرة قدم هذا التيس ست وأربعون ، بحثوا له عن جزمة ، وأعطوه فردتين من زوجين مختلفين ، ضيقتين على رجليه .

العريف ، بين الفينة والأخرى ، يصيح «طينة!» ، وشوخوف من جهة أخرى «طينة!» كأنما الذي ينجز عمله بهمة أكبر يصبح عريفا على جيرانه! كان شوخوف لا يريد أن يتأخر عن جيرانه ، ولذلك بدا متحمساً ، جاهزاً لأن يدفع بأخيه ، إلى هنا ، ليزوده بطينة الاسمنت الآن .

مذ بدؤوا بالشغل بعد الغداء كان بوينوفسكي ينقل الاسمنت مع فيتيوكوف ، لكنه في البداية تعثر ، ولم يتمكن من مواكبة سرعة شوخوف ، فدفعه الأخير برفق ليزيد من سرعته .

ـ هيا اسرع أيها المقدم! احضر الطوب! ومع كل حمل جديد كانت تزداد سرعة المقدم أكثر فأكثر ، بينما فيتيوكوف يزداد كسلاً

ابن الكلبة هذا يمشي وهو يميل الجرن لينسكب منه الاسمنت على الطريق ويصبح أخف .

لكزه شوخوف في ظهره :

ـ دمك دم حقير! وكنتَ مديراً أيضاً ، وكنت ، من دون شك ، تضغط على العمّال! ؟

ـ أيها العريف! ـ يصيح المقدم ـ شغلني مع واحد آخر! لن أعمل مع هذا المند...!

أجرى العريف تبديلاً : فيتيوكوف يرفع الطوب من تحت ، ويعمل بمفرده ، ليكون بالإمكان عد الطوبات التي ينقلها ، أمّا أليوشكا الانجيلي ، فيعمل مع المقدم .

اليوشكا ، هادئ ، مسالم ، لا يتوانى عن توجيه الأوامر إليه ، إلا من لا يرغب بذلك .

ـ عجِّل ، أيها البحّار الغرّ! ـ أوعز إليه المقدم البحري ـ ألا ترى كيف يعمرّون هناك .

يبتسم اليوشكا ابتسامة مسالمة :

ـ إذا كان المطلوب أن نعمل أسرع ، فهيا لنعمل أسرع ، كما تأمرون .

ثم نزلا إلى أسفل .

جو العمل هادئ .

صاح العريف لواحد ما تحت . يبدو أن سيارة أخرى محمّلة بالطوب وصلت . إمّا أنهم لا يجلبون حجراً واحداً نصف عام ، أو يتدفقون كما ترى . سيستمر العمل على هذه الشاكلة ما داموا ينقلون الطوب . ولكن هذا هو اليوم الأول ، أما بعد ذلك ، فلن يكون علينا ، ببساطة ، أن نركض بهذا الشكل .

هناك في الأسفل ، يتابع العريف توجيه اللعنات ، يبدو أن ذلك يتعلق بالرافعة . تمنى شوخوف لو يعرف ما يدور هناك ، ولكن لا وقت لديه ، فهو مشغول بتسوية الجدار . وصل نقالا الطينة وقصا عليه الحكاية : جاء الكهربائي لاصلاح محرك الرافعة ومعه المشرف على الأعمال الكهربائية والأخير موظف حر . الكهربائي يفحص ، ويبحث ، والمشرف ينظر ويتفرج .

هذا وفق الأصول : واحد يعمل ، وواحد يراقبه . لو أنهم يصلحون الرافعة الآن ، لكان بالإمكان رفع الطوب والاسمنت بواسطتها!

ها هو شوخوف ينهي رص الصف الثالث من الطوب ، وها هو كيلديفس

يبدأ برص الثالث أيضاً ، وإذا بمراقب آخر ، مشرف آخر ، رئيس فريق البنائين ، المعتقل دير ـ الذي من موسكو ، يصعد خشبات الجسر . يقولون إنه كان يعمل في الوزارة .

وقف شوخوف بالقرب من كيلديفس وأشار باتجاه دير :

ـ آ ، ها! ـ أشاح كيلديفس بيده ـ أنا ، لا علاقة لي بالإدارة . عندما يسقط عن السقالة نادني ، سآتي .

سيقف دير خلف البنائين ، ويراقب عملهم . هؤلاء المراقبون بالذات لا يطيق شوخوف رؤيتهم أبداً . بوز الخنزير هذا يحشر نفسه في الهندسة . في إحدى المرات راح يشرح لشوخوف كيف عليه أن يرص الطوب ، فضحك شوخوف ملء فمه . قناعتنا تقول : ابن بيديك بيتاً واحداً ، تصبح بعده مهندساً .

لم يكونوا يعرفون البيوت الحجرية في تيمغنيوف ، فبيوتهم عبارة عن أكواخ من الخشب . والمدرسة هناك مبنية من الخشب أيضاً .

قطعوا هناك ، حتى من المحميّة ، ست ساجينات* من الخشب . أمّا هنا في المعتقل فيحتاجون إلى بنّائي حجر ، وشوخوف ذلك البنّاء الذي تريد . من يتقن حرفتين ، يمكنه أن يتدبر أمره بعشرة أخرى .

لا ، لم يسقط دير عن السقالة . هو تأرجح مرّة واحدة فقط ، ثم أسرع إلى فوق شبه راكض :

ـ تيورين! ـ صاح جاحظاً عينيه ـ يا تيورين!

---

* ساجين = وحدة روسية لقياس الطول تعادل ثلاثة أرشينات أو سبعة أقدام ، وتساوي ٢,١٣٣٦ متر .

أما تيورين ، فكان يلحق بـه على السقالة ، مسرع الخطو ، حاملاً بيده معولاً .

دير يرتدي معطف معتقلين ، ولكن معطفه جديد ، ونظيف ، وقبعته ممتازة ، مصنوعة من الجلد ، إنما كتب عليها رقم كما لدى الجميع : ب ٧٣١ .

ـ ما الأمر ؟ تساءَل تيورين ، متجهاً صوبه والمسطرين في يده .

مالت قبعة العريف إلى الجانب ، مغطية إحدى عينيه .

شيء ما يدور هناك ، لا يجوز ، من جهة ، سرقة ، ومن جهة أخرى ، طينة الاسمنت تتجمد... وهكذا راح شوخوف يرص الطوب وكُلّه آذان صاغية .

ـ أهذا معقول ؟ ـ يصيح دير ، ويتطاير البصاق من فمه ـ هذه تنتهي بالزنزانة! هذه جريمة ، ستحصل على حكم ثالث يا تيورين ، أتفهم!

التمعت المشكلة في ذهن شوخوف ، فنظر إلى كيلديفس ، وكيلديفس بدوره فهم ماهية الأمر . المشكلة في الورق المقطرن ، الورق... رآه دير على النوافذ .

لا يخاف شوخوف على نفسه ، على الاطلاق ، فالعريف لن يشي به ، بل هو يخاف على العريف . بالنسبة لنا العريف أب ، أما بالنسبة لهم ، فلا أكثر من بيدق . ويمكن أن يضاعفوا ، فعلاً مدة اعتقال العريف في الشمال ، على مثل هذا التصرف .

(يا لطيف) كيف تصعرّ وجه العريف! وكيف ألقى بالمسطرين تحت قدميه! وكيف اندفع باتجاه دير!

تلفت دير... ها هو باڤلو قادم من تحت يحمل بيده معولاً . هذا المعول ، هذا المعول ، لم يلتقطه باڤلو عبثاً ، ويصعد به... وسينكا ، أيضاً ، رغم طرشه ، فهم ، وتقدم واضعاً يديه في خصره . سينكا هذا عفريت غابة عملاق .

رف دير عينيه ، اضطرب ، راح يبحث عن زاوية خامسة يهرب منها .

مال العريف بجسده على دير ، وقال له بصوت هادئ تماماً ، ولكنه مسموع جيداً ، هنا في الأعلى :

ـ ولّى زمنكم ، أيها الوباء ، زمن مضاعفة الأحكام! إذا ما نطقت بكلمة واحدة يا مصاص الدماء ، سيكون آخر يوم في حياتك ، تذكّر جيداً!

اجتاحت العريف موجة غضب ، هزّته ، ولم يقدر أن يهدأ أبداً .

نظر باڤلو حاد القسمات ، نظرة حادّة إلى دير ، يذبحه بعينيه .

ـ ما بكم يا شباب ، ما بكم! شحب وجه دير وتراجع مبتعداً عن السقالة .

لم يقل له العريف بعد ذلك شيئاً ، بل عدّل قبعته ، رفع مسطرينه عن الأرض ، وعاد إلى جداره .

باڤلو أيضاً نزل بهدوء مع معوله إلى أسفل ، بـ... هـ... د ... و... ء هكذا... هذا هو ، إذن ، دم هؤلاء المذبوحين ، اذبح ثلاثة ، ولن تعرف بعد ذلك المعتقل .

لا يدري دير ماذا يفعل ، البقاء هنا يرعبه ، والنزول يرعبه أيضاً . التجأ خلف ظهر كيلديفس ليختبئ . أما كيلديفس فتابع رص الطوب بأناة ، كما يزنون جرعات الدواء في الصيدلية ، فالطبيب لا يستعجل أبداً... تابع رص الطوب ، مديراً ظهره إلى دير كما لو أنه لا يراه .

تسلل دير باتجاه العريف . أين ولّت تلك الثقة بالنفس!

ـ وماذا ، إذن ، ما الذي أقوله للمشرف يا تيورين ؟

يتابع العريف رص الطوب ، لا يلتفت نحو دير :

ـ قل له ،هكذا كانت قبل أن يأتوا ، جاؤوا ورأوها على هذه الحال .

بقي دير في مكانه قليلاً من الوقت . فهم أنهم لن يقتلوه الآن ، تمشى بهدوء ، واضعاً يديه في جيبه .

ـ إي ، أنت ٨٥٤ ـ همهم دير ـ لماذا طينتك رقيقة إلى هذه الدرجة ؟

كان يجب أن (يتمرجل) على أحد ما ليعيد لنفسه الاعتبار ، وليس لدى شوخوف ما يعترض عليه لا بالمستوى ، ولا بالشاقول ، فلتكن ، إذن ، الطينة رقيقة .

ـ دعوني أوضح لكم ـ أجابه شوخوف بصوت منخفض مطعمّ بالسخرية ـ لو أنني أضع الآن طبقة سميكة من الاسمنت ، سينسكب الماء في المحطة ، في الربيع من كل الجهات .

ـ أنت (معمرجي) فاصغ إلى ما يقوله لك رئيس الفرقة . تشجع دير ونفخ خديه كعادته .

ربما يكون الاسمنت في بعض الأماكن رقيقاً ، بالفعل ، وبحاجة إلى التسميك ، ولكن هذا إذا كنت لا تبني في زمهرير الشتاء ، بل في ظروف عمل إنسانية . رحمة الناس أيضاً واجبة ، كم يتوجب تحقيق الخطة... ولكن ما جدوى أن تشرح لواحد لا يفهم!

سار دير على السقالة بخطا وئيدة .

ـ أي ، أنتم اصلحوا الرافعة! ـ أطلق العريف كلماته في أثره ـ وهل نحن حمير حتى نرفع الطوب على اكتافنا! ؟

ـ إنهم يأخذون لك رفعه بالحسبان . أجاب دير ، ولكن بهدوء .

ـ بالعربات ؟ أرني رجولتك ، خذ عربة وكرّجها على السقالة! أحسبوها لنا «على النقالات!»

ـ وما لي أنا ؟ المحاسبة هي التي لا تعدّها «على النقالات»

ـ المحاسبة! المجموعة كلها عندي تعمل لكي يتمكن أربعة من البناء ، فكم سأتمكن من الإنجاز ، هل لك أن تقول لي ؟

يصيح العريف دون أن يتوقف عن البناء .

ـ طينة! يصيح إلى من في الأسفل .

ـ طينة! يتناولها شوخوف .

جميعهم وصلوا إلى المدماك الثالث ، وها هم يبدؤون بالرابع . لو كان هناك خيط يمده للرابع . ولكن لا بأس ، يمكن رص صف واحد حتى من دون خيط .

عاد دير أدراجه ، ملموم الكتفين ، عبر الأرض المغطاة بالثلج ، إلى برّاكة الإدارة ليتدفأ ، وهو ليس في أحسن حال ، إنما هذا ذنبه ، فقد كان عليه أن يفكر جيداً قبل أن يتوجه إلى ذئب مثل تيورين .

لو أن دير يتصادق مع أمثال هؤلاء العرفاء ، لما حدثت مشاكل : ما الذي يخزه ؟ حصته من الطعام كبيرة ، ويعيش في مكتب مستقل... فما الذي يريده ، أكثر من ذلك ؟! عقله هو الذي يخزه .

جاؤوا من الأسفل ، وقالوا : ذهب المشرف إلى الكهربائيين ، وعامل الإصلاح ذهب أيضاً ، وهم لا يستطيعون إصلاح الرافعة .

يعني ، لنعمل كالحمير!

كم رأى شوخوف من صنوف الأعمال! هذه الآلة ، إما أن تتعطل لوحدها ، أو أن المعتقلين يعطلونها بأيديهم . لقد عطّلوا رافعة الأخشاب . وضعوا عصا في السلسلة وضغطوا عليها لتنقطع السلسلة كي يستريحوا . يقولون لهم رتبوا الأخشاب واحدة فوق الأخرى ، إذن ، فلا فسحة ليأخذ المعتقل نفساً .

ـ طوب ، طوب . يصيح العريف ، وقد عاد إلى طبيعته يسب من يلقي بالطوب ، ويشتم من يحمله .

ـ باڤلو يسأل ، ماذا عن الطينة ؟ يضجّون في الأسفل .

ـ هل يجبلون ؟ ماذا قلت ؟

ـ لدينا نصف جرن مجبول!

ـ يعني ، يجب جبل جرن آخر!

هكذا يكون الشغل! ها هم يرصون المدماك الخامس . منذ قليل كانوا ينحنون فوق الأول وها هم يرصون على مستوى صدورهم! ما الذي يمنعهم من السرعة! لا نوافذ ، ولا أبواب ، جدران صماء ، حجر على حجر . كان يجب مد الخيط ، لكن الآوان قد فات .

ـ الـ ٨٢ ، ذهبت لتسلّم أدواتها . أخبرهم غوبتشيك .

أدار العريف عينيه ، فحسب ، باتجاهه :

ـ اعرف عملك ، يا رأس الفطر! انقل طوب ، هيّا!

التفت شوخوف . كانت الشمس تنزلق وراء الأفق ، ومع حمرة الغروب تبدو العتمة دكناء ، لقد اشتغلوا بأفضل ما يمكن ، وها هم يعمرون في المدماك الخامس ، وينتهون منه ، ويسوونه .

النقالون كالخيول يلهثون ، حتى أن لون المقدم صار رمادياً . عمر هذا المقدم أربعون ، ربما ليس أربعين ، بل حوالي الأربعين .

البرد يجمع المزيد من درجات تحت الصفر . الأيدي تعمل ، أمّا الأصابع فتشعر بالوخز داخل القفازات الرقيقة . وفي فردة جزمة شوخوف اليسرى يعمل الصقيع عمله ، فيخبط شوخوف قدمه هذه طب ، طب .

لم تعد هناك حاجة للانحناء فوق الجدار ، إنما عليك الآن أن تكسر ظهرك لترفع الطوب عن الأرض ، ليس فقط ، بل ولتأخذ مسطرين اسمنت من أجلها .

ـ شباب ، يا شباب! ـ حثهم شوخوف ـ لو أنكم تضعون الطوب على الحائط مباشرة .

كان المقدم يتمنى لو يفعل ذلك ، ولكن لا عزم لديه . لم يتعود على هذه الأشغال . فماذا يقال عن أليوشكا :

ـ ليكن ، يا إيفان دينيسيتش . قل لي فقط أين أضعها .

لا يرفض هذا الأليوشكا رجاء لأحد مهما كان . لو أن جميع الناس كانوا مثله لكان شوخوف كذلك أيضاً . إذا كان الشخص يرجوك فلماذا لا تحاول ؟ هذا هو مبدؤهم .

اجتاح ارجاء المعسكر ، واصلاً حتى مبنى المحطة ، صوت الطرق على

سكة حديد ، إيذاناً بنهاية يوم العمل . هيّا إلى الطينة أسرع فأسرع ما يزال هناك إسمنت مجبول!...

ـ هاتوا طينة! هاتوا طينة! ـ يصيح العريف .

كانوا قد جاؤوا للتو بجرن ملآن ، يجب إذن أن يتابعوا البناء فلا يجوز ترك الاسمنت يجف فإذا لم يفرغوا هذا الجرن اليوم ، فغداً حطّمه وإلى الشيطان ، يتحجرَ الاسمنت ، ولن تستطيع إزالته حتى بالمعول .

ـ هيا يا أخوان ، لا تغضبوا! يناديهم شوخوف .

صار كيلديفس مغضباً ، فهو لا يحب الاستعجال . يقول إنهم ، هناك ، في لاتڤيا يعملون بهدوء ، وكلهم أغنياء ، ومع إنه مغضب يكد مع زملائه ، فلا بد من مجاراتهم .

من تحت ، جاء باڤلو أيضاً ، راكضاً يحمل بيده المسطرين ، وإلى الطينة ، وراح يعمر معهم . خمسة يرصون الطوب معاً .

بقي عليهم أن يعالجوا ملتقى الطوب مع بعضه بعضاً! عاين شوخوف ، مقدماً ، أية طوبة سيضع في مكان الالتقاء ، وراح اليوشكا يرصها بمطرقته :

ـ دقّها ، دقّها لي .

مع السرعة ، لا يكون العمل متقناً . أمّا الآن فبعد أن أخذت العجالة الجميع ، بدأ شوخوف بالتركيز ، وارح يعاين الجدار . رأى أن الجدار يندفع من جهة سينكا إلى اليسار ، ومن جهته هو إلى اليمين ، باتجاه زاوية المبنى ، وإذا ما ترك ، الآن ، على هذه الحال ، أو أصابه شيء انهار ، وسيكون علينا غداً أن نعمل عليه نصف نهار .

ـ توقف! ـ دفع شوخوف بباڤلو عن الطوبة ، وصار يرصها بنفسه ـ انظر

هناك في الزاوية ، يبدو لي أن هناك انحناء ، عند سينكا ، في الجدار . ثم توجه إلى سينكا حاملاً طوبتين .

وضع المقدم جرن الاسمنت ، راضياً ، مطيعاً .

ـ ما يزال هناك ـ يقول ـ جرنان ، اثنان!

إنه يكاد لا يقوى على الوقوف ، ومع ذلك يغالب إنهاكه ويعمل .

كان مع شوخوف ، قبل الكولخوز ، رجلٌ مطيع كالمقدم ، وكان شوخوف يصونه ويرعاه ، ولكن الآخرين لم يراعوه ، بل سلخوا جلده .

غابت الشمس وراء الأفق ، اختفت تماماً . بات ، الآن ، واضحاً حتى من دون أن يقول غوبتشيك إن المجموعات كلها سلّمت أدواتها ، بل وتدافعت باتجاه بوابة المعسكر . لا أحد يخرج بعد منبه الانتهاء مباشرة ، أي أحمق يخرج ليتصقع هناك! فالجميع يلجؤون إلى المباني للاحتماء من البرد ، لكن لحظة تأتي ، حين يتفق العرفاء ، ويخرجون مجموعاتهم دفعة واحدة . إذا لم يتفقوا ، فإن هؤلاء المعتقلين عنادهم أصم ، سيجلسون هنا حتى منتصف الليل .

جاءت تلك اللحظة حين ثاب العريف إلى نفسه أيضاً ، فلقد تأخروا أكثر مما يجب ، ستطاله من أمين مستودع المعدات عشر مسبات قاذعات على الأقل .

ـ إخ ـ صاح العريف ـ لا أسف على الخراء! ـ انزلوا يا عتالة ، نظّفوا جرن الاسمنت الكبير ، وخذوا كل ما فيه من اسمنت إلى تلك الحفرة ، هاكها ، وغطوه من الأعلى بالثلج ، كي لا يراه أحد! وأنت ، يا باڤلو ، خذ اثنين معك ، واجمع المعدات من الشباب ، وسلّمها . سأرسل لك هذه

المسطرينات الثلاث مع غوبتشيك حين ننتهي من هذين الجرنين . انطلقوا ، انتزعوا من شوخوف فأسه ، فكوا الخيط . أسرع عتالة الطينة والطوب إلى الصالة ، لم يعد لديهم عمل هنا .

بقي في الأعلى ثلاثة بنائين هم كيلديفس ، وكليفشين ، وشوخوف .

سار العريف ، ناظراً إلى ما أنجزوه اليوم ، وهو راضٍ .

ـ أنجزنا ما ليس بالقليل ، آ ؟ خلال نصف يوم فقط ، ومن دون رافعة ، ومن دون أير .

نظر شوخوف فرأى في جرن كيلديفس القليل من الاسمنت ، فتحسّر لو أنهم لا يؤنبون العريف في المستودعات على هذه المسطرينات :

ـ اسمعوا يا شباب ـ وجدها شوخوف ـ سلّموا المسطرينات لغوبتشيك ، أمّا مسطريني التعيس ، فليس بالضرورة أن اسلّمه ، آخذه فيما بعد .

ضحك العريف .

ـ كيف سيطلقون سراحك من المعتقل ؟ من دونك سيذرف المعتقل الدموع!

ضحك شوخوف ، أيضاً ، وتابع رص الطوب .

أخذ كيلديفس المسطرينات . ناول سينكا شوخوف الطوب ، أمّا الطينة التي كانت في جرن كيلديفس ، فنقلوها إلى شوخوف .

ركض غوبتشيك على امتداد ساحة المعسكر للحاق بباڤلو إلى المستودع .

كانت الـ ١٠٤ تسير في الساحة من دون عريفها . العريف سلطة ، لكن الحرّاس سلطة أقوى ، يسجّلون أسماء المتخلفين ، وإلى الزانزنة .

اكتظ حشد المعتقلين المتوعّد عند البوابة . تجمهر الجميع هناك . يبدو أن جنود الحراسة خرجوا أيضاً لإجراء التفقد .

يتفقدون المعتقلين مرتين عند الخروج : مرّة قبل فتح البوابة ليتأكدوا أن بإمكانهم فتحها ، ومرّة ثانية أثناء خروج المعتقلين منها ، ليتأكدوا من أن الجميع خرجوا ، أما إذا تراءى لهم بأن خللاً ما حصل ، فيتفقدونهم مرّة ثالثة بعد الخروج .

ـ إخ ، لو ألطمه بطينة الاسمنت في وجهه! ـ يلوح العريف بقضيبه ـ ألقي به من فوق الجدار!

ـ اذهب ، يا عريف ، اذهب! وجودك هناك ضروري! ـ في العادة يخاطبه شوخوف بأندريه بروكوفيثيتش ، ولكنه الآن تساوى مع العريف بعمله . هو لا يفكر بهذه الطريقة (ها أنا تساويت مع العريف) ، ولكنه ببساطة يشعر بذلك في قرارة نفسه .

يمزح شوخوف في أثر العريف المنطلق على السقالة بخطوة واسعة :

ـ يا لحقارة الزمن! ما أقصر يوم العمل ، لا تكاد تحمى حتى ينتهي!

بقي شوخوف والأطرش وحيدين . لن يتحادث كثيراً معه ، ولا حاجة به إلى ذلك ، فهو أذكى من الجميع ، ويفهم من دون كلام .

شلوب... طينة! شلوب... طوبة!... طين ، طوب ، طين ، طوب... رصّ ، دقّه... ألم يقل العريف لا أسف على الطينة ، ألقوا بها وراء الجدار ، وانصرفوا . لكن شوخوف مصرّ على هذه الحماقة ، ولا يمكن في حال من الأحوال أن تحيده

عما تربى عليه : يحرص على كل شيء ، وعلى كل ما يفعل ، حرصاً شديداً ، حتى لا تضيع أصغر الأشياء طين ، طوب ، طين ، طوب...

ـ انتهينا... أُمّك ، هيا بنا! ـ صاح سينكا ـ هيا . ثم خطف جرن الطين وولى مسرعاً . أمّا شوخوف ، فحتى لو مزقه الحرس بأنياب الكلاب الآن ، لا يمكن إلا أن يرجع إلى طرف السقالة ليتفقد الجدار ، لا بأس .

والآن ، فقط ، بدأ النزول ، وعينه على الجدار من جهة اليمين ، ومن جهة اليسار ، كالشاقول! مضبوط! لم تعجز يده بعد .

أسرع شوخوف نازلاً عن السقالة ، بينما كان سينكا يخرج من صالة الجبْل راكضاً باتجاه البوابة .

ـ هيا ، هيا! صاح ملتفتاً صوب شوخوف ، لاهثاً .

ـ اركض ، لا عليك! سآتي ، الآن . أجابه شوخوف وهو يتجه نحو الصالة ، فلن يترك مسطرينه أينما كان . فربما لا يخرج شوخوف إلى العمل غداً ، أو ربما يأخذون مجموعتهم غداً للعمل في «المدينة الاشتراكية» ، وربما لا يعود إلى هنا قبل نصف عام من الآن . عندئذ سيفقد المسطرين... يفقده ، يعني ، يفقده!

في الصالة كانت المدفأتان مطفأتين ، وفي الداخل عتم ، يقشعر البدن له . ليست الظلمة هي المخيفة ، بل المخيف أن الجميع خرجوا من هنا ، وعند إجراء التفقد ، سينقص العدد واحداً ، وسينهال عليه الحراس بالضرب على ذلك . ليكن فلن يخرج قبل أن يخبئ المسطرين .

خلع حجراً كبيراً من الزاوية . وضع المسطرين تحته ، وغطّاه! كل شيء تمام الآن ، ولم يعد عليه إلا أن يسرع ليلحق بسينكا .

كان سينكا قد قطع حوالي مائة خطوة وتوقف . إن كليفشين هذا لا يتخلى عن أحد في مصيبته ، أبداً ، إذا كان هناك ثمن ، فليدفعاه معاً .

ركضا معاً ، جنباً إلى جنب ، الطويل والقصير . كان سينكا أطول من شوخوف برأس ونصف ، حتى أن رأسه يبدو مشوهاً من شدة ما هو كبير .

هناك (عواطليون) يركضون حول الملاعب بإرادتهم . فليجرّبوا الركض هنا بعد يوم عمل كامل ، بظهر لم يستقم بعد ، وبقفازين مبللين ، وبجزمة لباد بالية ، وفي مثل هذا الزمهرير .

إنهما يلهثان كما تلهث الكلاب ، وليس من صوت آخر غير صوت أنفاسهم : كخي ، كخي ، خي... على أية حال ، العريف هناك على البوابة يوضح لهم الأمر .

إنهما يركضان باتجاه حشد المعتقلين مباشرة ، إنه لأمر مخيف .

مئات الحناجر صاحت معاً تصب ما لديها في أميهما وفي أبيهما ، وفي فميهما ، وفي أنفيهما ، وفي أضلاعهما... حين يفتح خمسمائة إنسان أبواقهم عليك ، أليس هذا بمخيف! لكن ليس هذا هو المهم ، فالمهم ردة فعل جنود الحراسة .

لا ، بالنسبة للحراس ليست مشكلة . فالعريف هنا أيضاً في الصف الأخير ، وقد شرح لهم الأمر ، أي أخذ الأمر على عاتقه . أمّا المعتقلون فيصيحون ويشتمون .

يصيحون ويسبون بصوت مرتفع حتى إن سينكا الأطرش سمع الكثير مما قالوه ، والآن سحب نفساً عميقاً ، وانطلق من عليائه هادراً... هو الذي يمضي حياته صامتاً ، رفع قبضتيه ونزل إلى العراك .

صمتوا . راح البعض هنا وهناك يضحكون :

ـ هيه ، يا جماعة الـ ١٠٤ صاحبكم ليس أطرش ، لقد تحققنا من الأمر .

ضحك الجميع ، وجنود الحراسة أيضاً .

ـ اصطفوا خمسة ، خمسة!

لكنهم لا يفتحون البوّابة . إنهم لا يصدقون أنفسهم .

دفعوا بالحشد بعيداً عن البوابة . التصق المعتقلون بها كالبلهاء ، كما لو أنهم سيخرجون أسرع إن فعلوا ذلك .

ـ اصطفوا خمسات : الأولى ، الثانية ، الثالثة...

وكلما سمّوا خمسة ، تتقدم إلى الأمام عدة خطوات .

استعاد شوخوف أنفاسه ، تلفت حوله ، هاهو القمر أحمر يخرج إلى السماء متجهماً ، ولكنه يتجه إلى النقصان فقد فَقَدَ من قرصه القليل . البارحة في مثل هذا الوقت كان القمر في مكان أعلى من قبة السماء .

فرح شوخوف لأن كل شيء مر بسلام ، لكز المقدم في جنبه ، وطرح عليه سؤالاً :

ـ اسمع أيها المقدم ، بعلمكم أنتم ، إلى أين يذهب القمر العجوز ؟

ـ كيف ، إلى أين ؟ يا للجهل ، هو فقط يصبح غير مرئي!

هز شوخوف رأسه ضاحكاً :

ـ إذا كنت لا تراه ، فما أدراك بأنه موجود ؟

ـ يعني ، أنت تفكر ـ استغرب المقدم ـ بأن قمراً جديداً يأتي كل شهر ؟

ـ وما العجيب في ذلك ؟ ها هم الناس يولدون كل يوم ، فماذا لو ولد قمر كل أربعة أسابيع ؟

ـ تفوو ـ بصق المقدم ـ أنا لم ألتق في حياتي جندياً مسطولاً مثلك ، فإلى أين ، إذاً ، يذهب القمر القديم ؟

ـ أنا الذي أسألك ، إلى أين ؟ فغر شوخوف فمه .

ـ فإلى أين ، إذن ؟

تنهّد شوخوف ، وراح يخبره بلكنة خفيفة :

ـ يقولون عندنا التالي : القمر القديم يكسّره الله ، ويحوله إلى نجوم .

ـ يا لكم من همج ـ يضحك المقدم ـ لم أسمع بهذا في حياتي ، وهل أنت تؤمن بالله يا شوخوف ؟

ـ كيف ؟ ـ دهش شوخوف ـ عندما ترعد السّماء ، جرّب ألا تؤمن .

ـ ولماذا يقسّمه الله ؟

ـ ماذا ؟

ـ القمر ، إلى نجوم ، لماذا يقسّمه الله ؟

ـ عجيب ، ما الذي لا تفهمه هنا! ـ لمّ شوخوف كتفيه ـ النجوم تسقط مع الوقت ، ويجب تعويضها .

ـ انتبه... في أمك ـ يصيح جندي الحراسة ـ هيا!

وصل الدور إليهم ، مرّت الخمسة رقم خمسمائة واثنتي عشرة ، بقي في النسق الأخير بوينوفسكي وشوخوف .

استاء الحارس ، دفعهما بخشبة العد . لم يبق إلا هذا ، لو أنهم يجيدون العد ، هؤلاء الكلاب!

عدّوا أربعمائة واثنتين وستين ، إنما حسب الأرقام التي لديهم ، يجب أن يكون هناك أربعمائة وثلاث وستون .

دفعوا الجميع ، من جديد ، عن البوّابة . وعاد الجميع ليتزاحموا عند البوابة ، وعادت الكرّة :

ـ اصطفو خمسات! الأولى ، الثانية!

ما يغيظ في تفقداتهم هذه ، أن الوقت الذي تستهلكه ليس حكومياً ، بل وقتاً خاصاً . سيكون عليهم أيضاً بعد ذلك أن ينطلقوا ويجتازوا السهب أن يتوقفوا عند بوابة المعتقل للتفتيش!

يتزاحم المعتقلون ، يتسابقون للاصطفاف قبل بعضهم بعضاً للخلاص من التفتيش هناك ، باكراً ، لأن هذا يعني الدخول إلى المعتقل قبل الآخرين . الذي يدخل المعتقل قبلاً يسلطن :

سيكون المطعم بانتظاره قبل غيره ، سيكون الأول عند استلام الطرود ، والأول في الأمانات ، والأول في المطبخ الإفرادي ، والأول في قسم التوجيه السياسي لاستلام الرسائل أو تسليمها للرقابة ، وسيكون الأول في المستوصف ، وفي صالون الحلاقة ، وفي الحمّام... في كل مكان سيكون الأول .

وجنود الحراسة . أيضاً ، يتمنون لو يسلموننا ، ويرتاحون منا بأقصى

سرعة ، ليخلوا إلى أنفسهم في المعتقل ، فالخفير أيضاً لا يجد وقتاً للراحة ، عمله كثير والوقت قصير .

إنما العدد غير مطابق .

ما أن انتهوا من تمرير الخمسة الأخيرة ، حتى تراءى لشوخوف أن ثلاثة يجب أن يكونوا في النسق الأخير ، ولا يوجد إلا اثنين!

يتجه جنود الحراسة إلى قائدهم مع ألواح العد . يحسبون العدد . يصيح قائد الحرس :

ـ عريف الـ ١٠٤ .

يخطو تيورين نصف خطوة خارج الصف :

ـ حاضر!

ـ ألم يبق أحد من جماعتك في مبنى المحطة ؟ فكّر

ـ لا!

ـ فكّر جيداً ، وإلا قطعت رأسك!

كان تيورين يحوّل نظره باتجاه باڤلو ، متسائلاً ، أو لم يغف أحدهم هناك في الصالة ؟

ـ انفصلوا إلى مجموعات! . يصيح قائد الحرس .

كانوا يقفون في الصف في أنساق من شتى المجموعات ، واحداً من هذه وآخر من تلك ، أمّا الآن فها هم يتدافعون ، يهدرون . هنا يصيحون : «السابعة والستون ، إلى هنا!» وفي مكان آخر : «الثلاثون ، إلى هنا» ، وفي مكان ثالث : «الثانية والثلاثون ، إليّ!»... أما الـ ١٠٤ فكما كانت في

نهاية الصف بقيت لتصطف هناك في الآخر . نظر شوخوف فرأى أيدي الجميع في مجموعتهم فارغة ، لقد انشغل هؤلاء البلهاء بالعمل حتى إنهم نسوا أن يجمعوا نثرات الخشب ، والعيدان... اثنان فقط بينهم ، يحمل كل منهما حزمة صغيرة .

هذه اللعبة تدور كل يوم : يجمع المعتقلون ، قبل الانصراف ، العيدان ، والنثرات ، وشطفات الخشب ، ويربطونها في حزمة بخرقة أو سلك ما ، ويحملونها معهم إلى المعتقل .

يتعرضون للكبسة الأولى عند بوابة المعسكر من قبل مشرف الأعمال أو رؤساء فرق العمل ، فإذا أراد هؤلاء ، يأمرون بإلقاء كل شيء في المكان (كم من الملايين تلاشت في المداخن ، جاؤوا الآن يفكرّون بالتعويض عنها) ، لكن المعتقلين يأخذون هذا الاحتمال بالحسبان : إذا حمل كل من المعتقلين معه ، ولو قليلاً من العيدان تصير البرّاكة أدفأ ، وإلا فمن أين يأتي الدفء . يعطون لكل مدفأة في اليوم خمسة كيلو غرامات من بودرة الفحم ، ولن تحصد أي دفء من هذه الفحمات . لذلك تراهم يكسّرون العيدان ، ينشرونها إلى قطع صغيرة ، ويحشرونها تحت ستراتهم ، وهكذا يتخلصون من المشرف على أعمال المعسكر . أمّا الحرّاس ، هنا ، في معسكر الأشغال الشاقة فلا يأمروننا ، أبداً ، بإلقاء الحطب الذي لدينا : الحرّاس أيضاً يحتاجون إلى الحطب ، ولا يسمح لهم بحمله بأنفسهم .

فمن جهة ، ستراتهم الرسمية لا تسمح بذلك ، ومن جهة أخرى أيديهم مشغولة بالرشاشات لكي يطلقوا النار علينا . وهؤلاء الذين لا يمنعوننا ، ما أن يوصلونا إلى المعتقل حتى يبدؤوا بإعطاء الأوامر : «من الصف الفلاني إلى الصف العلاني ، القوا بما لديكم من حطب هنا» ، لكنهم لا يأخذون إلا

بما أمر الله : يأخذون لأنفسهم شيئاً ، ويبقون للمعتقلين شيئاً ، وإلا لما حمل أحد الحطب إلى المعتقل .

هذه هي حالنا مع الحطب ، نحمله كل يوم إلى المعتقل ، ولا نعرف متى نوصله ومتى نُجَرد منه .

بينما كان شوخوف يبحث بعينه عن نشرة خشب ملقاة بين الأقدام ليأخذها معه إلى المعتقل ، كان العريف قد انتهى من عد مجموعته ، وقدم التفقد لقائد الحرس :

ـ الـ ١٠٤ كاملة

سيزر ، أيضاً ، كان قد ترك الإدارة ، وجاء إلى جماعته ، يتطاير عليه من غيلونه شرر أحمر . شارباه الأسودان غطاهما الندى الثلجي :

ـ كيف الأحوال ، أيها المقدم ؟ سأل سيزر .

متى كان المتدفئ يفهم أحوال البردان ؟ سؤال فارغ ، كيف الأحوال ؟

ـ وكيف تكون ؟ ـ هز المقدم كتفيه ـ انهكني العمل ، فبالكاد جلّست ظهري . بمعنى ، لو أنك تتلطف ، وتعرض دخّان .

يعطيه سيزر ليدخن . إنه لا يقيم إية علاقة بأحد في المجموعة . إلا بالمقدم ، فليس هنا من يفتح له صدره .

ـ في الثانية والثلاثين ، واحد غائب!

الجميع يضجّون هناك في الثانية والثلاثين . يندفع مساعد عريف الثانية والثلاثين ، ومعه واحد آخر إلى هناك ، إلى ورشات الآليات ، ليبحثا عنه . أمّا حشد المعتقلين فقد سرت فيه همهمة : من ؟ وماذا ؟ يتساءلون .

تناهى إلى سمع شوخوف :... المولداڤي الصغير الأسمر غير موجود .

وأي مولداڤي هذا ؟ أهو الذي يقولون عنه إنه كان جاسوساً رومانياً ، جاسوساً حقيقياً ؟!

الجواسيس ، في كل مجموعة يوجد خمسة منهم ، ولكن هؤلاء جواسيس من مصنع محلي . هم يقومون بالتجسس ولكنهم في الحقيقة معتقلون . وشوخوف واحد منهم أيضاً . أمّا ذاك المولداڤي فجاسوس حقيقي .

ما أن نظر قائد الحرس إلى قائمة الأسماء حتى أسود بالكامل ، فإذا ما هرب الجاسوس من يدري ما الذي سيطاله هو قائد الحرس ؟

اجتاح الغضب قطيع المعتقلين ، وشوخوف معهم : ماذا دهاه ، هذا القحب ، الحقير ، الجيفة ، السافل ، الجشع ؟ لقد أظلمت الدنيا ، والقمر وحده يضيء ، لا نجوم في السماء . الزمهرير الليلي يزداد ضراوة ، أما هذا العاهر ، فغير موجود! ألم يتعب من الشغل طوال اليوم هذا النتن ؟ ألا يكفي يوم العمل الرسمي بطوله ، إحدى عشرة ساعة من الفجر وحتى المغيب ؟ ليضيف المخاكم إليها ، انتظر!

استغرب شوخوف أيعقل أن يوجد هنا من ينهمك في العمل إلى درجة أنه لا يسمع صوت منبه الانصراف .

نسي شوخوف أنه منذ قليل كان يعمل بهذه الصورة ، وكان يمتعض لأنهم يجتمعون باكراً عند بوابة الانصراف . أمّا الآن ، فهو يتصقع مع الجميع ، ويغضب مع الجميع ، وكيف لا ، وهذا المولداڤي أخّرهم نصف ساعة من الوقت . لو يسلّمه الحراس للمعتقلين لمزقوه الآن إرباً ، إرباً ، كما تمزّق الذئاب عجلاً صغيراً!

عندما اشتد البرد ناخراً العظام ، لم يعد أحد يستطيع الوقوف مكانه بثبات ، فإما أن يراوح في المكان ، وإما أن يخطو خطوتين إلى الأمام ، واثنتين إلى الخلف...

هنا يخمنون ما يمكن أن يكون... هل استطاع هذا المولداڤي ، فعلاً ، الهرب ؟ لو أنه هرب في النهار لكان أمراً آخر ، أما إذا كان ينتظر حتى يغادر جنود الحراسة محارسهم ، فلن ينتهي انتظاره . إذا لم تظهر آثار هربه تحت الأسلاك الشائكة فسيظلون في محارسهم ثلاثة أيام لا يغادرونها ، إن لم يعثروا عليه ، بل ، لو طال البحث اسبوعاً كاملاً لظلوا واقفين . هذه هي التعليمات ، والمعتقلون القدامى يعرفون هذا حق المعرفة .

عموماً ، إذا فر معتقل ما تنتهي عند ذلك حياة الحراس ، يجبرونهم على البحث عنه ليل نهار بلا نوم ، ولا طعام ، أحياناً بعد كل هذا الشقاء ، يصابون بالخيبة ، وحين لا يستطيعون الإمساك بالهارب حيّاً . يطلقون عليه النار .

يحاول سيزر إقناع المقدم :

ـ كما تدلت ، مثلاً ، النظارة بخيطها على صارية السفينة ، أتذكرون ؟

ـ إمّ ، نعم... المقدم يدخن .

ـ أو عربة الطفل التي تدحرجت على السلّم* إلى أسفل فأسفل .

---

* يدور الحديث عن فيلم «الطراد باتيومكين» . تمت على الطراد باتيومكين تابع لأسطول البحر الأسود انتفاضة مسلّحة في فترة الثورة الروسية الأولى . استمرت الانتفاضة من ١٤ حتى ٢٥ حزيران ١٩٠٥ . لكن هذه الانتفاضة لم تلق مساندة القطع الحربية الأخرى في الأسطول فاضطرت للاستسلام للسلطات الرومانية في مرفأ كونستانسي .

صنع المخرج سيرغي ميخائيلوفيتش ايزنشتين (١٨٩٨ ـ ١٩٤٨) فيلماً عن هذه الحادثة التاريخية عرض لأول مرة عام ١٩٢٥ ، يتضمن المشاهد التي يتم الحديث عنها في القصة .

ـ بلى ،... ولكن الحياة البحرية ، المعروضة غير حقيقية...

ـ أجل ، ولكننا محكومون بالتقنيات الحديثة للتصوير . ـ

ـ الضباط جميعاً سفلة من أولهم إلى آخرهم...

ـ تاريخياً ، هكذا كان الحال!

ومن الذي جرّهم إلى القتال ؟... ثم ، تسبح الديدان في اللحم ، كعلق الأرض بعد المطر . أيعقل أنها ، فعلاً ، كانت هكذا ؟

ـ أجل ، ولكن لا يستطيعون عرضها بتقنيات السينما أصغر من ذلك!

ـ أنا أفكر ، لو أنهم يجيئون بهذا اللحم إلينا الآن في المعتقل ، بدلاً من هذا السمك العفن ، ويرمونه في القدر حتى بلا تنظيف ، ولا غسيل ، لكنا...

ـ آ ، آ... أوو... صاح المعتقلون .

خرجت ثلاث قامات من رحبة الآليات ، رآها المعتقلون . هذا يعني ، مع المولداڤي .

ـ أوُوو! صاح قطيع المعتقلين عند البوّابة .

وما أن دنا منهم جنديا الحراسة مع المولداڤي ، حتى صاروا يصيحون :

ـ طاعون ، قذر ، تافه ، ابن كلبة عاهرة ، سافل قحب...!

وشوخوف يصيح أيضاً :

ـ طا... عـ... ـون!

هي فعلاً ، ليست مزحة أن يأخذ من راحة خمسمائة إنسان نصف ساعة .

طأطأ المولداڤي رأسه ، راكضاً كالفأر .

ـ قف! ـ صاح الحارس ، وكتب ك ـ ٤٦٠ ـ أين كنت ؟

اقترب منه الحارس ، فاتلاً البندقية باتجاه أخمصها الخشبي ليضربه به . صاح المعتقلون :

ـ نذل ، مبصقة ، قاذورة...!

البعض ، عندما رأوا جندي الحراسة يفتل بندقيته صمتوا . المولداڤي صمت أيضاً ، وراح ، برأسه المطأطئ يحاول تجنب الحارس .

اندفع نائب عريف الثانية والثلاثين إلى الأمام :

ـ حقير ، يتسلق السقالة ، يتخفى عني ، ويغفو هناك .

يقول ذلك وهو يضربه بقبضة يده على وجهه ، وقفا رأسه ، مبعداً بذلك الحراس عنه .

تأرجح المولداڤي ، فاندفع في تلك اللحظة المجري من الثانية والثلاثين وركله على مؤخرته بقدمه ، ومرّة أخرى على مؤخرته بقدمه...! عموماً المجر لا يحبون الرومان* .

ليس هذا هو التجسس ، فحتى الأبله يستطيع أن يتجسس . حياة الجاسوس مرحة ، نظيفة . أمّا هنا ، في معسكر الأشغال الشاقة فجرّب أن تبقى حيّاً مدّة عشر سنوات!

أنزل جندي الحراسة أخمص بندقيته .

صاح قائد الحرس :

ـ ابتعدوا عن البوّابة! اصطفوا خمسات!

---

*الرومان : إشارة إلى النسب الروماني للمولداڤيين .

ها هم الكلاب ، يجرون التفقد من جديد! ما الذي سيقومون بعدّه الآن ، أليس كل شيء واضحاً من دون هذا العد ؟ هدر حشد المعتقلين تحوّل غضبهم عن المولداڤي إلى الحرس . هدروا ولم يبتعدوا عن البوابة .

ـ ما... ذا ؟ ـ صرخ قائد الحرس ـ أرى أنكم تريدون الجلوس على الثلج ؟! الآن اقعدكم وابقيكم هنا حتى الصباح!

لا أثر للحكمة في هذا الرجل . هو ، فعلاً ، يمكن أن يجلسهم على الثلج . فكم من المرّات أجبروهم على الجلوس ، بل وعلى الانبطاح «انبطح لَقِّم سلاحك!»

هذه الأشياء حصلت سابقاً ، ويعرفها المعتقلون جيداً ، لذلك ما أن سمعوا التهديد حتى راحوا يبتعدون عن البوّابة بهدوء .

ـ ابتعد! ابتعد! أجبرهم الحراس

ـ وما الذي يحشركم بالبوابة ، أيها الأنذال ؟ هل يستاء من يقف في الخلف ممن يقف في الأمام ؟ .

ـ اصطفوا خمسات! الأولى! الثانية! الثالثة!

راح القمر يضيء بكل استطاعته ، طرد ضوءه حمرة السماء ، ها هو قد اجتاز ربع طريقه ، لقد ضاع المساء... يا للمولداڤي اللعين ، يا للحرس اللعين ، يا للحياة اللعينة...

تلفت الواقفون في الصفوف الأمامية ، بعد أن انتهى عدّهم ، إلى الخلف : أبقيَ هناك في الصف الأخير اثنان ، أم ثلاثة ؟ فحياتهم كلها متعلّقة الآن ، بهذا .

تراءى لشوخوف أن في نسقهم الأخير أربعة . نده مأخوذاً بالرعب :

ـ لدينا واحد زائد! سيعدوننا من جديد!

تبين أن الجقل فيتيوكوف ينتظر عقب سيجارة المقدم ، متأخراً عن الوقوف في نسقه ، فبدا زائداً هنا .

ضربه مساعد قائد الحرس على عنقه حانقاً ، ما فعل إلا الواجب!

في النسق الأخير ثلاثة . العدد مطابق . الحمد لك يا الله!

ـ ابتعدوا عن البوّابة! دفعهم الحرس من جديد .

لكن ، هذه المرّة ، لم يتذمر المعتقلون ، فهم يرون أن جنود الحراسة يطوقون الساحة من الجهة المقابلة ، وهذا يعني أنهم سيخرجوننا .

لا يرى ، هنا ، أحد من رؤساء الفرق الأحرار ، ومشرفي الأعمال . الشباب يحملون الحطب . أشرعت البوّابة . وقف وراءها ، عند المعبر ، قائد الحرس والمدقق :

ـ الأولى ، الثانية ، الثالثة!...

إذا تطابق العدد هنا ، سيسحبون الحرس من نقاط الحراسة في المعسكر ، وما أبعد تلك المحارس البعيدة ، في الطرف الثاني للمعسكر .

بعدما يخرجون آخر المعتقلين من المعسكر ، ويتطابق العدد ، يهتفون إلى جميع المحارس : انصراف! وحين يكون قائد الحرس ذكياً لا ينتظر ، بل ينطلق بالمعتقلين ، واثقاً أن لا سبيل لفرار أي منهم ، أمّا الحراس ، فيلتحقون بالمسير بعد قليل . إنما قائد الحرس الأحمق ، يخشى ألا يكفيه جيشه المسلح ضد المعتقلين ، فينتظر . كان قائد الحرس ، اليوم من صنف الحمقى ، فها هو ينتظر .

أمضى المعتقلون اليوم بكامله في الجليد ، إنه موت زؤام ، لقد هرأهم الزمهرير ، وبعد يوم العمل الزمهريري الطويل ، وقفوا يتصقعون ساعة أخرى عند الباب . ومع ذلك ، فليس الزمهرير ، هو ما يهزقم الآن ، بل الغضب ، فقد ضاع المساء ، ولن يكفيهم الوقت للقيام بأي عمل في المعتقل .

ـ ومن أين لكم هذه المعرفة الجيدة بالأسطول الانكليزي ؟ سأل أحدهم في الخمسة المجاورة .

ـ ماذا أقول! أنا ، عشت قرابة الشهر على بارجة انكليزية . كانت لدي حجرة هناك . كنت ضابط اتصال في خفر السواحل .

ـ آخ خ . هكذا إذن! هذا وحده يكفي للحكم عليكم بخمسة وعشرين عاماً .

ـ لا ، أتعرفون ، أنا لا يعجبني هذا النقد الليبرالي ، لدي تصوّر أفضل عن القانون عندنا .

(إحكِ ، إحكِ... ـ قال شوخوف لنفسه ، دون أن يتدخل في الحديث ـ سينكا كليفيشين عاش مع الأمريكيين يومين فحسب ، وحصل على خمس وعشرين سنة ، أما أنت ، فتنزهت على باخرتهم شهراً كاملاً ، فبكم سنة يمكن حكمك يا ترى ؟) .

ـ ولكن ، بعد الحرب ، قام الأميرال الانكليزي ـ أي شيطان دفعه إلى ذلك ـ بإرسال هدية تذكارية لي «تعبيراً عن الامتنان» . دهشت ، ولعنته .

منظر رائع ، يثير العجب : سهل أجرد مغطى بالثلج ، والثلج يضّر تحت ضوء القمر .

صرنا خارج المعسكر ، وصار هو في الخلف . ها هم جنود الحراسة

يتوزعون عشر خطوات بين الواحد والآخر ، والرشاشات جاهزة للاطلاق .

قطيع أسود من المعتقلين... في ستر سوداء كستراتهم كان أيضاً المعتقل رقم ـ ٣١١ الذي لم تكن الحياة بالنسبة له حياة من دون رتب ذهبية ، فهناك تنزه مع الأميرال الانكليزي ، أمّا هنا ، فينقل الاسمنت مع فيتيوكوف .

الانسان كائن يمكن قلبه هكذا ، وبالعكس .

انهى الحراس استعدادهم ، وتوجهوا إلينا من دون صلاة :

ـ هيّا ، بخطوة منتظمة ، أسرع!

لا ، فلتذهبوا إلى الشيطان... الآن أسرع! بعد ما تأخرتم ما استطعتم!

فهم المعتقلون الذين لم يذوقوا طعم الدفء : أنتم أخرتمونا ، والآن جاء دورنا لنؤخركم ، فأنتم أيضاً تريدون الدفء...

ـ خطوة أوسع! ـ يصيح قائد الحرس ـ خطوة أوسع ، هَيّا ، إلى الأمام! «خطوة أوسع» خطوة خراء عليك! يسير المعتقلون بانتظام ، رؤوسهم مطأطأة ، منكمشين على أنفسهم ، كما لو أنهم يسيرون في جنازة .

لم يعد لدينا ما نفقده ، ففي كل الأحوال سنصل آخر الجميع إلى المعتقل . لم تشأ معاملتنا بانسانية فانفتق الآن من الصياح إذن!

صاح قائد الحرس... صرّخ «خطوة أوسع!» ، وأخيراً فهم : لن يسرع المعتقلون ، وهو لا يستطيع إطلاق النار عليهم : إنهم يسيرون في رتل منتظم ، في أنساق من خمسات ، وفق التعليمات . وليس لدى قائد الحرس سلطة لاجبارهم على الاستعجال . (يستنجد المعتقلون كل صباح ، بشيء وحيد هو خطواتهم البطيئة إلى العمل . من يمشي أسرع ، لن يرى يوم تحرره من المعتقل ، فهو سينهار قبل ذلك ، سيتبخر) .

وهكذا تابع المعتقلون مسيرهم بانتظام ، وبدون استعجال . وبينما كان الثلج يصرّ تحت أقدامهم ، منهم من كان يتحدث بصوت منخفض ، ومنهم من كان يسير صامتاً .

راح شوخوف يتذكر : ما الذي ، يا ترى . كان يجب أن ينجزه في المعتقل ، ولم يفعل ؟ ... تذكر أخيراً ، النقطة الطبية ، المستوصف! يبدو أنه نسي تماماً قصة المستوصف في معسكر الأشغال .

الآن ، بالذات ، وقت الاستقبال في المستوصف . إذا لم يتعش شوخوف ، سيكون بإمكانه أن يدركه ضمن الوقت المحدد... لكن ، كما لو أن جسده تخلى عنه وجعه ، ولم يعد يؤلمه كما كان . ثم أنهم لن يقيسوا حرارته ، فلماذا يضيع وقته! فها هو قد تغلب على مرضه من دون أطباء . هؤلاء الأطباء ، يوصلونك بعلاجهم إلى التابوت .

ليس المستوصف ما يشغله الآن ، بل كيف سيتمكن من الحصول على زيادة في العشاء ؟ الأمل كلّه في أن يحصل سيزر على طرد طعام ، فقد آن استلام هذا الطرد من زمان . وإذا بتبدل مفاجئ يحصل في المسير ، تضطرب الصفوف ، تختل الخطوة المنتظمة ، تندفع ، يتعالى الهدير... يتعالى أكثر... وإذا ببعض الخمسات تتخلّف عن المسير ، مشكّلة ذيلاً ، بين هؤلاء الذين في الذيل كان شوخوف ، وهؤلاء لم يعد بإمكانهم اللحاق بالبقية مشياً ، بل صار عليهم أن يركضوا وراءهم . يمشون عدة خطوات ، ومن ثم يركضون من جديد .

ما أن ارتقى الذيل قمة التل ، حتى رأى شوخوف عن يمينهم ، بعيداً في السهب ، طابوراً آخر ، أسود يمتد متجهاً لقطع الطريق على طابورهم... رأوهم ، على ما يبدو ، فأسرعوا الخطو .

يمكن أن يكون هذا الطابور ، طابور المعتقلين من مصنع الآليات ، هناك ثلاثمائة معتقل ، وهذا يعنى أن حظهم لم يكن أفضل ، فقد أخّروهم أيضاً ، ولكن ما الذي جعلهم يؤخرونهم ؟ يحدث أحياناً أن يحتفظوا بهم للعمل لمدة أطول لإنهاء إصلاح آلة ما . ولكن ماذا يضير هؤلاء لو تأخروا ، فهم يعملون في الدفء طوال اليوم .

المهم الآن ، من الذي سيسبق! ها هم الشباب يركضون ، هم ، فعلاً ، يركضون . وجنود الحراسة أيضاً ، راحوا يعدون . وحده قائدهم راح يصيح :

ـ لا تمطّوا الصف! أنتم في الأخير الحقوا بالصف! الحقوا بالصف!

لتذهب إلى الجحيم ما بك تنبح ؟ وهل نقصّر في اللحاق بهم ؟

عمّ كان المعتقلون يتحدثون ، وبمّ كانوا يفكرون... لقد نسوا كل شيء ، وما يشغلهم الآن شيء واحد فقط هو السباق ، والوصول قبل أولئك .

اختلط الحابل بالنابل ، الحامض بالحلو . حتى كأن الحراس ما عادوا أعداء للمعتقلين ، بل صاروا أصدقاء لهم ، أمّا العدو ، فذلك الطابور... الطابور الآخر . عمّ الفرح فجأة ، وتلاشى الغضب .

ـ هيا أسرع! هيا . يصيح اللاحقون بالسابقين .

سبقهم طابورنا إلى الطريق ، أمّا طابورهم فاختفى وراء مباني السكن .

صار السباق أعمى . استقامت أرتالنا على الطريق أكثر ، اندفعت عبر الشارع ، صارت مهمة الحراس أسهل . المهم الآن ، أن نقطع الطريق عليهم .

يجب أن نقطع عليهم الطريق ، ونسبقهم إلى بوّابة المعتقل ، لسبب آخر أيضاً ، فعلى البوابة يطول تفتيش المعتقلين القادمين من مصنع الآليات .

فمنذ أن صار البعض في المعتقل يُذبحون ، قررت الإدارة أن السكاكين التي يذبحون بها تصنع في معمل الآليات ، وتجلب من هناك إلى المعتقل . لذلك صاروا يفتشون معتقلي المصنع بدقة خاصّة .

كانت الأرض شديدة البرودة في أواخر الخريف ، ومع ذلك ، كانوا يصيحون بهم :

ـ اخلعوا أحذيتكم ، جماعة الميكانيك! امسكوا أحذيتكم بأيديكم!

ويقومون بتفتيشهم وهم حفاة .

والآن ، رغم الثلج ، والجليد ، ها هم يشيرون إلى واحد منهم :

ـ هيا ، اخلع فردة جزمتك... اليمنى! وأنت ، اخلع اليسرى!

على المعتقل ، إذن ، أن يخلع فردة جزمته ، وينط على رجل واحدة ، ليقلّب الفردة المخلوعة ويهزّها ، ويفك لفافة القدم ، فربما يخفي هناك سكيناً .

تناهى إلى سمع شوخوف ، وهو لا يدري أيكون ما قيل حقيقة أم لا ، بأن معتقلي مصنع الآليات ، جاؤوا في الصيف بعمودي حديد لشبكة الكرة الطائرة ، وكانت السكاكين جميعها مخبأة في ذينك العمودين . كان في كل ماسورة ، كما قيل ، عشرة سكاكين طويلة ، والعسس يعثرون عليها في المعتقل بين الحين والآخر ، هنا وهناك .

هاهم شبه راكضين ، يتجاوزون النادي الجديد ، والمساكن ، وورشة النجارة ، وينطلقون بخط مستقيم إلى بوابة المعتقل ،

ـ هُووو! يصيح الجميع بصوت واحد

كان هدفهم ملتقى الطرق هذا بالذات . خلّفوا جماعة المصنع على يمينهم ، لقد تخلف أولئك عنهم بحوالي مائة وخمسين متراً . الآن ، صار بإمكان المعتقلين أن يسيروا على مهلهم . الجميع فرحون الآن ، فرح الأرانب ، على مبدأ ما زالت الضفادع تخاف منا .

أطل المعتقل كما تركوه في الصباح . لم يتغير فيه شيء . في الليل تضيء كشافات سوره المصمت ، وتسطع بشدة أمام بوابته . تبدو ساحة التفتيش هناك كأنما سكبوا عليها ضوء الشمس .

حتى قبل أن يصلوا إلى البوّابة...

ـ قف! ـ صاح مساعد قائد الحرس ، مناولاً رشاشه لأحد الجنود ، وأسرع للاقتراب من طابور المعتقلين ، فالجنود لا يسمح لهم بالاقتراب من المعتقلين مع أسلحتهم ـ إرم الحطب من يديك! كل من لديه حطب ليقف يميناً! كانوا يأخذون الحطب علناً ، وكان يستطيع رؤية ذلك كل معتقل . طارت ربطة العيدان الأولى ، فالحزمة الثانية ، فالثالثة... الآخرون . يريدون إخفاء حطب بين الصفوف ، لكن جيرانهم يصرخون بهم :

ـ سيخلصوها من الجميع بجريرتكم! اتركوها لهم بإرادتكم أفضل!

من هو العدو الأكبر للمعتقل ؟ المعتقل الآخر . لو أن المعتقلين لا يدسون على بعضهم بعضاً ، لما استطاعت الإدارة التحكم بهم .

ـ في الصف ، بخطوة منتظمة .

اتجهوا نحو البوابة .

تلتقي في ساحة البوابة خمس طرقات . كانت طوابير خمسة تتزاحم هنا منذ ساعة مضت . لو أنهم يحوّلون هذه الطرق إلى شوارع ، لأصبحت

ساحة التفتيش هذه ، الميدان الرئيس في مدينة المستقبل ، ولاندفعت فيها طوابير الناس من كل الجهات كما تندفع الآن ، لتلتقي المسيرة هنا .

ـ فكّوا أزرار المعاطف! افتحوا السترات أيضاً! ارفعوا أيديكم .

يريد العسس عناقنا ، والتربيت على أجنابنا ، كما فعلوا في الصباح .

فتح السترات والمعاطف ليس مشكلة الآن ، فنحن قادمون إلى البيت . هكذا يقول الجميع «إلى البيت» . أما البيت الحقيقي ، فلا وقت لتذكّره طوال اليوم .

ما أن فتشوا رأس الطابور ، حتى دنا شوخوف من سيزر وقال له :

ـ سيزر ماركوڤيتش! سأركض من الطابور مباشرة إلى مكتب تسليم الطرود ، وأصفّ في الدور هناك .

أمال سيزر شاربيه الكثين الأسودين ، قبلاً ، الأبيضين حالياً ، صوب شوخوف :

ـ ولماذا الدور يا إيڤان دينسيتش ؟! قد لا يكون هناك طرد لي .

ـ وإذا لم يكن ، ما الذي أخسره أنا ؟ أنتظر عشر دقائق إذا لم تأتوا ، أذهب إلى البرّاكة .

أمّا شوخوف فكان يفكّر بغير ذلك ، أيضاً : فإذا لم يأت سيزر ، فقد يأتي غيره ، ويشتري الدور الذي يشغله شوخوف .

يبدو أن سيزر تعب من انتظار الطرد .

ـ لا بأس ، يا إيڤان دينيسيتش ، اسرع ، اشغل مكاناً ، وانتظر عشر دقائق ، لا أكثر...

ها هم العسس يقتربون أكثر فأكثر . ليس لدى شوخوف ، اليوم ، ما يخفيه عنهم ، لذلك راح يقترب منهم غير وجل . فك أزرار معطفه ، فتح سترته بدون استعجال ، أخرجها من تحت الحزام . رغم أنه لا يذكر أن شيئاً لديه يخالف القانون ، إلا أن رعشة اضطراب اعتاد عليها ، خلال سنوات إقامته الثماني هنا ، فعلت فعلها : مد يده ، وحشرها في جيب ركبة السروال ، ليتأكد أن لا شيء هناك ، كما هو يظن ، ويطمئن قلبه .

إنما اصطدمت بيده قطعة من شفرة منشار كانت هناك! تلك القطعة التي التقطها اليوم من ساحة المعسكر ، والتي لم يفكر إطلاقاً بإحضارها معه إلى المعتقل هذا اليوم .

هو لم يرد إحضارها إلى هنا بحال من الأحوال ، ولكن طالما جاء بها ، فمن المؤسف إذن القاؤها ، فهي يمكن أن تشحذ وتحوّل إلى سكين حذّاء صغيرة ، أو مشرط خياطة .

لو أنه فكر بحملها إلى المعتقل ، لفكّر جيداً أين يخبئها ، وكيف ، أمّا الآن ، فكل ما يفصله عن التفتيش نسقان ، وها هي الخمسة الأولى منهما تنفصل وتتجه صوب العسس .

كان يجب أن يتخذ قراراً بأسرع من الريح : إما إلقاؤها بشكل خفي ، متستراً بالخمسة الأخيرة . على الثلج ، حيث سيعثرون عليها ، ولكنهم لن يعرفوا لمن تعود ، أو الاحتفاظ بها .

كان يمكن أن يسوقوه إلى الزنزانة لعشرة أيام على قطعة الشفرة هذه ، إذا قرروا أنها سكين .

سكين الحذّائين مصدر دخل ، مصدر خبز! ولا يستطيع التخلي عن هذه

الفرصة ببساطة ، لذلك حشرها في قفازه القطني مستعداً للتفتيش .

أمروا الخمسة الأخيرة بالتقدم للتفتيش .

تحت الضوء الساطع وقف الثلاثة الأخيرون : سينكا وشوخوف ، والشاب من الـ ٣٢ الذي ركض للبحث عن المولداڤي .

لأنهم كانوا ثلاثة مقابل خمسة من العسس ، كان يمكن لشوخوف أن يختار إلى أي من الواقفين على جهة اليمين يتجه . لم يختر شوخوف الشاب المورّد الخدين ، بل اختار العجوز الأشيب الشاربين . العجوز طبعاً ذو خبرة ، ويمكن أن يعثر على الشفرة بيسر لو أراد ، ولكن يجب أن يكون قد قرف الخدمة هنا ، أكثر من رائحة غاز الكبريت .

في هذه الأثناء كان شوخوف قد خلع كلا قفازيه ، الفارغ منهما ، والذي يحتوي على الشفرة ، وأمسك بهما في يد واحدة ، بحيث يبرز الفارغ من أمام . وفي اليد ذاتها أمسك بحبل الزنار ، وفتح سترته عن آخرها ، ورفع أذيال المعطف والسترة إلى أعلى . لم يكن شوخوف خدوماً بهذا الشكل ، مطيعاً للسجانين في يوم من الأيام . لكنه الآن يريد أن يبدو مكشوفاً أمامهم حتى النهاية ، أي ، هذا أنا فخذني ، ومع تلقي الأمر اتجه نحو أشيب الشاربين .

خبط الأشيب على جانبي شوخوف ، وعلى ظهره ، وعلى جيب الركبة... لا شيء ، لمَّ أسفل السترة والمعطف ، ودعكهما بين أصابعه... لا شيء... وأخيراً ، من أجل التأكد ، دعك القفاز الممدود من قبل شوخوف إلى الأمام ، ذلك القفاز الفارغ ، ضغطه السجّان ، فضغطت كماشة قلب شوخوف من الداخل .

ضغطة أخرى على القفاز الآخر ، تودي بشوخوف إلى الزنزانة ، حيث ثلاثمائة غرام من الخبز في اليوم فقط ، وطعام ساخن ، مرّة واحدة ، كل ثلاثة أيام . تصوّر شوخوف كيف سيهزل هناك ، وتخور قواه من الجوع ، وكيف ستكون صعبة عليه العودة إلى حالته الراهنة لا الشبعانة ، ولا الجوعانة .

راح يصلي في خلده متضرعاً إلى اللّه : «ربّاه! أنقذني! خلصني من الزنزانة!» .

راودته هذه الأفكار كلها ، بينما كان العسس يتحسس قفازه الأول ، وينقل يده لكي يتحسس الثاني . كان سيدعكهما معاً لو أن شوخوف أمسك بهما في كلتا يديه ، وليس ، كما فعل ، في يد واحدة .

في هذه الأثناء تعالى صوت كبير العسس ، يحثهم ، على الانتهاء من التفتيش صائحاً بعساكره :

ـ سوقوا جماعة المصنع ، هيّا!

وبدلاً من أن يفتش أشيب الشاربين قفاز شوخوف الثاني ، أشار له بيده أن «ادخل!» ، وابتعد عنه .

ركض شوخوف للحاق بجماعته . كانوا قد اصطفوا هناك خمسات ، في المعبر ، بين صفي جذوع الأشجار المدقوقة على الجانبين ، الشبيهة بمرابط الخيل في السوق ، والتي تشكّل هنا محشراً يساق عبره المعتقلون .

ركض شوخوف ، خفيفاً ، لا يشعر من تحته بالأرض ، لم يصلّ ثانية حامداً الله ، فلا وقت لديه ، وليس ذلك في محله الآن .

جنود الحراسة الذين رافقوا مسيرهم من معسكر الأشغال تنحّوا الآن

جانباً ، مفسحين المجال لحراس جماعة المصنع ، وراحوا ينتظرون قائدهم .

جمع الحراس كل العيدان والأحطاب الملقاة قبل التفتيش ، وأخذوها لأنفسهم ، أمّا الحطب المصادر أثناء التفتيش ، فتم جمعه في كومة عند البوابة .

تدحرج القمر إلى أعلى متسلقاً قبة السماء ، واشتد الصقيع في هذا الليل الأبيض المضاء .

بينما كان قائد الحرس في طريقه للحصول على توقيع مقابل تسليمه ٤٦٣ رأساً من رؤوس المعتقلين ، تحدث مع مساعد ڤولكوف برياخا فصاح الأخير :

ـ أنت ، الـ ٤٦٠!

وفي الحال ، خرج المولداڤي المختبئ في وسط الطابور إلى المعبر الأيمن ، مبتلعاً رأسه بكتفيه كما كان .

ـ تعال إلى هنا!

أشار إليه برياخا أن يدور حول مرابط الخيل . لف المولداڤي حولها ، وهنا أمروه بوضع يديه خلف ظهره ، والوقوف . هذا يعني ، سيلصقون به تهمة محاولة الفرار ، وسيسوقونه إلى الزانزنة .

من الجانب الأيمن والأيسر لممر الحشر وقف جنديان ، وقاما بفتح البوابة التي تعلو قامة الانسان بثلاث مثلها ، بهدوء ، وجاءت أوامرهم من هناك :

ـ اصطفوا خمسات! ابتعد عن البوّابة!

البوابات جميعها تفتح باتجاه الساحة . فإذا ما اندفع قطيع المعتقلين إليها لا يمكن لأحد فتحها .

ـ الأولى ، الثانية ، الثالثة...

هنا بالذات ، في هذا التفقد المسائي ، تغدو جرعة حساء ساخن ، للمعتقل المحشور عبر البوابة ، المزمهر ، المنهك ، الجائع جداً على مدى يومه الطويل... جرعة حساء ساخن ، بالنسبة له الآن كالمطر بالنسبة للأرض العطشانة ، يفرغها في جوفه دفعة واحدة .

هذه الجرعة بالنسبة للمعتقل ، الآن ، أغلى من حريته ، أغلى من حياته ، تلك التي مضت ، وتلك التي يمكن أن تأتي .

المعتقلون العابرون لمحشر بوابة المعتقل ، كالجنود العائدين من المسير مشدودين ، واسعي الخطو ، هادرين... فلو نظر إليهم واحد من مهزوزي القيادة ، لأصابه منظرهم بالرعب .

بعد هذا التفقد بالذات ، يصبح المعتقل إنساناً حراً ، لم يكنه منذ أن دق المنبه للانطلاق إلى العمل في السابعة والنصف صباحاً .

تجاوزوا البوابة الرئيسية للمعتقل ، عبروا البوابة الصغيرة ، بعد ساحة التفقد ، وانحشروا بين صفي الحواجز ، لينطلق بعدها كل منهم باتجاه .

كل يذهب إلى حيث يشاء ، إلا العرفاء ، فإلى حبيبهم موزع المهمات :

ـ العرفاء! إلى قسم تخطيط الانتاج :

هذا يعني أن يشدّوا كدّاناتهم إلى الغد .

سار شوخوف مسرعاً ، بمحاذاة السجن الداخلي ، بين البراكات متجهاً

إلى مكتب الطرود . أمّا سيزر ، فمشى بخطو معتدل ، لايبخس نفسه عزتها بالاتجاه الآخر ، حيث تدافع المعتقلون حول عمود دُقّ عليه لوح خشبي ، كتبت عليه بقلم كوبيا أسماء الذين سيستلمون اليوم طروداً .

ما أقل ما يكتبون على الورق في المعتقل ، وما أكثر ما يكتبون على ألواح من خشب ، فالخشب أقسى والكتابة عليه موثوقة أكثر .

على ألواح الخشب يكتب الحرّاس ، ويكتب موزّعو المهمات نتائج إحصاءات رؤوس المعتقلين . ومع كل يوم جديد يمسحونها ، ويعيدون كتابتها ، وهكذا دواليك... اقتصاد .

أولئك الذين يبقون في المعتقل يسخّرون أنفسهم للخدمة : يقرؤون على اللوح أسماء الذين وصلتهم طرود ، يسرعون للقائهم ، يزفون إليهم البشرى وهم ما يزالون مجتمعين عند البوابة ، يزودونهم بأرقام التسليم...

صحيح أنهم لا يحصلون على الكثير ، إنما يكسبون لفافة تبغ في أسوأ الأحوال .

ركض شوخوف إلى مكتب الطرود الملصق بإحدى البراكات . المكتب من الخارج بلا أبواب ، يتجول فيه البرد كما يشاء ، وكل ما فيه مطروق مرّات ومرات ، ليس فوقه سقف .

كان هناك طابور من المعتقلين يقف في صف أمام كشك المكتب . شغل شوخوف مكاناً هناك . كان يقف قبله حوالي خمسة عشر معتقلاً ، تلزم ساعة من الوقت حتى يستلم كل هؤلاء ، ولم يبق من الوقت حتى الإغلاق سوى ساعة واحدة .

من ذهب من جماعة العاملين في مبنى المحطة الحرارية ليفتش عن

اسمه في القائمة ، سيأتي إلى هنا حتماً بعد شوخوف . ، وسيكون بعده طبعاً ، كل جماعة المصنع ، ولكن لكي لا يضطروا للمجيء إلى هنا مرتين ، يؤجلون قدومهم إلى صباح الغد .

يقفون في الطابور مع أكياسهم ، وصررهم ، فهناك وراء الباب يفتحون الطرد بالبلطة ، ويتفحص العسس بأيدهم كل ما فيه . يمزقون ، ويكسرون ، ويتحسسون ، ويجسون ، ويسكبون (صحيح أن شوخوف لم يستلم طوال اعتقاله مرّة واحدة طرداً ، ولكن هكذا يقولون) فإذا كانت هناك سوائل في وعاء زجاجي ، أو في علبة تنك يفتحونها ، ويسكبونها بين يديك ، فتدبر أمرك بيديك ، أو اصنع من خرقة ما كيساً استقبلها فيه ، افعل ما شئت ففي كل الأحوال هم لا يسلّمون للمعتقل الوعاء الزجاجي أو علبة التنك ، الله أعلم مم يخافون . أمّا حين تكون هناك فطائر ، حلويات ، سجق ، سمك... فسيقرض منه العسس ، وجرّب أن تدافع عن حقك ، فإن فعلت علقت بيديه ، سيدعي أنها ممنوعات ، وإن التعليمات لا تسمح بها ، وبالتالي لن تحصل على شيء منها . على من أتاه طرد أن يرشي قبل كل شيء العسس ، وبعد ذلك يعطي... ويعطي...

عندما ينتهون من تفتيش الطرد ، لا يعطونك الصندوق الخشبي ، المرسل فيه ، فلتتدبر أمرك بطريقة ما ، ولتأخذ ما استلمت ، وليكن في ذيل معطفك ، ولتبتعد من هنا . هنا يستحثك الواقفون خلفك حتى تكاد تنسى ما أتيت من أجله ، ولا ترجع إليه ثانية ، فلن تحصل على شيء ، لم يعد موجوداً!

قبل أن يأتي إلى هنا ، حصل شوخوف في أوست إيجما على إرسالية مرتين ، لكنه بعد ذلك كتب لزوجته : تعب فارغ ، لا ترسلي ، لا تقتطعي

من طعام الصغار . مع أن شوخوف كان من الأسهل عليه أن يعيل هناك في الحرية عائلة كاملة من أن يعيل هنا في المعتقل نفسه ، إلا أنه يعرف حق المعرفة ، قيمة هذه الطرود ، ويعرف ، أن عشر سنوات تمضي لا يفيض فيها عن حاجة العائلة هذا المقدار ، إذن ، فالأفضل الاستغناء عنها .

ومع أنه قطع طريق الطرود بنفسه ، إلا أنه في كل مرّة ، حين كان واحد ما من القريبين منه ، من براكته ، يحصل على طرد ، وهذا ما كان يحدث كل يوم ، كان يغص بالحسرة ، فلماذا لا يكون الطرد مرسلاً إليه . ومع أنه منع زوجته بشدة أن ترسل إليه أي شيء ، حتى في عيد الفصح ، ومع أنه لم يدن يوماً من العمود ليحدّق في القائمة ، اللهّم إلا من أجل الأغنياء من أفراد مجموعته ، إلا أنه كان ينتظر أحياناً في دخيلته أن يسرع أحد ما إليه ويزف إليه البشرى :

ـ شوخوف! لماذا لا تذهب ، هناك طرد لك .

لكن أحداً لم يأته بمثل هذا الخبر...

كانت الأسباب التي تجعله يتذكر قريته تيمغينيوڤو ، وكوخهم هناك تقل يوماً بعد يوم... استهلكته الحياة هنا ، من لحظة الاستيقاظ ، حتى ساعة الانصراف من العمل ، لم تُبق فيه محلاً لذكريات لا طائل منها .

والآن ، بينما هو يقف بين هؤلاء الذين هدؤوا دواخلهم بأمل قريب ، بغرز أسنانهم في قطعة من شحم الخنزير ، أو بدهن بعض من الزبدة على قطعة خبز ، أو بتحلية كوب بقطعة سكر... يحاول التماسك مستنداً إلى رجاء واحد ، هو أن يذهب مع مجموعته إلى المطعم ، ويأكل البالاندا الساخنة ، قبل أن تبرد ، فالباردة لا تساوي قيمتها نصف الساخنة .

فكّر شوخوف ، بأن سيزر إذ لم يجد اسمه في القائمة ، سيكون الآن في البرّاكة يغتسل ، أما إذا كان اسمه هناك ، فإنه الآن يجمع الأكياس ، والأكواب البلاستيكية ، والعلب ، ولهذا قال لشوخوف أن ينتظره عشر دقائق .

أثناء وقوفه في الطابور ، سمع شوخوف خبراً : لن تكون لديهم عطلة أحد هذا الأسبوع . إذن هم يلتهمون يوم استراحتهم من جديد . لَكَمْ انتظر شوخوف هذه العطلة ، ولَكَمْ انتظرها الجميع : إذا كان في الشهر خمسة آحاد فإنهم يعطونهم ثلاثة منها ، ويسوقونهم إلى العمل في الاثنين ، لَكَمْ انتظر هذا اليوم ، وها هو يسمع ما يحبط روحه ، ويلويها : هذا الأحد الخاص الحميم ، من لا يتحسر عليه ؟ هم ، كما يقولون هنا في الدور ، سيجدون ولا بد عملاً لنا نقوم به في هذا الأحد ، سيخترعون ، ولا بد ، عملاً : إمّا ترميم الحمّام ، أو رفع حائط لكي لا يكون المرور بعد ذلك ممكناً ، أو تنظيف الساحة ، أو تبديل الفرشات ، أو نفضها بحثاً عن البق المعشش فيها ، أو تدقيق البطاقات الذاتية ، أو جرد الموجودات ، وهذا يعني أن تخرج إلى الساحة مع جميع أشيائك وتجلس هناك ، نصف يوم . يبدو أن أكثر ما يغيظهم أن يتمكن المعتقل من النوم ولو مرّة بعد الظهر .

مع أن الدور يسير ببطء ، إلا أنه يتحرك . اقتحموا الدور بلا انتظار ، بلا استئذان من أحد ، دافعين من في طريقهم : واحد حلاق ، وثانٍ محاسب ، وثالث من قسم التوجيه السياسي . هؤلاء ليسوا معتقلين رماديين كالبقية ، بل هم مستخدمون متينون من المعتقلين ، هؤلاء من أوائل الأنذال في المعتقل . والمعتقلون الشغيلة الشقاة يعدّون هؤلاء الأنذال أقذر من الخراء ، وهؤلاء بدورهم كانوا لا يعدون البقية أفضل من ذلك .

لم يكن الجدال يجدي نفعاً معهم . كانت تجمع المستخدمين لحمة ، وتربطهم بالسجّانين على اختلاف صنوفهم لحمة أيضاً .

بقي أمام شوخوف عشرة أشخاص ، ووراءه صار سبعة . ولكن ها هو سيزر يندفع باتجاه الباب منحنياً في قبعة الفرو الجديدة ، المرسلة إليه من الحرّية . (دفع سيزر لواحد رشوة من أجل أن يسمحوا له بارتداء قبعة مدنية . جديدة ، نظيفة ، هنا... ، أمّا البقية فقد أخذوا منهم حتى القبعات العسكرية البالية ، وأعطوهم بدلاً منها قبعات معتقلين من وبر الخنازير) .

ابتسم سيزر لشوخوف ، ثم التفت في الحال صوب غريب الأطوار ذي النظارات ، الذي وقف في الدور يطالع جريدة :

ـ آهَا! بيوتر ميخانيليتش هنا!

وتفتحا لبعضهما بعضاً كزهرتي شقائق النعمان . خاطبه غريب الأطوار :

ـ أرسلو لي «موسكو المساء» طازجة ، انظروا ، أرسلوها في رسالة .

ـ غير معقول ؟! ـ ينحشر سيزر في تلك الجريدة . كان يضيء المكان مصباح كهربائي معلق بالسقف بضوء خافت ضعيف ، ولست أدري كيف يمكن تحت هذا الضوء الكابي قراءة الحروف الصغيرة ، وما الذي يمكن رؤيته ؟

ـ هذه من أهم المقالات النقدية لمسرحيّة زافا دمسكوي .

هؤلاء الموسكوفيون يشمون بعضهم بعضاً عن بعد كالكلاب ، وما أن يفترقوا حتى يشموا ، ويشموا... بحثاً عن بعضهم بعضاً ، ثم يبربرون ويبربرون ، والأشطر من يحكي أكثر... يبربرون أحياناً ، حتى تكاد لا تسمع

في حديثهم إلا القليل من الكلمات الروسية ، كما لو أنك تسمع حديث لاتثيين ، أو رومان . الأهم من كل هذا أن سيزر يمسك بيده الأكياس المطلوبة .

ـ هكذا ، أنا يعني... يا سيزر ماركوفيتش... ـ يهمس له شوخوف ـ ربما يمكنني الانصراف ؟

ـ طبعاً ، طبعاً ـ يرفع سيزر شاربيه الأسودين عن الجريدة ـ حسناً ، إذن ، فخلف من أكون أنا ؟ ومن خلفي ؟

شرح له شوخوف مَنْ يقف وراء من هنا ، ولم ينتظر حتى يتذكر سيزر بنفسه العشاء بادره شوخوف :

ـ وهل أحضر لكم العشاء ؟

(هذا يعني أن يحضره في القصعة من المطعم إلى البرّاكة ، ولم تكن هناك أية فرصة للقيام بذلك . فهناك الكثير من الأمور التي تمنع إخراج القصعات من المطعم ، وبالتالي يمسكون بك ، ويسكبون ما لديك على الأرض ، ويسوقونك إلى الزنزانة ، ورغم كل ذلك يخرجون القصعات ، وسيستمرون بإخراجها ، لأن من لديه عمل ما لن يتمكن من تناول العشاء مع أفراد مجموعته في المطعم أبداً) .

سأله شوخوف أيأتي له بالعشاء ، وكان يقول في دخيلته : «أيعقل أن تأكل هذه البالاندا ؟ أتبخل علي بعشاء ؟ فالعشاء ليس أكثر من بالاندا لوحدها ، حتى من دون عصيدة!...

ـ لا ، لا... ـ ابتسم سيزر ـ كُلْ العشاء أنت يا إيڤان دينيسيتش!

لم يكن شوخوف ينتظر أكثر من ذلك ، فهذا كل الذي يتمناه . وها هو

الآن كالطير الحر ، يرفرف خارجاً من تحت سقف كشك الطرود مخترقاً ساحة المعتقل .

يتجول المعتقلون في كافة أرجاء المعتقل . في يوم من الأيام أصدر أحد رؤوساء المعتقل أمراً يمنع بموجبه ، منعاً بَاتاً ، أن يمشي أي معتقل في أي اتجاه بمفرده .

إذن ، فإلى أي مكان يمكن أن يذهب كل من في المجموعة كل مرة ، أإلى المستوصف ، أم إلى المراحيض ؟! وهكذا ، فلتُقسم المجموعة إلى مجموعات صغيرة من أربعة إلى خمسة معتقلين ، وليُعَيَّن لهم عريفٌ ، على أن يسير هذا العريف بمجموعته بالصف المنتظم ، وينتظروا هناك ، ويعودوا بالصف معاً من جديد .

تمسك رئيس المعتقل أشد التمسك بالأمر الذي أصدره ، ولم يكن هناك أحد يجرؤ على مخالفة أمره . تصيد السجانون من يسير بمفرده ، وسجلّوا أرقامهم ، وساقوهم إلى الزنزانات ، ورغم كل هذا فشل الأمر .

يفشل الأمر بالتدريج . بهدوء ، كما فشل الكثير غيره من الأوامر .

يمكن القول إنهم يدعون الناس بأنفسهم للمعارضة والمخالفة ، فهكذا لا لشيء لماذا لا ترسل مع الواحد مجموعة كاملة! أو مثلاً ، إذا كنت بحاجة للذهاب إلى المستودع لاحضار حاجياتك من هناك ، فما حاجتي أنا للذهاب معك إلى هناك ؟ أمّا إذا فكّر واحد ما بالذهاب إلى قسم التوجيه السياسي لقراءة الجرائد ، فمن الذي سيذهب معه إلى هناك ؟! والذي يذهب لتبديل الجزمة بصباط ، والذي يذهب إلى نشافة الأحذية ، والذي يتنقل لا لشيء بين براكة وأخرى (مع أن الانتقال من براكة إلى أخرى محظر تحظيراً قطعياً)... وغير ذلك ، فكيف لك أن تضبط كل هؤلاء .

أراد رئيس المعتقل أن يصادر بأمره هذا آخر ما تبقى من حرية لدى المعتقل ، ولكن لم يكن لأبي كرش هذا ما أراد .

رأى شوخوف في طريقه ، قبل الوصول إلى البرّاكة ، أحد السجانين ، فرفع قبعته محيياً في ملاقاته على سبيل الاحتياط ، ثم دخل البرّاكة . كانت الضوضاء تملأ الجو هناك : سرقوا خبز أحدهم أثناء غيابهم في النهار ، وها هم يصرخون في وجه سخرة البّراكة ، والسخرة بدورهم يصرخون في وجوه هؤلاء ، متزاحمين بينما زاوية الـ ١٠٤ فارغة .

يعدّ شوخوف المساء طيّباً . إذا عادوا من الشغل ، ولم تكن فرشاتهم مقلوبة ، منكوشة ،... فهذا يعني أن العسس لم يفتشوا البرّاكات في غيابهم .

اتجه شوخوف إلى سريره ، خالعاً معطفه عن كتفيه في الطريق . رفع المعطف ، والقفاز مع الشفرة إلى أعلى ، وراح يجس قلب الفرشة ، أما زالت قطعة الخبز التي خبأها في الصباح مكانها ، أجل هي مكانها! فرح شوخوف ، لأنه خاط الثقب جيداً ، وخرج راكضاً إلى المطعم!

وصل إلى المطعم ، من دون أن يلتقي أي سجّان في الطريق ، كان الذين التقاهم في طريقه معتقلين ، وكانوا يتجادلون حول حصص الخبز .

ساحة المعتقل مضاءة تتلألأ تحت ضوء القمر الساطع ، تحت الكشّافات الضوئية المنارة في كل مكان ، أمّا البرّاكة فليس فيها إلا الظلال السود .

مدخل المطعم تتقدمه سقيفة عريضة توصل إليها أربع درجات . هذه السقيفة معتمة الآن ، لكن مصباحاً واحداً يتأرجح فوقها ناشراً ضوءه على الجليد . قزحيٌ هو ضوء هذا المصباح ، أذلك من الصقيع ، أم من الأوساخ التي تراكمت عليه ؟

أمر آخر صارم أصدره رئيس المعتقل :

تذهب المجموعات إلى المطعم في صف ثنائي ، أمّا بقية الأمر فتقول : عندما تصل المجموعة إلى المطعم ، لا تصعد إلى السقيفة ، بل تقف في صف خماسي وتنتظر أن يسمح لها سخرة المطعم بالدخول .

أسبوعي المطعم متشبث بمهمته لا يتزحزح عنها مهما حصل ، فقد حوّل عرجه إلى علّة مع أن هذا القحب مقتدر . أخذ لنفسه عكازاً من فرع بتولا وراح يضرب بعصاه هذا كل من يدخل من غير شلته . وليس الجميع طبعاً ، فهذا الأعرج اللمّاح يعرف الواحد من ظهره حتى في العتمة ، فهذا لا يُضرب ، وذاك يمكن أن يرد بلكمة على الوجه... إذن ، فهو يضرب الضعفاء المصابين ، وقد ضرب شوخوف في إحدى المرّات .

يسمّى «أسبوعياً» ، ولكن دقق في أمره تجده أميراً! فهو يتصادق مع الطباخين!

إنما ، ما هذا الذي يحدث اليوم ، إمّا أن سخرة المجموعات جميعهم خرجوا للعمل في الوقت ذاته ، أو أنهم استغرقوا وقتاً طويلاً بتنظيم العمل ، المهم أن الأعرج ، ومعه خادمه ، وبجانبهم مدير المطعم بذاته يقفون تحت سقيفة المدخل . هؤلاء الكلاب ينظمون الدور من دون جنود الحراسة .

مدير المطعم واحد حقير شبعان ، له رأس كالقرع ، كتفاه بعرض أرشين ، تنضح القوة منه ، يسير كما لو أنه ينط على نوابض ، كما لو أن قدميه نابضان ، ويديه نابضان ، يعتمر قبعة من فرو أبيض لا رقم عليها ، ولا أحد يملك مثل هذه القبعة حتى من الأحرار ، ويلبس جيليه من فرو الحملان ، وعلى صدر هذه الجيليه رقم صغير كطابع البريد ، استثناء خاص بهذا القولكوف ، أمّا ظهره فيخلو حتى من هذا الرقم الصغير .

مدير المطعم لا ينحني أمام أحد ، ويخشاه جميع المعتقلين . وإنه يمسك بيد واحدة بآلاف الحيوات . حاول البعض في إحدى المرّات أن يضربه ، فاندفع الطباخون ذوو الأبواز المتشابهة كلّهم للدفاع عنه .

ستحل مصيبة الآن إذا كانت الـ ١٠٤ قد انتهت من تناول عشائها!

كل من في المعتقل يعرف الأعرج بالوجه ، وهو ، حتى في وجود مدير المطعم لا يدع أحداً يدخل مع مجموعة غير مجموعته ، ويتقصد الاستهزاء بمن يأتي .

من وراء ظهر هذا الأعرج يتسلل البعض أحياناً إلى سقيفة المدخل .

شوخوف ، أيضاً ، تسلل في مرّات سابقة ، أمّا بوجود مدير المطعم ، فلن تستطيع ذلك ، سينقض عليك ، ولن يكون من نصيبك بعد ذلك إلا المستوصف .

أسرع شوخوف نحو السقيفة ، محاولاً أن يعرف بشق النفس أما زالت الـ ١٠٤ هناك ، بين هذه المعاطف السوداء المتشابهة في الظلمة . أمّا هنا فقد كانت المجموعات تتدافع بقوة ، فلا مجال للتراجع ، فجرس النهاية سيدق عما قريب . وكما يتسلق المقاتلون القلاع ، احتل المعتقلون الدرجة الأولى ، فالثانية ، فالثالثة ، فالرابعة... احتلوها واندفعوا إلى السقيفة .

ـ قفوا يا شراميط ـ يصيح الأعرج ، رافعاً العصا في وجه المتقدمين ـ ابتعدوا! وإلا ضربتكم حتى أجعل الدم ينفر من وجوهكم!

ـ ونحن ، ما دنبنا! ـ يصيح الذين في الأمام ـ إنهم يدفعوننا من الخلف!

من الخلف ، من الخلف... هذا صحيح ، لكن من في الأمام لا يقاوم الدفع ، بل يستسلمون له ، فهم يفكّرون بدخول المطعم .

أمسك الأعرج بعصاه ، ووضعها أمام صدره كعارضة السكة الحديدية المغلقة ، وانقض بكل ما يملك من قوة على الذين في الأمام!

مساعد الأعرج أيضاً أمسك بالعصا ، ومدير المطعم أيضاً ، أمسك بها ، من غير أن يخشى تلويث يديه .

دفعوا الحشد بشدة ، فلدى هؤلاء الثلاثة طاقة هائلة ، إنهم يأكلون اللحم . تراجعوا ، من الأمام إلى الخلف ، من في المقدمة دفع بمن يقف خلفه ، قلبوهم كما يقلبون جرزات الحصاد .

ـ يا أعرج ،... لو أطالك لمزقت وجهك! يصيحون من الخلف ، ولكنهم ينحنون تحت الضغط ، وغيرهم يسقطون صامتين ، ويحاولون الوقوف بسرعة صامتين ، قبل أن تدوسهم الأقدام .

نظفوا الدرج من المعتقلين . تراجع مدير المطعم إلى تحت السقيفة ، أمّا الأعرج ، فبقي على الدرجة العليا يصيح بهم ، ويعلّمهم :

ـ اصطفوا خمسة ، خمسة ، يا رؤوس الغنم ، كم مرّة أكرر ذلك ؟! سأدعكم تدخلون في اللحظة المناسبة!

شاهد شوخوف... هناك ، في الأمام ، عند مدخل السقيفة رأس يبدو كرأس سينكا كليفشين ، شعر بفرح غامر ، وصار يدفع الآخرين بمرفقيه ليصل إلى هناك . باعدوا ظهورهم أمامه ، إن لم تكن لديك قوة لن تصل .

ـ السبعة والعشرون! ـ صاح الأعرج ـ ادخلوا .

قفزت السبعة والعشرون مرتقية الدرج باتجاه باب المطعم ، فاندفع من الخلف بتوتر ، وشوخوف أيضاً كان متوتراً ، والجميع يهزون سقيفة الباب ، فيتأرجح المصباح .

التفت مدير المطعم خارجاً من الباب .

ـ عدتم ثانية أيها السفلة ؟

يستشيط الأعرج غضباً ، وينهال عليهم ضرباً بالعصا ، على الكتفين ، وعلى الظهر ، ويدفع بمن تقدم منهم على من يلحق به .

نظّف الدرج من جديد .

رأى شوخوف ، من تحت ، أن باڤلو صار قرب الأعرج ، إذن ، فهو يعمل على إدخال مجموعته ، فتيورين لن يأتي ليتدافع في هذا الزحام .

ـ اصطفوا خمسة ـ خمسة ، الـ ١٠٤ ـ يصيح باڤلو من فوق ـ شقوا طريقكم يا أصدقاء! عليك اللعنة! شقوا طريقكم يا أصدقاء!

ـ دعني أمر يا لوح! أنا من تلك المجموعة . انتفض شوخوف غاضباً .

كان الرجل يتمنى لو يدع شوخوف يمرّ ، إنمّا كانوا يضغطونه من جميع الجهات .

تأرجح حشد المعتقلين ، اختنق لكي يحصل على هذه البالاندا ، البالاندا القانونية .

اختار شوخوف طريقاً آخر : التف من اليسار وأمسك بخشبات الدرابزون ثم قبض على عمود السقيفة ، ورفع جسده عن الأرض ، دافعاً بقدميه واحداً . ضربوه على جنبه ، قذفوه بالشتائم لكنه تمكّن من شق طريقه . وضع قدمه على حافة السقيفة عند أعلى الدرجات ، وانتظر . رآه شباب مجموعته فمدوا أيديهم ليرفعوه .

التفت مدير المطعم خارجاً من الباب .

ـ هيّا يا أعرج ، هات مجموعتين أخريين!

ـ الـ ١٠٤! ـ صاح الأعرج ـ وأنت أيها النذل ، أين تحشر نفسك وضرب الغريب بعصاه .

ـ الـ ١٠٤! صاح باڤلو ، وهو يمرر جماعته .

ـ فووو! ـ دخل شوخوف المطعم ، ومن دون أن ينتظر حتى يقول له باڤلو ـ انطلق للبحث عن صوان فارغة .

يندفع البخار كثيفاً من باب المطعم ، كالعادة ، هناك يجلسون الواحد لصق الآخر كبذور عباد الشمس . أما بين المقاعد فيتدافعون ، ويحشرون أنفسهم ، وبعضهم يشق طريقه حاملاً صوانٍ ملآنة . اعتاد شوخوف على هذا خلال سنواته الطويلة التي أمضاها هنا ، حتى باتت عيناه أكثر حدة ، فها هو يرى أن ٢٠٨ يحمل على صينية خمس قصعات فقط ، هذا يعني ، أنها آخر صينية للمجموعة ، وإلا فلماذا هي ناقصة ؟

التقطه شوخوف ، وراح يوشوش في أذنه ، محاولاً إقناعه :

ـ سآخذ ، يا أخونا ، الصينية من بعدك!

ـ ولكن ، هناك عند الكوة واحد آخر ينتظر ، لقد وعدته...

ـ ينتظر ، أعطه «صرماية» في بوزه ، كيلا يتثاءَب هناك! اتفقنا .

أوصل الصينية إلى المكان ، وأنزل عنها القصعات ، فأمسك شوخوف بها ، وإذا بذلك الموعود يركض نحو الصينية ممسكاً بطرفها الآخر ، لكنه كان أضعف من شوخوف ، فدفعه الأخير إلى الخلف ، إلى حيث كان يشدّها فطار إلى العمود ، وانفكت أصابعه عن الصينية .

وضع شوخوف الصينية تحت إبطه ، وركض لاستلام القصعات . هناك ، كان باڤلو يقف محتفظاً بالدور ، بلا صوانٍ ، يشعر بالملل ، ما أن رأى

شوخوف حتى شعر بالنشوة :

ـ إيڤان دينيسيتش! ـ ودفع بمساعد عريف السابعة والعشرين الذي وقف أمامه ـ مررّنا! ما بك تقف بلا جدوى ؟ فليس لديك صوانٍ . وها هو غوبتشيك اللعين يختطف صينية أخرى .

ـ تثاءبوا قليلاً ـ ضحك غوبتشيك وضحكا ـ فاختطفت الصينية!

سيصبح غوبتشيك هذا معتقلاتي عن حق وحقيق ، لن تمضي ثلاث سنوات أخرى ، حتى يكبر ويتعلم ، ولن يكون قدره أقل من مقطِّع خبز .

أمر باڤلو يرمولاييف السيبيري الضخم بأخذ الصينية الثانية (هذا اليرمولاييف محكوم بعشر سنوات على وقوعه في الأسر .) أرسل غوبتشيك للبحث عن طاولة ما يشارف شاغلوها على الانتهاء من عشائهم . أما شوخوف ، فوضع صينية في كوة الإمداد بشكل منحرف ، وانتظر .

ـ الـ ١٠٤!!

صاح باڤلو ليدلّهم على الكوة . فهنا توجد خمس كوات ، ثلاث منها عامّة لتقديم الطعام ، وواحدة لأولئك الذين يأكلون بناء على قوائم خاصّة (عشرة من مرضى القرحات ، وجميع أفراد المحاسبة بالواسطة طبعاً) ، أمّا الكوة الأخيرة ، فلإعادة القصعات المستعملة (عند تلك الكوة ، بالذات ، يتشاجرون ، مِنْ نصيب مَنْ سيكون لعق العالق بالقصعات) . الكوات ليست مرتفعة ، بل هي أعلى من الخصر بقليل : ولا تستطيع أن ترى الطباخين من خلالها ، فكل ما تراه أيديهم ومغارفهم .

يد الطباخ بيضاء ، ناعمة ، لكنها سمينة مكسوة بالشعر . يد ملاكم حقيقي ، وليست يد طباخ ، أخذت هذه اليد قلم الرصاص ، وكتبت على

الحائط في القائمة التي لديه :

ـ الـ ١٠٤ ، أربع وعشرون قصعة!

جاء بانتيليف إلى المطعم . ابن الكلبة هذا ليس مريضاً كما يدّعي .

أخذ الطباخ مغرفة عملاقة تتسع لثلاثة ليترات ، وصار يحرك بوساطتها الحساء في القدر ، يحرّك... يحرّك... ويحرّك (القدر أمامه لم يصب منه لأحد بعد ، فالحساء فيه يكاد يبلغ الحافة ، والبخار يتصاعد منه) ، ثم يلتقط المغرفة عيار الـ ٧٥٠ غرام ، ويغرف بها ، من دون أن يغطسها في الحساء عن آخرها :

ـ واحدة ، اثنان ، ثلاث ، أربع...

علّم شوخوف القصعات التي صب فيها الطباخ الحساء من قِدر الطبخ ، قبل أن تترسب عوالق الحساء ، وتلك كانت من نصيبها السائل لا أكثر . وضع على صينية عشر قصعات ، وحملها . لوّح له غوبتشيك من عند صف الأعمدة الثاني بيده :

ـ إلى هنا ، يا إيڤان دينيسيتش ، إلى هنا!

حَمْلُ القصعات ليس كهَز الأكمام . سار شوخوف بانسيابية كيلا تصيب الصينية أية دفعة ، بينما كانت حنجرته تعمل بكامل طاقتها :

ـ إيه ، أنت الـ ٩٢٠!... انتبه ياعم!... ابتعد أنت عن الطريق يا شاب!...

في مثل هذا الزحام ، ليس من السهل أن تنقل قصعة واحدة من دون أن يتقلقل السائل الذي فيها وينكسب ، فكيف إذا كنت تحمل عشراً . ورغم ذلك أوصل شوخوف الصينية بسلام ، ووضعها على طرف الطاولة المحرر من قبل غوبتشيك بهدوء ، حتى إن أية قطرات جديدة لم تبد عليها .

فكّر شوخوف بزاوية الصينية التي سيديرها باتجاه مكان جلوسه ، بحيث تكون هناك القصعتان الآكثر كثافة من الحساء .

ها هو يرمولاييف يحمل عشر قصعات أخرى ، أما غوبتشيك ، فأسرع لعون باڤلو بحمل آخر أربع قصعات ، على الأكف .

كان كيلديفس قد جاء بالخبز على صينية . حصة الخبز اليوم حسب الإنجاز ، للبعض مائتي غرام ، وللبعض الآخر ثلاثمائة ، أما شوخوف فسيحصل على أربعمائة ، أخذ لنفسه أربعمائة من طرف الرغيف ، ولسيزر مائتين من وسطه .

تدافع المعتقلون من كافة أنحاء المطعم ليحصلوا على عشائهم ، ولتتدبر أمرك ، وتجد لنفسك مكاناً تجلس فيه . ناولهم شوخوف القصعات ، مسجلاً في ذاكرته الشخص الذي يستلم ، محافظاً على زاوية الصينية الخاصة به .

وضع في إحدي القصعتين الدسمتين ملعقة ، أي أنه حجزها . أخذ فيتيوكوف قصعة من بين أوائل المعتقلين ، وذهب . أدرك أنه لن يحصل في مجموعته على أي شيء ، فالأفضل له ، إذن ، أن يتجوّل في المطعم ، أن يتجقلن ، فربما يكون هناك اليوم من لا ينهي قصعته (عندما يترك واحد ما في قصعته شيئاً ما يؤكل ويدفع به جانباً ، ينقض على القصعة الغريبة أحياناً معتقلون عدة)

حسبوا الحصص مع باڤلو ، فتطابقت على ما يبدو . ترك شوخوف لأندريه بروكوفيڤيتش واحدة من القصعات الدسمة ، أمّا باڤلو فأفرغ حصته في وعاء ألماني ضيّق مزود بغطاء ، يمكن حمله تحت المعطف ، وضغطه على الصدر فلا يعود يظهر .

سلّموا الصواني . تناول باقلو حصته المضاعفة ، وأخذ شوخوف قصعتيه ، أيضاً . لم يعد هناك ما يتحدثان عنه ، لقد حلت تلك الدقائق المقدّسة .

نزع شوخوف قبعته ، ووضعها على ركبته . تحقق من إحدى القصعتين بالملعقة ، ثم من الثانية ، لا بأس ففي الحساء بعض من نتف السمك . عموماً ، البالاندا مساء تكون أكثر سيولة مما هي في الصباح ، ففي الصباح يجب إطعام المعتقلين كي يستطيعوا العمل ، أمّا في المساء ، فسينامون في كل الأحوال ، ولن يفطسوا إذا لم يتعشوا جيّداً .

بدأ شوخوف بتناول الطعام . شرب ، في البداية ، السائل من إحدى القصعتين ، شربه من حافة القصعة . وها هو قد انسكب دافئاً ، وتغلغل في جسده . داخله كُلّه يخفق لاستقبال لبالاندا . حسنٌ ، هذه هي اللحظة القصيرة ، التي يعيش من أجلها المعتقل .

ليس هناك ما يّشعر شوخوف بالغبن الآن ، لا الحكم الطويل ، ولا يوم العمل الطويل ، ولا ارغامهم على العمل في يوم الأحد ، فما يفكر به الآن هو : نحن سنبقى على قيد الحياة ، سنعيش ، إنشاء الله ، كل شيء سينتهي!

بعد أن انتهى من شرب السائل من كلتا القصعتين ، نقل ما تبقى في إحداهما إلى الثانية ، هزّها جيداً ، وقحفها بملعقته . هذا أريح له ، فهو ليس مضطراً الآن للتفكير بالقصعة الثانية ، ولن يكون عليه حمايتها بعينيه ويديه . تحررت عيناه الآن ، أزاح نظره باتجاه قصعة جاره . كان في قصعة الجار الجالس عن يساره الماء وحده . هؤلاء المعتقلون السفلة ، ماذا يفعلون باخوتهم المعتقلين!

صار شوخوف يأكل قطع الملفوف مع بقايا السائل . تصادف وجود

قطعة بطاطا واحدة في القصعتين . كانت القطعة في قصعة سيرز . قطعة متوسطة الحجم من بطاطا مجمّدة ، طبعاً ، تجلّدت ، واحلّوت . أمّا ما يتعلق بالسمك ، فيمكن القول إنه غير موجود ، أحياناً يلمع في القصعة غضروف صغير ، وكل حسكة ، كل زعنفة هنا يجب أن تلاك جيداً ، وتمص جيداً ، فعصيرها مفيد . وهذا كُلّه يحتاج إلى المزيد من الوقت ، و لا بأس على شوخوف الآن ، فهو لا يستعجل إلى أي مكان ، فلديه اليوم عيد : انتزع على الغداء حصتين ، وعلى العشاء حصتين . إذن فمن أجل هذا الطقس الآن ، يمكن التضحية بحاجات أخرى .

أيذهب إلى اللاتفي من أجل التبغ ـ فكّر شوخوف ـ فربما لن يبقى لديه تبغ حتى الصباح!

تعشّى شوخوف من دون خبز : أكل حصتين مع الخبز ، وجبة أدسم مما يجب ، والأفضل ترك الخبز إلى الغد ، فالبطن لا يعرف الحمد ، ولا يتذكر خير الأمس ، فما أن يأتي الغد حتى يقرقر طلباً للطعام من جديد .

أكل شوخوف البالاندا من دون أن يعير اعتباراً لمن قد يكون حوله ، فذلك غير ضروري . هو لم يقتنص من أحد حصته ، بل أكل حصتيه القانونيتين ، ومع ذلك لاحظ أن المكان المقابل له بالضبط الذي شغر من صاحبه ، شغله في الحال عجوز طويل رقمه يو ـ ٨١ . كان شوخوف يعرف أن هذا الرجل من الرابعة والستين ، وبينما كان يقف في الطابور أمام مكتب الطرود تناهى إلى سمعه أن الرابعة والستين كانت تعمل اليوم في «المدينة الاشتراكية» بدل مجموعتهم المائة وأربعة ، شد المعتقلون الأسلاك الشائكة ، طوال اليوم ، هناك ، في العراء ، كانوا يبنون لأنفسهم معتقلاً جديداً .

حكوا لشوخوف عن هذا العجوز ، قالوا إنه سيبقى لأجل غير مسمّى في السجون والمعتقلات ، فهو مقيم هنا ما دامت السلطة السوفيتية قائمة ، لم يشمله أي عفو ، وما أن ينهي عشر سنوات ، حتى يضيفوا له عشراً أخرى غيرها .

راح ، الآن ، شوخوف يتفحصّه عن قرب . كان ظهره مستقيماً ، بخلاف كل الظهور المعتقلية المحدّبة ، وبدا من وراء الطاولة كأنه يجلس على شيء وضعه تحته . لم يكن على رأسه أي شيء . شعره تساقط ، حتى لم تبق شعرة منه من زمان ، من حلاوة الحياة . عينا العجوز لم تجوبا المطعم ، ملاحقتين كل ما يدور فيه ، بل حدقت في شيء ما فوق شوخوف ، كأنهما لا تريان . كان ، بهدوء ، يأكل البالاندا الفارغة بملعقة خشبية ، مكسورة الحافّة . لم يحشر رأسه في القصعة كما فعل الجميع ، بل حمل الملعقة عالياً ، وأوصلها إلى فمه . لم يكن في فمه أسنان ، لا من الأعلى ولا من الأسفل ، ولا حتى أي سن . مضغت لثته المتليّفه الخبز بدل الأسنان . كان وجهه منهكاً ، لكنه لم يصل بعد إلى حال الفتيل ، الناحل ، المعقد ، بل بدا كحجر أسود مخدّد . كان يمكن أن ترى من خلال يديه المتشققتين ، المسودتين ، أنه لم يكلّف إلا نادراً ، بالأعمال السهلة على مدى سنوات عمره التي أمضاها في المعتقل ، وترى أن قوة رفض الاستسلام ترسخت فيه .

هذا العجوز لا يضع قطعة الخبز ، كما يفعل الجميع ، على الطاولة القذرة مباشرة ، بل يضعها على خرقة نظيفة ، مغسولة ، يفرشها لهذا الغرض .

لم يكن لدى شوخوف الوقت الكافي ليمعن النظر فيه . فما أن انتهى من تناول طعامه ، حتى لعق ملعقته ، وحشرها في قصبة جزمته ، وضغط قبعته على رأسه ، ومضى ممسكاً بيده بحصته وحصة سيزر من الخبز ، وخرج .

كان الخروج من المطعم يتم من باب ثانٍ ، يقف قربه اثنان من السخرة ، لا يجيدان شيئاً في الحياة ، سوى رفع الدرباس ، وتمرير الناس ، وإعادة الدرباس ثانية .

خرج شوخوف ممتلئ البطن ، راضياً عن نفسه ، ورغم أن موعد البيت قريب ، قرر أن يتجه بسرعة إلى اللاتفي ، حتى قبل أن يوصل خبزه إلى براكتهم التاسعة . أسرع الخطو باتجاه البرّاكة السابعة .

كان القمر يتوسط قبة السماء ، نظيفاً ، أبيض كرسم محفور على صفحتها . والسماء كانت صافية ، والنجمات كن يتلألأن فيها هنا وهناك . لكن ، لا وقت لدى شوخوف ليتملى السماء . إنما ما يراه كان يجعله يدرك بأن البرد لن يتراجع . واحد من المعتقلين سمع من الأحرار المأجورين أنهم ينتظرون ثلاثين درجة تحت الصفر في المساء ، وأربعين قبيل الصباح .

كان يتناهى من البعيد ، البعيد صوت هدير جرار ، أمّا جانباً ، على الطريق ، فكانت جرافة تعمل مصدرة الزعيق . كان صرير الثلج يخرج من تحت جزمة اللباد لواحد يسير هنا ، وآخر يعدو هناك . لكن الريح لم تهب .

كان شوخوف يريد أن يشتري التبغ ، كما اشتراه من قبل ، الكأس بروبل ، مع أن سعر مثل هذا الكأس في الحرية ، هناك ، ثلاث روبلات ، أو ربما أكثر ، تبعاً لجودته ، أمّا هنا فلمعتقل الأشغال الشاقة أسعاره الخاصة . فلا مجال لامتلاك المال هنا ، وما أقل من يملك النقود ، ولهذا بالذات فإن قيمة النقود كانت عالية جداً في المعتقلات . لم يدفعوا للمعتقلين مقابل عملهم كوبيكاً واحداً في هذا المعتقل ، أما هناك في أوست إيجما ، فكان شوخوف يحصل على ثلاثين روبلا على أية حال . وحتى أولئك الذين كان أقرباؤهم يرسلون لهم النقود بالبريد ، لم يكونوا يستلمون منها شيئاً ، بل

تسجل في حسابهم هنا لا أكثر ، ويسمح لهم ، أن يشتروا ، مرّة في الشهر ، من دكان المعتقل الصابون ، والكعك المتعفن ، ودخان «البريم» تعجبك البضاعة ، أم لا تعجبك ، تكتب شكوى للقيادة ، أم لا تكتب... كل ذلك سيان فستأخذ ما يقدم لك ، وأن شئت فلا تأخذه فقيمته ، في كل الأحوال ، ستحسم من حسابك لديهم .

أمّا شوخوف ، فلم يكن يحصل على النقود إلا من عمله الخاص : يخيط خفاً من الخرق المتوافرة لديهم لهذا ، يحصل على روبلين ، يرقع سترة لذلك ، يحصل على أجر أيضاً...

البراكة السابعة ليست كالتاسعة لا تتكون من شقين رئيسيين ، ففي التاسعة ممر طويل تنفتح عليه عشرة أبواب ، في كل حجرة مجموعة ، وهناك حجرة المرحاض ، وحجرة خاصّة بأسبوعي البرّاكة ، وحجرة الفنانين .

دخل شوخوف تلك الحجرة حيث يعيش اللاتفي . كان اللاتفي مستلقياً على سريره السفلي ، رافعاً قدميه إلى أعلى ، يتحدث مع جاره اللاتفي ، أيضاً ، بلغتهما .

جلس شوخوف قربه : السلام عليكم ، عليكم السلام . كانت الحجرة صغيرة تكاد تسمع فيها كل ما يدور . من الذي جاء ، ولماذا أتى! كلاهما يفهم الأمر ، لذلك يجلس شوخوف ماطاً كلماته : كيف أحوالكم ؟ لا بأس . اليوم برد . نعم برد .

انتظر شوخوف حتى عاد الجميع إلى أحاديثهم السابقة (إنهم يتجادلون حول الحرب في كوريا : هل سيؤدي هجوم الصينيين إلى حرب عالمية ، أم لا) ، ثم انحنى قرب اللاتفي :

ـ تبغ!... يوجد ؟

ـ يوجد!

ـ دعني أر!

فك اللاتفي قدميه من تشابكهما ، مدّهما في الممر ، ونهض . هذا اللاتفي (كحتوت) ، يخشى ، دائماً ، وهو يملأ الكأس أن يضع فيه نتفة من التبغ زيادة .

عرض على شوخوف كيس التبغ ، فتحه بحرص . أخذ شوخوف بأصابعه بعض التبغ ، وتمّلاه : إنه التبغ ذاته الذي أخذ منه في المرّة السابقة ، بلونه البني المحمر ، والفرمة ذاتها . قرّبه من أنفه ، وشمّه ، إنه هو بالذات . ولكنه قال للاتفي :

ـ ليس من ذاك التبغ!

ــ ذاك ، ذاك ــ غضب اللاتفي ــ لن تجد لدي صنفاً آخر أبداً ، لدي صنف واحد ، دوماً .

ــ ليكن ، لابأس ـ وافق شوخوف ـ اكبس لي كأساً ، سأدخن ، ربما آخذ واحداً ثانياً .

قال شوخوف «اكبس» متعمداً ، لأن اللاتفي كان يسقط التبغ المفروط في الكأس حتى يبقى متخلخلاً .

أخرج اللاتفي من تحت مخدته كيس تبغ آخر ، أكثر انتفاخاً من سابقه ، وأخرج الكأس من الكومود . ومع أن الكأس من البلاستيك ، إلا أنه يعادل بالنسبة لشوخوف كأساً معيّارياً مضلعاً .

يصب اللاتفي التبغ في الكأس

ـ أي ي! اضغطه ، اضغطه! ويحشر شوخوف اصبعه في الكأس .

ـ أعرف ذلك من دونك! يسحب اللاتفي الكأس غاضباً ، ويضغط التبغ ولكن برفق ، ثم يسكب فيه من جديد .

كان شوخوف في هذه الأثناء قد فك أزرار سترته ، وتحسس بأصابعه ورقة محشورة في حشوتها القطنية . صار شوخوف يدفعها بكلتا يديه في القطن ، ويحشرها باتجاه الثقب الصغير ، باتجاه ذاك المزق المخاط بيده بقطبتين . وما أن أوصلها إلى المزق حتى قطع الخيط بأظافره ، وطوى الورقة على طولها ، رغم أنها كانت مطوية من دون ذلك ، وأخرجها من الثقب . كان هناك روبلان قديمان مدعوكان ما عادا يصدران طقطقة الورق الجديد .

انتظروا إذن الرحمة من عمكم أبي شنب*! فهو لا يثق بأخيه ، الذي من أمه وأبيه ، فكيف يثق بكم أيها البلهاء .

الجيد في معتقل الأشغال الشاقة ، هو التحرر من الدساسين .

في أوست إيجما إذا قلت همساً إن الكبريت في البلد مفقود ، يبقونك في المعتقل عشرة أعوام إضافية ، أما هنا ، فاصرخ بما تريد من سريرك العلوي ، فلن يشي بك أحد على ذلك ، إنمّا هنا ، لا وقت لديك للتفكير بأي شيء .

ـ إخْ ، إنك تسقط التبغ ، ولا تكبسه . امتعض شوخوف .

ـ لا ، لا ، خذ . أضاف اللاتفي قليلاً إلى الكأس .

---

* العم أبو شنب : المقصود به ستالين .

أخرج شوخوف كيس التبغ من جيبه الداخلي ، وصب فيه التبغ الذي في الكأس ـ ماشي الحال ـ قرر شوخوف ، بلا رغبة ، تدخين اللفافة الأولى على الماشي ـ اكبس لي كأساً ثانياً .

وبعد أن صب الكأس الثاني في كيسه ، أعطى اللاتفي الروبلين ، ثم هزّ رأسه مودّعاً وخرج .

ما أن خرج شوخوف من هنا ، حتى ركض مسرعاً إلى براكتهم ، كي لا يفوّت فرصة ملاقاة سيزر عند عودته من استلام الطرد . لكن سيزر ، في هذه الأثناء ، كان يجلس على سريره ، يتفحص الارسالية . كان قد رتب ما حصل عليه على السرير ، وعلى الكومود ، لكن ضوء المصباح الكهربائي لم يكن يسقط عليها مباشرة ، فقد كان لوح سرير شوخوف العلوي يحجب الضوء ، وكان في الأسفل عتمة بعض الشيء .

جاء شوخوف ، وانحنى بين سريري المقدم البحري وسيزر ماداً يده بحصة المساء من الخبز .

ـ هذا خبزكم ، سيزر ماركوڤيتش .

إنه لم يقل : « هل استلمتم ؟ » لأن ذلك يعني إشارة إلى الدور الذي حجزه له ، وتلميحاً بحقه في نصيب مما هناك . فهو من دون ذلك يعرف ما يكسب وشوخوف لم يصبح جقلاً حتى بعد مضي ثماني سنوات من الأشغال الشاقة العامة ، وهذا ما يتأكد يوماً بعد يوم مع مرور الوقت . إنما عيناه ما كانتا تأتمران بأمره ، عيناه عينا باشق... ركضتا ، انزلقتا في لحظة خاطفة على أشياء سيزر ، الموضوعة على السرير ، والكومود .

ومع أن تلك الأشياء ما تزال ملفوفة بالورق ، والأكياس لم تفتح بعد ،

إلا أن نظرة شوخوف السريعة ، وحاسة الشم القوية لديه تؤكدان أن سيزر حصل على سجق ، وحليب مركّز ، وسمكة مدخّنة ثخينة ، وشحم خنزير محمّص تفوح رائحته ، وبسكويت برائحة أخرى ، وكيلو غرامين من السكر... ويبدو أنه حصل أيضاً على زبدة ، وتبغ ، وسكائر... وأشياء أخرى .

أدرك شوخوف وجود كل هذه الأشياء خلال تلك البرهة القصيرة حين قال :

ـ خبزكم ، سيزر ماركوفيتش .

لكن سيزر المنتشي ، الغارق في أشيائه كالسكران ـ وأي شخص يستلم إرسالية من المواد الغذائية سيصبح كذلك ـ أشاح بيده عن الخبز :

ـ احتفظ به لنفسك ، يا إيفان دينيسيتش!

البالاندا ومائتا غرام من الخبز فوقها ، هذا عشاء كامل ، طبعاً! حصة كاملة من إرسالية سيزر لشوخوف .

لم يتنظر شوخوف لحظة بعد ذلك ، ولم يحلم بشيء من أطعمة سيزر المرتبة . فلا أسوأ من أن تؤمل بطنك عبثاً بما لن تحصل عليه .

وها هي أربعمائة غرام من الخبز ، ومائتان أخرى ، وهناك في الفراش ، لا أقل من مائتين ، ألا يكفي! تلوك الآن مائتين ، وغداً صباحاً تلتهم خمسمائة وخمسين ، وتأخذ معك ، غداً ، إلى الشغل أربعمائة... يا لها من عيشة! أمّا تلك التي في الفراش فلتبق هناك .

لحسن الحظ ، خاط شوخوف الخبز في فراشه ، ففي الخامسة والسبعين سرقوه من كومود أحدهم... فإذا لم يعجبك الحال اذهب واشتك للسوفييت الأعلى! الآخرون يفكّرون هكذا : صاحب الطرد كيس محشو ، فانتف منه!

والعرف معروف : من يأتيه شيء بسهولة ، يفقده بسهولة .

أصحاب الطرود أنفسهم يحلمون أحياناً ، قبل استلام طرودهم بكسب لقمة طعام إضافية من أحد ما ، أمّا هنا ، فلا يمكنهم إلا أن يعطوا مفتش الإرساليات ، وعريف المجموعة ، وحاجب التوزيع ، فإن لم تعطه يجعل طردك يختفي ، ولن يرد ذكره في القوائم أسبوعاً كاملاً... وكيف يمكنهم ألا يعطوا ، أيضاً الخازن في غرفة الأمانات ، حيث يضطر الواحد لصون ما لديه ، حيث سيذهب سيزر قبل التفقد غداً صباحاً ، حاملاً في كيس ما حصل عليه ليحميه من اللصوص ، ومن العسس ، ومن أوامر الإدارة ، فإن أنت لم تعطه ما يرضيه ، فسيأخذ من دونك نتفة أكثر مما تريد ، فهو يجلس هناك طوال اليوم كالجرذ مع أطعمة الآخرين ، مغلقاً على نفسه الباب ، فهيهات أن تراقبه! ثم ، ماذا عمن أسدى لك خدمة ، كشوخوف ؟ وماذا عن مشرف الحمام! فمن أجل الحصول على ملابس داخلية أقل سوءاً لا بد من إعطائه شيئاً ؟ والحلاق كي يحلق لك على الورق ، أي يمسح شفرة الموس بورقة وليس بركبتك العارية ، كيف لك ألا تعطيه ثلاث ـ أربع سجائر ؟ وفي قسم التوجيه السياسي لكي يضعوا رسائلك جانباً ، لكي لا تضيع الرسائل عندهم ؟ وإذا فكرت يوماً بتذوق طعم الراحة ، بالاستلقاء على جنبك في المعتقل ، فهل تستطيع ذلك من دون أن تعطي الطبيب شيئاً مما لديك! وكيف تكون مع جارك ، الذي تأكل معه على طاولة واحدة ، كحال المقدم مع سيزر ، أيمكن ، بحال من الأحوال ، ألا تعطيه ؟ فهو ، أمامك ، يراقب كل لقمة لديك... حتى عديم الضمير لا يستطيع أن يقاوم ، إذن ، فلا بد من إعطائه شيئاً ما...

وبعد كل ذلك فليحسد من يحصل على طرد أولئك الذي يرون الفجلة في

اليد الغريبة أكبر . أمّا شوخوف فرجل مجرّب اختبر الحياة ، ولا يؤمل بطنه بخبز الآخرين .

إلى ذلك الحين . كان شوخوف قد خلع جزمته ، وتسلق سريره ، وأخرج شفرة المنشار من قفازه ، وقرر أن يبحث في غده عن حجر يشحذ الشفرة عليه ، ويصنع منه سكين حذّاء ، ففيما لو شحذها في الصباح وفي المساء ، سيتمكن في غضون أربعة أيام من صنع سكين فاخر ، بشفرة حادة محنية . أما الآن ، فعليه أن يخبئ الشفرة حتى الصباح ، عليه أن يحشرها تحت خشبة من خشبات السرير . ومادام المقدم ، الآن ، ليس على سريره تحت شوخوف ، هذا يعني يمكن حشرها دون خوف من سقوط فتات الخشب على وجهه .

رفع شوخوف ، من جهة الرأس ، فراشه الثقيل ، المحشو ، ليس بنشارة الخشب الناعمة ، بل بكسرات من الخشب حادة ، وصار يخفي الشفرة .

رأى ذلك جيرانه من فوق : اليوشكا الانجيلي ، والأخوان الاستونيان عبر الممر ، لكن شوخوف لم يتوخ الحذر من هؤلاء .

مرَّ في البرّاكة فيتيوكوف مجهشاً بالبكاء ، دامي الشفتين ، محني الظهر... يعني ضربوه من جديد من أجل قصعة طعام . سار فيتيوكوف دون أن يتلفت إلى أحد ، ودون أن يخفي دمعه ، بمحاذاة جميع أفراد مجموعته ، تسلّق إلى أعلى ، وانكب على سريره ، لو نظرت إليه لأثار شفقتك . يبدو أنه لن يعيش حتى نهاية حكمه ، إنه لا يحسن تدبر أموره .

في هذا الوقت ، ظهر المقدم مرحاً ، يحمل بيده شاياً خاصاً في قدر صغير .

في البرّاكة ، يوجد برميلان خشبيان مليئان بالشاي ، ولكن أي شاي هذا الذي فيهما! ؟ لا أكثر من ماء دافئ ملون ، بل ومقرف في الحقيقة ، تفوح منه رائحة الخشب المتعفن... هذا الشاي للمعتقلين البسطاء ، أمّا المقدم بوينوفسكي ، فيبدو أنه أخذ حفنة شاي حقيقي من عند سيزر . رماها في قدره الصغير ، وركض لإحضار الماء المغلي .

وها هو الشاي المغلي في يده ، ترتسم على وجهه علامات الرضا ، يتدبر أمر جلوسه قرب الكومود في الأسفل .

« كدت أحرق أصابعي بالماء المغلي! قال متباهياً! .

هناك ، في الأسفل ، كان سيزر يفلش ورقة مطوية كتب عليها شيء ما .

أفلت شوخوف طرف الفراش من يده كي لا يرى ، ولا يغتم . لكن . ها هي أمورهم لا تسير سيراً حسناً من دونه : يقف سيزر في الممر على طول قامته ، ناظراً باتجاه شوخوف ، غامزاً « يا دينيسيتش! هناك ،... هات ، عشر ميّات » هذا يعني ، اعطهم السكين الصغير المطوي ، ومثل هذا السكين ، موجود عند شوخوف ، وهو يخبئه ، أيضاً ، في فراشه .

حتى لو طويت الإصبع الوسطى في يدك لكان هذا السكين أصغر منه ، لكن هذا الحقير الصغير يفرم شحم الخنزير بسماكة الأصابع الخمس .

صنع شوخوف هذا السكين بيده ، وشحذه بيده . أخرج السكين من مخبئه ، وأعطاه لسيزر ، هزّ سيزر رأسه واختفى في الأسفل .

السكين ، أيضاً ، دخل إضافي ، ولكن مقابل إخفائك له تحصل على زنزانة . أولئك الذين بلا ضمير ، فقط ، يمكن أن يتصرفوا هكذا هات

السكين لنقطع الشحم ، ولك خرين* في فمك على ذلك . إنما سيزر ليس منهم ، فها هو يدين لشوخوف مرّة أخرى .

بعد أن سوى شوخوف أمره مع الخبز والسكين ، أخرج كيس التبغ ، وأخرج من هناك كمشة تبغ تساوي تلك التي استعارها ، ومدّها عبر الممر ، باتجاه الاستوني . ، ممتناً له . باعد الاستوني شفتيه كما لو أنه يبتسم ، تمتم بشيء ما لجاره ، أخيه ، وصنع من هذا التبغ لفافة ، يعني ، هما يريدان أن يجربا أي تبغ هذا الذي أعطاهما شوخوف إياه .

صحة! جرّبوه كما تشاؤون ، فليس هو أسوأ من تبغكم . كان شوخوف يود لو يجرب هذا التبغ بنفسه ، لكن ساعة ما في داخله تقول له لم يتبق حتى التفقد إلا القليل من الوقت . إنه الوقت الذي يجوب فيه السجانون البرّاكات .

لكي تدخن عليك الآن أن تخرج إلى الممر بين نصفي البرّاكة لكن شوخوف يشعر بأن مكانه ، هنا في الأعلى ، أدفأ ، رغم أن البرّاكة لا تعرف الدفء على الإطلاق ، فانظر تر الندف الثلجي معلقاً على السقف . تتجلد أثناء الليل من شدة البرد ، أمّا الآن ، فيبدو الأمر محتملاً .

بعد أن انتهى شوخوف من تلك الأشياء ، بدأ ينتف من المائتي غرام قليلاً ، فقليلاً من الخبز ، يتناهى إلى سمعه صوت المقدم وسيزر في الأسفل يشربان الشاي : « كلوا أيها المقدّم ، كلوا لا تخجلوا! خذوا سمكة مدّخنة ، كلوا سجقاً ، خذوا » . « شكراً ، ها أنا آخذ! » . « ادهنوا الخبز بالزبدة! ،

---

* خرين : فجل حار . في اللغة الروسية المحكية تستخدم كلمة خرين للدلالة على سوء الحال ، ومن أمثلة ذلك : لا يوجد أي خرين (أي شيء) ؛ خرين لك (بمعنى لن تنل شيئاً) ؛ الخرين ليس أحلى من الفجل (بمعنى كل شيء مر أو سيء) ؛ حياة أو أحوال خرينوفية (بالغة السوء)...

إنه خبز موسكوفي حقيقي!» . «آي ، ياي ياي... يصعب التصديق بأنهم ما يزالون يخبزون خبزاً حقيقياً في مكان ما على سطح الأرض! أتعرفون ، مثل هذه الوفرة تذكرني بحادثة حدثت لي : كان ذلك قبل مؤتمر يالطا* في سيفاستوبول ، كانت المدينة جائعة بحق ، وكان علينا أن نستقبل هناك الأميرال الأمريكي ونرافقه ليتفرج على المدينة . وها هم يجهزون أحد المخازن خصيصاً ، يتخمونه بالمواد الغذائية... كان يجب أن تفتح أبواب المخزن بعد أن نجتاز نصف الطريق إليه ، ورغم ذلك لم يحتج الأمر أكثر من دقيقة واحدة حتى اكتظ المخزن بالناس . ويا للمواد الغذائية التي كانت هناك!

«زبدة ـ يصرخون ـ انظر ، زبدة ، خبز أبيض!...»

ارتفعت أصوات مائتي حنجرة في نصف البرّاكة . وسط هذا الضجيج تمكن شوخوف من التقاط صوت آت من الخارج ، فكما لو أنهم قرعوا على سكة الحديد هناك ، لكن أحداً هنا لم يسمع . لاحظ شوخوف شيئاً آخر أيضاً ، فقد دخل السجّان كورنوسينكي إلى البرّاكة ، وهو شاب صغير ، بوجه متورّد . كان يحمل بيده ورقة ، ومن خلال حمله للورقة ، ومن خطواته كان واضحاً أنه جاء إلى هنا لا ليمسك بالمدخنين ، ولا ليخرج المعتقلين إلى الساحة للتفقد ، بل جاء في طلب أحد ما .

نظر كورنوسينكي إلى الورقة متسائلاً :

---

* مؤتمر يالطا ، أو مؤتمر القرم : انعقد في يالطا ، في الفترة الواقعة بين ٤-١٠ شباط ١٩٤٥ . التقى فيه زعماء الدول الحلفاء الثلاث : ستالين عن الاتحاد السوفيتي ، وروزفلت عن أمريكا ، وتشرشل عن بريطانيا ، واتفقوا على تقسيم ألمانيا ، وعلى مبادئ العلاقات الدولية بعد الحرب ، وعلى تأسيس الأمم المتحدة . ووافق الاتحاد السوفيتي على القتال مع الولايات المتحدة ضد اليابان بعد أن تنتهي الحرب في أوربا (خلال ٢-٣ أشهر) .

ـ أين الـ ١٠٤ ؟

ـ هنا . أجابوه .

أما الاستونيان ، فقد أخفيا لفافة التبغ ، وبددا الدخان .

ـ وعريف المجموعة ، أين هو ؟

ـ ماذا هناك ؟ بالكاد أنزل تيورين قدميه عن السرير .

ـ الذين كان عليهم أن يملؤوا الاستمارات ، هل ملؤوها ؟

ـ يكتبون ، يملؤون . أجاب تيورين بثقة .

ـ لقد حان وقت تسليمها .

ـ الشباب شبه أميين ، وهذا الأمر ليس هيّناً عليهم ـ (كان هذا الكلام يخص سيزر والمقدم . ممتاز ، العريف ، دائماً ، كلامه على رأس لسانه) ـ وليس لدينا لا حبر ، ولا أقلام .

ـ يجب أن يكون لديكم .

ـ يصادرونها .

ـ انتبه إلى نفسك يا عريف ، إذا لم تضبط لسانك أسوقك إلى الزنزانة!
ـ توعّده كورنوسينكي بلا حقد ـ غداً صباحاً ، قبل إجراء التفقد الصباحي ، يجب أن تكون الاستمارات مسلّمة في غرفة الحرس! اذكروا في الاستمارات أن الأشياء الممنوعة سلّمت لمستودع الحاجيات الخاصة ، لا تنسوا ذلك ، مفهوم!

ـ مفهوم!

راحت على المقدم ـ فكّر شوخوف ـ أمّا المقدم ذاته فلم يكن يسمع شيئاً ، فقد كان منكبّاً على الشحم!

ـ الآن ، إذن ـ قال السجّان ـ هل شين ٣١١ من عناصرك ؟

ـ يجب أن أنظر في القوائم ـ أجاب العريف محاولاً التهرب ـ وهل يمكن حفظ مثل هذه الأرقام الكلبية!

يحاول العريف بذلك أن يحمي المقدم بوينوفسكي ، وإن يكن حتى المساء ، حتى موعد التفقد على الأقل .

ـ هل بوينوفسكي بينكم!

ـ آ! نعم أنا ـ أجاب المقدم من مخبئه تحت سرير شوخوف . فعلاً ، القملة الأسرع تقع في اليد قبل غيرها .

ـ أنت ، صحيح شين ٣١١ ، جهّز نفسك .

ـ إلى أين ؟

ـ أنت تعرف .

تنهد المقدم ، غاصاً ، محشرجاً ، فربما كان من الأسهل عليه أن يُخرج وحدته المقاتلة على المراكب الحاملة للألغام في ليل معتم هائج ، من أن يخرج ، الآن ، من هذا الحديث الوديّ إلى الزنزانة الجليدية .

ـ كم ليلة! سأل بوينوفسكي بصوت مستسلم .

ـ عشر ليلات . هيّا أسرع ، هيّا!

في هذه اللحظة ، صاح السخرة : تفقد... ، تفقد... هيا اخرجوا إلى التفقد!

هذا يعني ، أن السجّان الذي أرسلوه للتفتيش ، صار داخل البرّاكة .

التفت المقدم مفكّراً ، أيأخذ معه معطفه ، فلو لبسه لأخذوه منه هناك ، وأبقوا عليه السترة وحدها ، إذن ، فليس أمامه إلا أن يذهب بما عليه من ملابس .

أمل المقدم أن ينسى ڤولكوڤوي ما توعده به ، أمّا ڤولكوڤوي ، فلا ينسى شيئاً مما يتوعد به الآخرين . لم يكن المقدم قد استعد لهذا الأمر ، حتى إنه لم يخبئ التبغ في سترته ، أما أن يحمل بيده شيئاً منه على الماشي ، فهذا هباء ، سيأخذونه منه عند إجراء التفتيش حال وصوله .

ريثما اعتمر المقدم قبعته ، تمكن سيزر من حشر سيجارتين في سترته .

ـ وداعاً يا أخوتي!

قالها المقدم في حالة ذهول ، هازّاً رأسه ، منطلقاً في أعقاب الحارس .

صاحت له حناجر عدّة . أحدهم قال : شد حيلك ، وآخر : لا تيئس...ماذا عساهم يقولون! إنهم بنوا الزنزانات بأيديهم ، وكل من في الـ ١٠٤ يعرفها جيداً . الجدران هناك من الطوب ، والأرض من الإسمنت ، وليس هناك أية نافذة ، والنار التي يشعلونها في الموقد هناك لا تصلح إلا لإذابة الجليد عن الجدران ، يتجمّع ، بعدها ، الماء في بركة على أرض الزنزانة ، تنام هناك على أخشاب عارية ، أسنانك تصطك من شدة البرد ، وطعامك ثلاثمائة غرام من الخبز ، أما الحساء ، فتحصل عليه في اليوم الثالث ، والسادس ، والتاسع فقط .

عشرة أيام! عشرة أيام في هذه الزنزانة ، إن أمضيتها بانضباط حتى

نهايتها ، تفقد صحتك إلى الأبد . سيلازمك السل ما دمت حيّاً ، ولن تخرج بعدئذٍ من المشفى . أمّا من سجن فيها خمسة عشر يوماً تحت نظام التشديد ، فقد خرج من هنا إلى باطن الأرض الرطبة . إذن ، مادمت أنت تعيش في البرّاكة ، صلِّ ، فرحاً ، لله ، ليجنبك الوقوع في الزنزانة .

ـ هيا ، اخرجوا ، سأعد حتى الثلاثة! ـ يصيح أسبوعي البرّاكة ـ من لا يخرج حتى الثلاثة ، سأدون رقمه وأسلّمه للمواطن السجان .

أسبوعي البرّاكة حقير آخر ، مرعب . يقفلون عليه باب البرّاكة ليمضي الليل معنا ، ومع هذا فهو لا يخاف منا ، إنّه مدعوم من إدارة المعتقل ، وليت ذلك يقتصر على عدم خوفه منا ، بل نحن الذين نخشى جانبه ، فهو إمّا يشي بهذا إلى الحارس ، أو يضرب ذاك بقبضة يده . يعد هذا الأسبوعي مقعداً ، لأنه فقد أحد أصابعه في إحدى المشاجرات ، أما سحنته ، فسحنة مجرم حقيقي . هو فعلاً مجرم ، فقد قبض عليه بمادة جنائية ، ولكن من بين المواد الأخرى أضافوا له المادة ٥٨-١٤ . لذلك تراه الآن في هذا المعتقل بالذات .

من أبسط الأمور لديه أن يدون اسمك على ورقة ، يسلّمها للسجّان ، وإذا بك في الزنزانة ليليتين على الأقل ، مع عمل نهاري شاق .

هؤلاء الذين كانوا ، قبل توعده ، يخطون ببطء صوب الباب ، اندفعوا ، الآن ، وتزاحموا ، بدؤوا يقفزون عن أسرتهم العليا كما تقفز الدببة ، وحشروا أنفسهم في الباب الضيق خارجين .

قفز شوخوف بيسر ، ممسكاً بيده تلك اللفافة من التبغ التي منّى نفسه تدخينها من زمان . حشر قدميه في جزمته ، وأراد أن يمشي ، لكن سيزر أثار عطفه . لم يكن يريد أن يكسب المزيد منه ، بل هو يعطف عليه حقاً .

أوَ لَمْ يحسب نفسه أكبر من حجمه هذا السيزر حتى يبقي الطرد لديه! إنه لا يفقه شيئاً في الحياة . فبدلاً من أن يفرش وليمة مما حصل عليه ، كان لزاماً عليه أن يحمله بسرعة إلى مستودع الأمانات قبل التفقد . كان يمكن أن يرجئ تناول الطعام إلى وقت آخر ، أمّا الآن فما الذي سيفعله سيزر بما لديه! أن يحمل كيسه بما فيه ، ويخرج للتفقد أمر مثير للضحك ، خمسمائة حنجرة ستقهقه لو فعل ، أن يبقيه هنا ، سيكون غنيمة يقضي عليها أول الراجعين من التفقد إلى البرّاكة . «كانت القوانين في أوست إيجما أشد مما هي هنا ، فهناك حين كنا نعود من العمل ، كان الجناة يسبقوننا ، وكانوا لا يبقون على شيء مما خبأناه» .

رأى شوخوف الارتباك بادياً على وجه سيزر ، وقد فات الأوان ، إنه يحشر في عبّه شحم الخنزير والسجق ، ليخرج بها إلى التفقد ، ليحميها على الأقل . عطف عليه شوخوف فعلّمه ، لقّنه :

ـ اجلس يا سيزر ماركوفيتش حتى الأخير ، اختبئ في العتمة ، واجلس حتى الآخر... وحين يدخل السجان مع الأسبوعي لتفقد الأسرة ، أخرج حينئذٍ فقط ، تظاهر بالمرض! أمّا أنا ، فأخرج قبل الجميع ، وأعود أولاً ، وهكذا يكون...

قال شوخوف ذلك ، وخرج راكضاً .

في البداية ، حاول شوخوف شق طريق لنفسه بين الآخرين ـ محافظاً مع ذلك على لفافة التبغ في قبضة يده ـ بقوة ، في الموزع المشترك بين نصفي البرّاكة ، وفي مدخليهما ، لم يعد أحد يزاحم للتقدم إلى الأمام ، هؤلاء الوحوش من قبيلة خبيثة ، فقد التصقوا بالجدران في صفين من اليمين ومن اليسار ، وتركوا ممراً في الوسط ، فقط ، يسمح بعبور شخص واحد لا

أكثر : يعني ، أنت اخرج إلى الجليد ، إذن يا مسطول ، أمّا نحن فسنبقى هنا ، فمن دون هذا نحن طوال اليوم في الجليد ، ولا تنقصنا هذه الدقائق الإضافية العشر من الزمهرير!

ليس هناك بلهاء ، افطس أنت اليوم ، أما أنا ، فغداً! في مرّات سابقة كان شوخوف ، أيضاً ، يلتصق بالجدار ، كما يفعلون هم الآن ، أما الآن فها هو يخرج بخطوات واسعة مكشراً بما يشبه الابتسامة :

ـ ما الذي يخيفكم ، أيها المساطيل ، كأنكم ترون الزمهرير السيبري! اخرجوا إلى شمس الذئاب ، وتدفؤوا! هات شيئاً أشعل به ، يا عم!

دخَّنَ في المدخل ، وخرج إلى سقيفة الباب ، إلى الشمس الذئبية ، كما يسمون القمر في بلدة شوخوف .

ارتفع الهلال عالياً في السماء! لو أنه يرتفع مسافة أخرى يصير في أعلى قبة السماء .

السماء بيضاء اللون ، تكاد تكون مائلة للاخضرار . النجوم ساطعة متناثرة فيها ، هنا ، وهناك . بياض الثلج ساطع ، وجدران البرّاكات بيضاء مثله . ضوء المصابيح بالكاد يضيف شيئاً .

بدأ حشد أسود يتجمع عند تلك البرّاكة ، إنهم ينتظمون في صفوف هناك .

من برّاكة إلى أخرى لا تصل أصوات المعتقلين بمقدار ما يصل صوت صرير الثلج تحت أقدامهم .

وقف خمسة معتقلين ، بعد أن نزلوا درجات المدخل ، وجوههم نحو الباب ، وراءهم وقف ثلاثة آخرون ، إلى هؤلاء الثلاثة ، في النسق الثاني انضم شوخوف .

يمكنك إذا كان في فمك مضغة خبز ، أو بين أسنانك لفافة تبغ أن تقف ، لبعض الوقت ، في هذ الجليد .

التبغ جيد ، لم يخدعه اللاتفي ، إنّه يدوّخ ، ورائحته تفوح .

هناك من يخرج من الباب . ها هي أنساق ثلاثة قد انتظمت خلف شوخوف . كان من يقف في الخارج يغلي حقداً على الآخرين : هؤلاء الأنذال ينحشرون في الممر ، ولا يخرجون ، وأنت ابرد بدلاً منهم .

لم ير أحد من المعتقلين الساعة بعينه هنا ، وأي نفع من الساعة يرتجى في المعتقل ؟ فكل ما يود أن يعرفه المرء هل بقي الكثير من ضربات الإيقاظ ؟ وكم بقي من الوقت حتى الاجتماع الصباحي ؟ وحتى الغداء ؟ وحتى نهاية يوم العمل ؟

الجميع يقولون بأن التفقد المسائي يتم في التاسعة ، ولكنه لا ينتهي في التاسعة أبداً ، يدققون ، فيعاد التفقد ثانية وثالثة... إذن ، فأنت لا يمكنك أن تغفو قبل العاشرة . وفي الخامسة صباحاً يدفعون بك إلى النهوض .

ليس هناك ما يثير الدهشة في أن المولداڤي غط في النوم ، واقفاً ، قبل التفقد . ما أن يشعر المعتقل بالدفء قليلاً حتى يغفو . يتراكم هذا النقص في النوم على مدى أيام الأسبوع ، إلى درجة أنهم إذا لم يرغمونا على العمل يوم الأحد ، تغط البرّاكة بكل من فيها في سبات عميق .

يا للأسى ، ها هم يدفعون بالجميع ، ها هم يخرجونهم من البرّاكة! إنه أسبوعي البرّاكة ، والسجّان يدفعان بهم من الخلف ، ينقضان عليهم كالوحوش .

ـ ما بكم لا تريدون الخروج ؟ ـ يصيح بهم الواقفون في الصفوف الأولى

ـ أيها الأنذال ، تجمعون القشطة عن الخراء ؟! لو خرجتم من زمان لانتهى التفقد ، وعدنا إلى أماكننا .

أخرجوا كل من في البرّاكة إلى الساحة . أربعمائة معتقل ، ثمانون نسقاً من خمسة معتقلين . وقفوا في الانساق الأولى بانتظام ، أما ، هناك ، في الذيل ، فوقفوا كيفما اتفق .

ـ اصطفوا ، أنتم في الخلف! يصيح الأسبوعي عن الدرج بأعلى صوته .

انفتق إن شئت ، فهؤلاء الشياطين لا يقفون في الصف كما تريد!

خرج سيزر من الباب ، متكوّراً على نفسه ، متظاهراً بالمرض . وراءه ، خرج سخرة النصف الأيمن ، ثم الآخران من النصف الثاني ، وخرج معهم واحد أعرج . اصطف هؤلاء في نسق أمام الجميع ، وهكذا صار شوخوف في النسق الثالث . أمّا سيزر ، فساقوه إلى الذيل .

وأخيراً خرج السجّان .

ـ اصطفوا خمسات! صرخ بأولئك الذين في الذيل ، يا للحنجرة التي لديه .

ـ اصطفوا خمسات! صاح أسبوعي البرّاكة ، بدوره . حنجرته أقوى من حنجرة سابقه . لا يصطفون ولو انفتقت من الصياح .

انقض الأسبوعي باتجاههم ، يصب عليهم أقذع شتائمه ، ويضربهم في ظهورهم! وينظر إلى من لا يشغل مكانه ، بينما يوجه صفعاته للمنضبطين مساكين . انتظموا أخيراً . فعاد إلى مكانه وبدأ بمرافقة السجّان :

ـ الخمسة الأولى ، الثانية ، الثالثة!...

تندفع الخمسة التي ينادى عليها ، بكل ما أوتيت من قوة ، إلى البرّاكة .

فاليوم سويّ الأمر ، وانتهى مع إدارة المعتقل .

سوي الأمر . طبعاً ، إذا لم يكرر التفقد . فآكلو الخراء ، ذوو الأبواز العريضة هؤلاء ، أي راعٍ يجيد العد أفضل منهم : فمع أن الراعي أميّ ، يسوق قطيعه ، ويعرف على الماشي إن كان هناك نقص في العجول . فإن هؤلاء ، يعدونك مرّة إثر أخرى ، بلا نفع .

في الشتاء الماضي ، لم يكن هناك مجففات أحذية ، على الإطلاق ، في هذا المعتقل ، وبالتالي كانت الجزمات تبقى مع المعتقلين في البرّاكة طوال الليل... وقد أخرجوا الجميع للتفقد مرّة ، ثانية ، وثالثة ، ورابعة... حتى صار المعتقلون يخرجون حتى من دون أن يلبسوا ثيابهم ، بل يكتفون بلف أنفسهم بالبطانيات ، ويخرجون . ولكن في هذه السنة قاموا ببناء مجففات للأحذية ، لكنها لا تكفي الجميع ، فالدور يأتيك كل ثالث يوم لتجفف جزمة اللبّاد مرّة واحدة .

ها هم يجرون التفقد مرّة ثانية في البرّاكة . يدفعون بالمعتقلين من أحد نصفيها إلى النصف الآخر ، ويحصون عددهم .

اندفع شوخوف إلى الداخل ، ورغم أنه لم يدخل قبل الجميع ، إلا أنه لم يزح نظره عمن دخل قبله . ركض حتى وصل إلى سرير سيزر ، وجلس هناك . خلع جزمته ، تسلق السرير بالقرب من المدفأة ، وعلق جزمته عليه . فالمكان هناك لمن يحتله قبل غيره . علّق الجزمة وعاد إلى سرير سيزر . جلس متكوّراً على نفسه ، يراقب بإحدى عينيه كيس سيزر كي لا ينشله أحد من تحت الفراش ، وبالعين الأخرى يرصد جزمته كي لا يلقي بها أحد من هناك .

ـ أي ، أنت ـ صاح شوخوف ـ أنت يا أشقر! ضع جزمتك جانباً ولا تمس جزمة غيرك .

يغفو المعتقلون ، يغفون الواحد بعد الآخر في البرّاكة .

فيّ المجموعة العشرين يصيحون : سلّموا الجزمات .

سيخرجون الآن جزماتهم من البرّاكة ويغلقون الباب وراءهم ، ثم سيركضون حفاة باتجاه الباب :

ـ أيها المواطن القائد! دعونا ندخل إلى البرّاكة!

أمّا السجانون ، فيذهبون إلى إدارتهم ليجروا حساباتهم ، هل فرَّ يا ترى أحد من المعتقلين ، أم أن الجميع في أماكنهم!

ليكن ما يكون ، فلا علاقة لشوخوف ، اليوم ، بكل هذا . ها هو سيزر يتقدم حاشراً نفسه بين الأسّرة .

ـ شكراً ، يا إيڤان دينيسيتش . يقول لشوخوف .

هزَّ شوخوف رأسه ، وتسلّق إلى أعلى كالسنجاب . صار الآن بإمكانه أن يأتي على المائتي غرام ، وأن يدخن لفافة تبغ ثانية ، وينام . لكن النشوة أخذت شوخوف بعد هذا اليوم الحسن ، حتى إنه لا يشعر برغبة بالنوم .

إعداد السرير للنوم ، مسألة بسيطة على شوخوف : يرفع البطانية المائلة للسواد عن السرير ، ويستلقي على الفراش . لم يرقد شوخوف على شرشف منذ عام الواحد والأربعين ، مذ خرج من بيته ، حتى بات يدهشه لماذا تشغل النساء أنفسهن بالشراشف ، التي لا لزوم لها ، غسيل إضافي . يضع رأسه على مخدة نشارة للخشب ، يلف قدميه بسترة اللباد ، ويفرش معطفه فوق البطانية ، و :

ـ الحمد لك يا ربي ، ها هو يوم آخر قد مضى! ، الحمد لك أن جعلتني أرقد الآن هنا وليس في الزنزانة ، فالحال هنا محمول بعد .

رقد شوخوف ، رأسه باتجاه النافذة ، أمّا أليوشا ، فرقد على السرير المجاور لشوخوف ، رأسه بالاتجاه المعاكس ، كي يصل إليه ضوء المصباح الكهربائي . إنه يقرأ انجيله كعادته .

المصباح ليس بعيداً عنهم ، يمكنهم القراءة ، ويمكنهم الخياطة لو أرادوا .

سمع أليوشا ، كيف حمد شوخوف الله بصوت مسموع :

ـ أرى يا أيڤان دينيسوڤيتش أن روحك تسعى للصلاة إلى الله ، فلماذا لا تهبونها الحرّية ، لماذا ؟!

نظر شوخوف بطرف عينه إلى أليوشا . عيناه تلمعان كشمعتين . تنهّد :

ـ لأن تلك الصلوات ، يا أليوشا ، كالشكاوى ، إمّا أنها لا تصل ، أو أنها تُرفض .

يوجد أمام برّاكة الإدارة أربعة صناديق مغلقة ومختومة بالشمع الأحمر . مرّة واحدة في الشهر يفتحها أشخاص مفوضون بهذا الأمر . كثيرون يلقون بشكاواهم في هذه الصناديق . ينتظرون ، يحصون الأيام : أيمضي شهر حتى يأتي الجواب ، أم يمضي شهران... ولكن لا جواب . وإن كان هناك رد ، فهو بالرفض .

ـ كل ذلك يا إيڤان دينيسوڤيتش لأنكم لا تصلّون كفاية... تصلّون بشكل سيىء ، وبلا رغبة ، ولذلك لا يتحقق رجاؤكم . الصلاة يجب أن تتم

بلا انقطاع! فلو كنتم مؤمنين حقيقة ، وقلتم لذاك الجبل تحرك من مكانك ، لتحرك .

ضحك شوخوف ، ولف لنفسه سيجارة أخرى ، أشعلها من لفافة الإستوني :

ـ كف عن هذا الهراء يا أليوشا ، لم أر في حياتي جبلاً يتحرّك ، بل في الحقيقة أنا لم أر الجبال أصلاً . أمّا أنتم هناك في القوقاز ، الجماعة الانجيليون تصلون جميعاً إلى الله وتتضرعون إليه فهل حركتم جبلاً من مكانه . ثم قال شوخوف في دخيلته : هؤلاء البهاليل يصلّون لأنفسهم . فمن تؤذي هذه الصلاة ، ولماذا قاموا باعتقالهم . حكموا كلاً منهم بخمسة وعشرين عاماً . فالزمن الآن زمن هذه الأحكام ـ الجميع خمسة وعشرون .

ـ نحن لم نصل من أجل هذا يا دينيسوفيتش ـ يحاول أليوشا إقناعه . قال ذلك زاحفاً باتجاه شوخوف ، حاملاً بيده إنجيله حتى جاور وجهه ـ فمن بين كل الأشياء الأرضية الزائلة ، أمرنا الله أن نصلّي فقط من أجل الخبز «خبزنا كفافنا ، أعطنا اليوم»* .

ـ أي أنكم تطلبون مخصصات ، حصّة الطعام!

أمّا أليوشا ، فحاول إقناعه بعينيه ، أكثر مما بالكلمات ، وطبطب بيده على شوخوف ومسّد يده :

ـ يا إيڤان دينيسيتش ، يجب أن نصلّي ليس من أجل الحصول على طرد فيه طعام ، أو حصة حساء إضافية... ما هو عالي الشأن عند البشر وضيع

---

* انجيل متّى ، الاصحاح السادس ، ١١ .

عند الله! يجب أن نصلي من أجل الروح ، من أجل أن يخلّص الله أرواحنا من الشرور...

ـ من الأفضل لك أن تصغي يا أليوشا إلى ما أقول : الخوري ، عندنا في كنيسة بالومينسكوي...

ـ لا أريد أن أسمع شيئاً عن خوريك! يرجوه أليوشا وقد قطّب الامتعاض جبينه .

ـ بل ستسمعني رغم ذلك ـ رفع شوخوف جسده واستند إلى مرفقه ـ ليس هناك في كل بولومنا ، في المنطقة التي فيها الكنيسة ، من هو أغنى من الخوري... ذات مرّة دعونا إلى هناك لنغطي لهم السقف . نحن في العادة نأخذ مقابل مثل هذا العمل خمسة وثلاثين روبلاً في اليوم . أمّا من الخوري ، فأخذنا مائة ، ومع ذلك ، لم تصدر عنه أنّة واحدة . هذا الخوري يدفع تعويضاً لثلاث نساء كان قد حبلّهن في ثلاث مدن مختلفة ، وأمّا الرابعة فيعيش معها كزوجة ، وقد وضع مطرانية المنطقة في جيبه ، إنّه يمد يده الثخينة إلى يد المطران* . ويتخلص من الخوارنة الآخرين الذين يرسلونهم إلى الكنيسة على اختلافهم ، فهو لا يريد أن يقاسم مغانمه أي شخص آخر .

ـ ولماذا تحكي لي عن الخوري ؟ فالكنيسة الأرثوذكسية ابتعدت عن الإنجيل ، ولهذا فهم لا يعتقلونهم ، وإن اعتقلوهم لا يحبسوهم أكثر من خمس سنوات ، أتعرف لماذا ؟ لأن إيمانهم ضعيف .

نظر شوخوف بهدوء ، نافثاً الدخان ، إلى اضطراب أليوشا :

* إشارة إلى أنه يجب أن يقبل يد المطران

ـ أليوشا ، ثم أزاح يد أليوشا جانباً ، ونفث الدخان في وجهه ـ أنا لست ضد الله كما ترى ، وأنا أؤمن بالله عن طيب خاطر ، ولكنني لست أؤمن بالجنة والنار . قل لي ، لماذا تعاملوننا كالبلهاء ، تعدوننا بالجنة ، والنار... هذا هو بالذات ما لا يعجبني .

عاد شوخوف للاستلقاء على ظهره ، وراح شارد الذهن ينفض رماد سيجارته ، بحذر ، في الفراغ بين السرير والنافذة ، بحيث لا تحترق أشياء المقدم .

لم يعد شوخوف يسمع ما يتمتم به أليوشا . استجمع عزمه وقال : ـ صلِّ أو لا تصلّ فلن يطلقوا سراحك قبل الموعد بيوم واحد ، وستبقى هنا من طرق الحديد ، حتى طرقه .

ـ أمِنْ أجل مثل هذه الأشياء تتم الصلاة . نحن لا نصلي من أجل ذلك ـ أصابت أليوشا الدهشة ـ ما لك وللحرية ؟ في الحرّية سينهار آخر ما لديك من الإيمان يجب أن تفرح لأنك في المعتقل! يتوفر لديك هنا الوقت لتفكّر بالروح! الرسول بولس يقول : «ماذا تفعلون ؟ تبكون وتكسرون قلبي لأني مستعد ليس أن أُربط فقط ، بل أن أموت أيضاً لأجل اسم الرب يسوع »* .

نظر شوخوف ، صامتاً إلى السقف . هو نفسه لا يعرف هل يريد ، فعلاً الحرية أم لا ، ما أشد ما كان يريد في البداية الخروج من المعتقل ، وكان طوال الوقت يعد الأيام ، كم يوماً مضى ، وكم يوماً بقي! ثم جاء يوم ملّ فيه الانتظار والأمل ، بعد ذلك فهم أن أمثاله لا يطلقون

---

* أعمال الرسل : الاصحاح ٢١ ، ١٢-١٤ .

سراحهم إلى البيت ، بل يرسلونهم إلى المنفى بعد المعتقل . وأين ستكون حياته يا ترى أفضل ، هنا ، أم هناك في المنفى ، لا أحد يعرف ذلك . إنه إذا ما أراد أن يصلّي للّه ، فإن ما سيصلي من أجله هو أن يطلقوا سراحه إلى البيت ، لكنهم لا يطلقوان سراح المعتقلين إلى بيوتهم...

اليوشا لا يكذب ، فمن نبرة صوته ، ومن نظراته يمكن أن ترى أنه سعيد فعلاً ، بوجوده في المعتقل .

ـ هكذا يا أليوشا ـ أوضح له شوخوف ـ إنّ الأمور بالنسبة لك تسير سيراً حسناً ، أمرك المسيح بدخول السجن ، وها أنت في السجن من أجل المسيح ، أمّا أنا ، فمن أجل ماذا ، ومن أجل من اعتقلت! ألأنهم لم يكونوا مستعدين للحرب في عام ١٩٤١ ، ألهذا! وما علاقتي أنا بذلك!

ـ عجباً ، ليس هناك تفقد ثانٍ... قال كيلديفس من على سريره .

ـ أجل! ـ رد عليه شوخوف متثائباً ـ يجب تدوين هذا بالفحم على الهباب . إنهم غطّوا في النوم على الأرجح .

دوّى في البرّاكة الهادئة المستسلمة للنوم صوت قرقعة أقفال الباب الخارجي . ركض في الممر المعتقلان ، اللذان قاما بنقل الجزمات إلى المجففة وهما يصيحان «تفقد آخر» .

جاء صوت السجّان في أثرهما :

ـ هيا ، اخرجوا إلى القسم الثاني من البرّاكة!

أولئك الذين كانوا قد استسلموا للنوم تذمروا ، تقلّبوا ، حشروا

أقدامهم في جزماتهم . نادراً ما كان أحد ينام في سرواله الداخلي ، فالجميع هنا ينامون في سراويلهم القطنية ، فمن دونها لن تشعر بالدفء تحت البطانية .

ـ تفووو ، سَفَلة! شتم شوخوف ، ولكنه لم يغضب كثيراً ، لأنه لم يغف بعد .

رفع سيزر يده إلى أعلى ماداً له قطعتي بسكويت ، وقطعتي سكر ، وقطعة سجق .

ـ شكراً يا سيزر ماركوفيتش ـ تدلّى شوخوف إلى أسفل ـ هاتوا كيسكم ، سأضعه تحت رأسي ، فهنا آمن .

من الأعلى لا يمكن سرقته على الماشي ، ثم ، من الذي سيبحث عنه عند شوخوف ؟

مد سيزر كيسه الأبيض المربوط صوب شوخوف . حشره شوخوف تحت الفراش ، وانتظر حتى تخرج الأغلبية ، حتى يقف أقل زمن ممكن في الممر حافي القدمين . لكن السجّان كشّر عن أنيابه .

ـ إيه ، هنا! في الزاوية!

قفز شوخوف بتؤدة ، حافي القدمين ، على الأرض . كانت جزمته ولفافتاه في مكان جيد على الموقد ، وكان من الصعب عليه أن يخسر مكانهما .

كم خاط شوخوف من الأخفاف! كُلّها كانت للآخرين ، ولم يبق أياً منها لنفسه . لكن ، لا بأس ، فقد تعوّد على ذلك ، ولن يطول الأمر .

إنهم يصادرون الأخفاف من أصحابها في النهار .

ما أحلى حال المجموعات التي سلّمت جزماتها للتجفيف! منهم من في خفيه ، ومن في اللفافات ، والحافي القدمين .

ـ هيّا! هيا صاح السجّان .

أنتم لا تمشون إلا بالعصا! أنذال! أكمل أسبوعي البرّاكة . حشروا الجميع في النصف الثاني من البرّاكة ، أمّا من لم يتسع له المكان ، فبقي في الموزِّع بين القسمين . وهنا ، وقف شوخوف ملاصقاً للجدار بالقرب من جرن الغائط . كانت الأرض تحت قدميه رطبة ، وقد أحس بالبرد يدب من تحت متغلغلاً في جسده .

حشروا الجميع ، وعاد السجّان والأسبوعي لتفتيش البرّاكة ، ثانية ، فرب واحد ما يختبئ هناك ، أو رب واحد ما يغفو في زاوية مظلمة .

إذا كان العدد ناقصاً ، مصيبة ، وإذا كان العدد زائداً مصيبة ، أيضاً... فسيكون عليهم أن يعيدوا التفقد من جديد... جابا أنحاء البرّاكة ، وفتشاها ، وأخيراً ، عادا إلى الباب :

ـ الأول ، الثاني ، الثالث ، الرابع...

راحوا يمرورن المعتقلين واحداً ، واحداً بسرعة . كان شوخوف هو الثامن عشر . أسرع راكضاً إلى سريره . وضع قدمه على العارضه ، واعتلى سريره بقفزة واحدة .

لا بأس عليه ، فها هو يحشر قدميه ، من جديد ، في كمي سترته ، ويتغطى بالبطانية ، ويفرش المعطف فوقه ، ويرقد!

سيحشرون ، الآن ، النصف الثاني من البرّاكة عندنا ، ولكن ما همّنا نحن .

عاد سيزر . ناوله شوخوف كيسه . عاد اليوشكا ، إنه يداهن الجميع ، ولكنه لا يعرف كيف يكسب .

ـ خذ أليوشكا! مَدَّ له شوخوف قطعة بسكويت .

ابتسم اليوشكا .

ـ شكراً! أنتم أنفسكم ليس لديكم...

ـ كُلْ!

صحيح أنه ليس لدينا ، ولكننا ، دوماً ، نكسب .

له البسكويت ولنفسه السجق . ألقى شوخوف قطعة السجق في فمه ، وراح يعمل أسنانه فيها... رائحة لحم! وطعم لحم! إنه حقيقي ، راح إلى هناك ، إلى البطن ، ولم يعد هناك سجق .

الباقي ، فكّر شوخوف ، قبل الاجتماع الصباحي ، وغطى رأسه بالبطانية الرقيقة ، القذرة . ولم يعد يسترق السمع إلى أصوات المعتقلين المجتمعين في الممر بين الأسرة ، القادمين من القسم الثاني للبرّاكة بانتظار أن ينتهي تفقدهم .

استسلم شوخوف للنوم برضى تام . لقد حقق نجاحات كثيرة اليوم :

لم يرموا به في الزنزانة ، ولم يسوقوا مجموعته للعمل في المدينة الاشتراكية ، وفي الغداء سد رمقه ببعض العصيدة ، وحقق عريف مجموعتهم معدل العمل المطلوب منها ، وقد رص الجدار بمزاج طيب ، ولم يعثروا على شفرة المنشار معه أثناء التفتيش ، وفي المساء كسب من عند سيزر ، واشترى تبغاً ، وغالب نفسه ، ولم يمرض .

مضى يوم لم يعكر صفوه شيء ، ويكاد يكون سعيداً . عدد مثل

هذه الأيام في فترة اعتقاله من الجرس حتى الجرس ثلاثة آلاف وستمائة وثلاثة وخمسون يوماً ، وقد زادت ثلاثة أيام بسبب السنوات الكبيسة...

١٩٥٩



دار ماتريونا

عند الكيلومتر الرابع والثمانين ، على سكة الحديد المنطلقة من موسكو إلى موروم وقازان ، ورغم مرور نصف عام على ذلك ما زالت القطارات تبطئ من حركتها ، حتى كأنها تتلمس طريقها هناك .

يلتصق الركاب بزجاج النوافذ ، ويخرجون إلى شرفات العربات : أيصلحون يا تُرى سكة الحديد ؟ أهناك خلل ، وتداخل في المواعيد ؟

لا ، لا هذا ولا ذاك ، فبمجرد تجاوزه نقطة العبور يزيد القطار من سرعته من جديد ويعود الركاب إلى الجلوس في أماكنهم .

سائقو القطارات وحدهم كانوا يعرفون ويذكرون لماذا تحصل مثل هذه الأشياء . وأنا أيضاً .

ـ ١ ـ

عدت في صيف العام السادس والخمسين من الصحراء المغبرة القائظة إلى روسيا مشوشاً أبحث عن مأوى . لم يكن هناك من ينتظرني في أي مكان في روسيا ، ولم يكن هناك من يعرفني فقد تأخرت عن عودتي المنتظرة عشرة أعوام . كل ما كنت أبغيه الذهاب إلى منطقة ما في أواسط البلاد ،

حيث لا حر ، وحيث تتلاطم أوراق أشجار الغابات كالأمواج . كنت أريد أن أحشر نفسي ، وأختفي في قلب روسيا ، إذا كان هناك مثل هذا القلب .

قبل عام من هذا اليوم ، على هذه السكة الحديد ذاتها المتجهة إلى الأورال لم أكن أستطيع أن أحلم بعمل أكثر من أجير عتّال . فحتى كشغيل كهربائي لم يكونوا ليقبلوني في أية ورشة بناء ذات قيمة . أمّا أنا ، فما أشد ما كنت أرغب أن أعمل معلّماً .

قال لي العارفون : عبثاً تهدر ثمن بطاقة القطار ، فلن تحصل على شيء من هذا القبيل . ولكن ها هي الأمور قد بدأت تتزحزح وتنفرج .

عندما تسلقت درجات سلم مديرية التربية في منطقة ڤلاديمير ، وسألت عن مكان قسم الكوادر ، أخذتني الدهشة ، فقد رأيت أن الموظفين هنا لا يجلسون وراء باب مغطى بالجلد الأسود ، بل وراء حاجز زجاجي كما في الصيدليات . تقدّمت أخيراً بخطى متهيبة نحو الكوة . انحنيت وسألت :

ـ أخبروني!... ألستم تحتاجون إلى مدرس رياضيات في مكان ما بعيد عن سكة الحديد ؟ أتمنى لو أجد لنفسي مكاناً هناك حتى آخر العمر .

تحسسوا كل حرف مدون في وثائقي . تنقلوا من غرفة إلى أخرى ، وهتفوا إلى مكان ما . كانت حالة نادرة بالنسبة لهم أن يأتي أحد ، ويطلب العمل في الريف البعيد ، فالجيمع يبحثون عن مكان في المدينة ، وليس في أية مدينة بل في الكبرى منها ولكن ، ها هم بالفعل يمنحونني فرصة عمل في فيسوكوية بولي (الأرض المرتفعة) . فرحت روحي لمجرد سماع هذا الاسم .

هذا الاسم لم يكن خادعاً على الإطلاق ، فعلى هضبة محاطة بالمروج ،

وبالتلال ، مسورة بغابة خضراء ، تنبسط قربها بحيرة وراء سد ، كانت فيسوكوية بولي ذلك المكان بالذات ، الذي يمكن العيش في ربوعه ، والموت فيه بلا أسف ولا حسرة .

هناك ، جلست طويلاً على جذع شجرة ، وسط أشجار الأيك ، وفكّرت . كم كنت أتمنى من كل روحي ألا أحتاج لتناول فطوري وغدائي كل يوم ، فليتني أستطيع البقاء هنا ليل نهار ، أصغي إلى خشخشة أوراق الأشجار وحفيف أغصانها ، حيث لا صوت يأتي لأي مذياع من أي مكان ، حيث العالم كله يمارس الصمت .

ولكنهم للأسف لا يخبزون في هذه القرية ، ولا يبيعون أي شيء يؤكل في أي مكان . فجميع من في القرية يحملون أكياس المؤونة ليتبضعوا من مركز المنطقة .

عدت إلى قسم الكوادر ، ووقفت متوسلاً أمام تلك الكوة . لم يرغب أحد في البداية بالإصغاء ، أو التحدث إلي . ولكن ها هم أخيراً ينتقلون بين غرفة وغرفة ، يتصلون بالهاتف في مكان ما ، الأبواب تفتح وتغلق مصدرة صريراً ، وأخيراً يضعون خاتمهم على الأمر «تورفو برودوكت» .

«تورفو برودوكت» يا لها من كلمة! فحتى تورغينيف لم يكن يتصور أنه يمكن تأليف كلمة بالروسية كهذه .

على برّاكة أكل عليها الزمان في محطة «تورفو برودوكت» علّقت يافطة كتب عليها عبارة صارمة «الصعود إلى القطار من جهة رصيف المحطة فقط!» وحفر أحدهم تحتها بمسمار «وبدون بطاقات» . أما عند شباك التذاكر فقد حفر ذلك البائس الفطن بسكين على الخشب «لا يوجد بطاقات» .

أدركت الحكمة الحقيقية من هذه الكلمات المحفورة فيما بعد . كان يمكن الوصول بسهولة إلى «تورفور برودوكت» . ولكن المغادرة لم تكن كذلك على الطلاق .

في هذا المكان بالذات كانت تنتصب في يوم من الأيام غابات مدلهمة موحشة لم تأبه حتى للثورة ، أمّا بعد ، فقد قطع أشجارها الكولخوز المجاور ، وأتت عليها معامل التورف . قام غورشكوف مدير الكولخوز المحلي بقطع الأشجار عن بكرة أبيها في هكتارات عدة من الغابة ، وباعها بيعاً مربحاً لمنطقة أوديسا ، وبذلك حسّن وضع كولخوزه من جهة ، وحصل على لقب بطل الانتاج الاشتراكي من جهة ثانية .

على مرتفعات صغيرة في وطا التورف توزعت بيوت القرية بغير انتظام .

كانت البيوت عبارة عن براكات من الخشب مطلّية بشكل رديء بالاسمنت ، وكان لها نمط واحد من أعوام الثلاثينيات . كانت هناك بيوت أخرى من أعوام الخمسينيات مزينة بزخارف من خشب محفور ، وشرفات ذات نوافذ من بلور . لكن داخل هذه البيوت وتلك لم يكن ممكناً أن ترى جدراناً تصل إلى السقف ، لذلك لم يكن ممكناً بالنسبة لي أن استأجر غرفة بأربعة جدران حقيقية .

كان الدخان يتصاعد من مدخنة المعمل وينتشر فوق بيوت القرية .

وغير بعيد بمحاذاة القرية كانت تمر سكة الحديد . والقاطرات التي ينبعث من مداخنها دخان كثيف ، كانت تصفر وهي تمر قرب القرية ، جارّة وراءها عربات شحن ملآنة بشرائح من التورف البني اللون .

بتّ أستطيع أن أخمّن من دون أخطاء أن صوت المكبِّر سيصدح من

فوق باب النادي في المساء ، وأن الشوارع ستمتلئ بسكارى يتأرجحون ويطعنون بعضهم البعض بالسكاكين . فيا ليت شعري إلى أي مكان قادني حلمي بركن هادئ في روسيا ألجأ إليه . فهناك ، هناك من حيث أتيت كان يمكن أن أعيش في بيت من اللبن يطل على الصحراء ، حيث يهب نسيم عليل في الليالي ، وحيث ترتفع قبة السماء بنجومها فوق رأسي .

لم أستطع أن أغفو على مقعد المحطة . فمنذ الصباح الباكر ذهبت لأجوب شوارع القرية . رأيت سوقاً صغيراً جداً . كانت هناك امرأة واحدة في ساعة مبكرة للغاية تبيع الحليب . اشتريت منها زجاجة حليب ورحت أشربها في المكان . أذهلني حديثها . هي لم تكن تتكلم ، بل كان حديثها يأتيني كالشدو . كانت كلماتها هي ذلك الشيء الذي شدني الحنين إليه من آسيا إلى روسيا .

ـ اشرب ، اشرب ، كما تشتهي ، يبدو أنك عابر سبيل غريب .

ـ وأنتم من أين ؟ ـ أشرقتُ حين علمت أن أناساً آخرين يعيشون هنا غير عمال التورف ، وأن هناك وراء سكة الحديد هضبة ، وأن قرية تقبع خلف هذه الهضبة ، هي قرية تالنوفو المستلقية هنا منذ القديم ، منذ أيام «بارني تسيفكانكا» . تحيط بالقرية غابة دهماء ، وينتشر بعدها العديد من القرى : تشاسليتسي ، أوڤينتسي ، سپودني ، شيڤيردني ، شيستيميروڤو... وغيرها ، وغيرها أبعد ، فأبعد عن سكة الحديد وأقرب إلى منطقة البحيرات .

نسمت على روحي ريح السكينة من أسماء القرى تلك . لقد وعدتني بروح روسيا الحقيقية .

رجوت المرأة ، االتي تعرفت عليها للتو ، أن تصطحبني بعد أن تنتهي من بيع ما لديها إلى قرية تالنوڤو ، وأن تبحث لي عن كوخ استأجره .

كنت نزيلاً مربحاً ، فإضافة إلى الايجار وعدتْ المدرسة أن تمنحني سيارة تورف مؤونة للشتاء . ارتسمت على وجه المرأة امارات انشغال غير لطيفة . لم يكن لديها ركن تؤجرني إياه فقد كانت أمها العجوز تعيش معها ومع زوجها ، ولهذا قادتني إلى إحدى عائلات أقربائها ، ومن ثم إلى عائلة أخرى . لكنني لم أتمكن من الحصول على غرفة مستقلة ، فالمكان هنا وهناك كان ضيقاً وصاخباً .

وصلنا إلى ساقية شحت مياهها يعبرها جسر . لم يطالعني ألطف من هذا المكان في القرية : ثلة من أشجار الصفصاف ، وكوخ يتكئ على أحد جنبيه ، أوزّات تسبح في برك مجرى الساقية ، وبطات تنفض الماء عن ريشها خارجة إلى الشاطئ .

ـ تعال نعرّج على بيت ماتريونا ـ قالت مرافقتي وقد نال منها تعب السعي معي ـ لكن بيتها ليس مرتباً ، فهي مريضة ولا تستطيع العناية به .

انتصب بيت ماتريونا في مكان ليس بعيد عن هنا . كان هناك صف نوافذ متجاورة في الجهة الباردة ، غير المعرضة للشمس من البيت . سقف المنزل مغطى بحراشف متراصّة من قطع الخشب ، وشرداقه ينفتح بنافذة مزخرفة بالخشب الملون . بيت ماتريونا ليس واطئاً فجدرانه تتكون من ثمانية عشر جذعاً مرصوصة فوق بعضها بعضاً . لكن أخشاب السقف بدأت تهترئ ، وجذوع الجدران صارت رمادية اللون مع الزمن ، وخشبات بوابة الدار باعدت بينها الشقوق .

كان باب الدار مدربساً لكن مرافقتي لم تطرقه ، بل مررت يدها من تحت ، وفتحت الدرباس الذي لا يعيق إلا الدواب والبلهاء . ساحة الدار لم تكن مسقوفة .

كانت هناك درجات تصل بوابة الدار بباب الكوخ المغطى بسقيفة عالية . وإلى اليسار كانت هناك درجات أيضاً تؤدي إلى غرفة منفردة من دون موقد . أما إلى اليمين فكان ينتصب بناء الكوخ مع الشرداق والقبو الذي توصل إليه عدة درجات . كان الكوخ مبنياً بشكل جيد منذ القديم ، لتعيش عائلة كبيرة فيه ، أما الآن فساكنوه امرأة وحيدة في الستين من عمرها وحسب .

عندما دخلت الكوخ كانت المرأة مستلقية على سقيفة الموقد الروسي المجاور للباب ، ملقية على جسدها خرقاً ، من تلك التي لا قيمة لها في حياة الانسان العامل .

في أفضل أجزاء البهو الواسع للكوخ ، بالقرب من النوافذ كانت هناك مجموعة من نباتات الكوتشوك في أصص مرفوعة على كراس ومقاعد من خشب .

لقد آنست هذه النبتات صاحبة البيت في وحدتها بحضور صامت ، ولكنّه مليء بالحياة ، وتمطت بحرية مع الضوء الضعيف لجهة الشمال . خلف مدخنة الموقد فيما تبقى من الضوء ، بدا لي وجه صاحبة البيت المدور شاحباً شحوب الاعتلال . كان يمكن أن ترى في عينيها الكامدتين إلى أي حد هدها المرض . راحت تحدثني ممددة على بطنها كما كانت من قبل لا تستند إلى مخدة ، رأسها باتجاه الباب . بينما مكثتُ في الأسفل أصغي إليها . لم تبد أية رغبة بالحصول على مستأجر . شكت من مرضها الثقيل الذي خرجت من تحت وطأة إحدى نوباته للتو . نوبات المرض تلك كانت تصيبها ليس كل شهر ، ولكن حين كانت تأتي :

ـ يمسك المرض بي يومين ـ ثلاثة لا أقوى خلالها على النهوض ،

حينئذ لن يكون لي حول لتقديم الطعام إليك ، أمّا الكوخ فلا يقلقني أمره ، لتعش فيه إن شئت .

قالت ذلك ثم راحت تستعرض لي النساء الأخريات ، اللواتي يمكنني أن أعيش عندهن بصورة أفضل ، ونصحتني بزيارتهن . لكنني كنت قد رأيت حظي يقول بأن أبقى للعيش في هذا الكوخ المعتم ، حيث توجد مرآه غبشة لا يمكن رؤية الوجه فيها أبداً ، وإعلانان ناصعان كبيران سعر الواحد منهما روبلاً واحداً ، أحدهما يعرض دعاية للمطبوعات والآخر للغلال ، علّقا كزينة على الجدار .

أراحني الوضع هنا لأن فقر ماتريونا كان يمنعها من اقتناء مذياع ، ولم يكن هناك من تتحدث إليه في وحدتها . ومع أن ماتريونا ڤاسيليڤنا أصّرت على أن أتابع بحثي في القرية ، ومع أنها عند زيارتي الثانية تمسكت بالرفض طويلاً قائلة :

ـ لا حيلة لي لا بنظافة جيدة ، ولا بطبخ طيّب ، فبماذا أرضيك!

لكنها استقبلتني هذه المرّة واقفة ، حتى تهيأ إلي أنني رأيت فرحاً بعودتي في عينيها .

اتفقنا على الايجار ، وعلى التورف الذي ستزودوني به المدرسة . وبعد ذلك بفترة طويلة عرفت أن أعواماً كثيرة مضت على ماتريونا ڤاسيليڤنا لم تكسب خلالها روبلاً واحداً . فهي لم تكن تحصل على راتب تقاعدي ، وأقرباؤها قلّما قدموا لها العون ، أما في الكولخوز فقد عملت ماتريونا ليس مقابل نقود ، بل مقابل علامات* تدون في سجل العمل .

* علامات في سجل العمل : تدون في سجل العامل علامات يحصل مقابلها على أجره كميةً من المحصول عند الجني ، وغالباً ما كان يحصل على كمية أقل من التي يستحقها ، لأن المحصول المجني أقل من المتوقع .

وهكذ انتقلت للعيش في بيت ماتريونا ڤاسيليڤنا . لم نتقاسم غرف البيت فيما بيننا . كان سريرها موضوعاً في زاوية بجوار الموقد عند الباب ، أمّا أنا فوضعت سريري عند النافذة ، وبعيداً عن ضوء نباتات ماتريونا التي وضعت عند النافذة الأخرى طاولة .

كانت القرية موصولة بالتيار الكهربائي ، فقد مدت بالكهرباء منذ أعوام العشرينيات من شاتورا . كتبوا في الجرائد آنذاك «مصابيح إيليتش» ، أما الرجال ، فقد قالوا وهم يضيّقون أعينهم «ملك النار!» .

ربما كان كوخ ماتريونا يبدو للبعض الأكثر ثراء في القرية غير صالح للحياة ، أما بالنسبة لي ولها في ذلك الخريف والشتاء فقد كان في حال مقبولة تماماً : فماء المطر لم يزرب من سقفه حتى الآن ، والريح الباردة لم يكن هيّناً عليها طرد دفء الموقد بسهولة ، وكانت تتمكن من ذلك فقط قبيل الصباح ، خاصة عندما يهب الهواء من الناحية المتهالكة من الجدار .

كان يعيش مع ماتريونا ومعي في الكوخ قطة وفئران وصراصير . لم تكن القطة شابة ، والأهم من ذلك كانت معوجة الأقدام . جلبتها ماتريونا إلى بيتها عطفاً عليها ، فتآلفت مع البيت وبقيت فيه . ومع أنها كانت تمشي على أربع إلا أنها كانت تعرج بشدة . كانت تصون احدى اقدامها ، فقد كانت تلك القدم مريضة . عندما كانت تقفز من الموقد إلى الأرض ، لم يكن صوت هبوطها على الأرض خفيفاً كوقع أقدام القطط ، بل كان ارتطاماً قوياً ، وقعاً لثلاثة أقدام تخبط معاً : طُبْ! يا له من صوت قوي لم أستطع الاعتياد عليه إلا بمرور وقت طويل ، وكنت أجفل منه في كل مرّة . لقد كانت تهبط على أقدامها الثلاثة دفعة واحدة لتصون القدم الرابعة .

كانت الفئران تعيش في الكوخ ليس لأن القطة أضعف من أن

تصطادها ، فقد كانت الأخيرة تقفز إلى الزاوية كالبرق لتعود حاملة فأراً بين أسنانها .

كانت الفئران تعيش هنا لأنها لم تكن عرضة لمخالب القطة ، لأن أحداً ما ، في يوم ما ، عندما كانت الحياة ما تزال تسير سيراً حسناً في هذا البيت غطى جدران كوخ ماتريونا بورق مكرمش ، وليته لصق طبقة واحدة منه ، بل خمس طبقات التصقت ببعضها بعضاً جيداً ، ولكنها انفصلت عن الجدار في مواضع عدة . شكلت هذه البطانة الورقية ما يشبه الجلد الداخلي للكوخ . قرضت الفئران لنفسها ممرات بين أخشاب الحيطان وورق الجدران ، وصارت تخشخش بوقاحة ، راكضة من مكان إلى آخر على الجدران وتحت السقف . أما القطة فكانت تنظر بغضب ، وحسرة متعقبة آثار الخشخشة دون أن تستطيع الإمساك بالفئران .

كانت القطة أحياناً تأكل الصراصير ، لكن حالها كان يسوء بعد ذلك . الشيء الوحيد الذي كانت الصراصير تحترمه هو الحد الذي يفصل الموقد الروسي والمطبخ عن الكوخ النظيف . لم تكن الصراصير تزحف إلى الكوخ النظيف ، ولكن المطبخ كان يعج بها ، وكانت تدب حتى على الأقدام . فإذا ما دخلت في وقت متأخر من المساء إلى المطبخ لشرب الماء ، وأشعلت النور ، رأيت الأرض كلها والمقعد الكبير ، والجدران مغطاة عن آخرها تقريباً بصراصير بنية تموج . صرت أحضر معي من المدرسة مبيداً ، نخلطه بالعجين ونسممها به . قل عدد الصراصير بعد ذلك ، ولكن ماتريونا خشيت أن تتسمم القطة مع الصراصير ، لذلك توقفنا عن استخدام السم ، فعادت تلك للتكاثر من جديد .

في الليالي عندما كانت ماتريونا تغط في النوم ، وأكون ساهراً أعمل

وراء طاولتي ، كانت الخشخشة السريعة الناجمة عن ركض الفئران وراء ورق الجدران تختلط بخربشة الصراصير المتتابعة المستمرة كصوت قادم من البعيد لأمواج المحيط . لكنني اعتدت عليها ، لأنه لم يكن فيها شر ، لم يكن فيها كذب ، كانت خربشتها هي حياتها بالذات . كما اعتدت على حسناء الاعلانات الفاقعة ، التي كانت من مكانها على الجدار تمد يدها صوبي باستمرار حاملة كتب بيلينسكي ، وبانفيوروف ، وكدسة كتب أخرى ، ولكنها كانت تبقى صامتة .

لقد اعتدت على كل شيء في كوخ ماتريونا .

كانت ماتريونا تنهض بين الرابعة والخامسة صباحاً . ساعة الحائط في كوخ ماتريونا عمرها سبعة وعشرون عاماً . ، منذ أن ابتيعت في مخزن القرية وهي تسبق الزمن . أما ماتريونا فلا يقلقها ذلك ، فالمهم أن لا تتأخر عن الوقت ، كي لا تتأخر صاحبتها بدورها .

تشعل ماتريونا المصباح الكهربائي خلف ستارة باب المطبخ ، وتوقد الموقد الروسي بهدوء ولطف محاولة عدم إثارة أية ضجة ، ثم تخرج لحلب العنزة (جميع الحيوانات التي كانت لديها ـ عنزة وحيدة بيضاء ، متسخة ، معوجة الأقدام) . تذهب لإحضار الماء ، وتغلي ثلاث طناجر من الماء ؛ واحدة لي ، والثانية لها ، والثالثة للعنزة . تختار للعنزة من القبو حبات البطاط الأصغر ، وتختار لنفسها الحبات الصغيرة ، وتبقى لي حبات بحجم بيضة الدجاجة .

حاكورة ماتريونا الرملية ، التي لم تذق السماد منذ أعوام ما قبل الحرب ، والتي تزرع عاماً بعد عام بالبطاطا ، البطاطا ، البطاطا ، لم تنتج حبات كبيرات .

لم أكد ألاحظ حركتها في الصباح . كنت أطيل النوم فأنهض مع الضوء الشتوي المتأخر ، وأتمطى مخرجاً رأسي من تحت اللحاف والفروة . هذان الغطاءان ومعهم سترة المعتقل الملقاة على القدمين ، وكيس محشو بالقش تحتي ، كلها أمّنت لي الدفء ، حتى في تلك الليالي عندما كان الهواء الشمالي الجليدي يهب عبر نوافذنا النحيلة .

بسماعي صوتاً خفيفاً خلف الستار ، كنت كل مرّة أقول بصفاء : صباح الخير يا ماتريونا ڤاسيليڤنا ، ويأتيني الرد دوماً كلمات طيبّة من هناك . كانت الكلمات دائماً تبدأ بلحن دافئ منخفض مسحوب كما في حكايات الجدات : إم م م... صباح الخير لكم أيضاً . وبعد ذلك بقليل :

ـ فطوركم جاهز!

أي فطور هو يا تُرى! ماتريونا لم تكن تعلن عما يحتويه ، ولكن كان من السهل علي التخمين : بطاطا غير مقشورة ، أو حساء بطاطا ، أو عصيدة شعير .

لم يكن شراء حبوب أخرى من المخزن ممكناً ، وحتى هذه الحبوب كان شراؤها لا يتم إلا بعد صراع ضار ، فكونها الأرخص كانوا يطعمونها للخنازير ، ويشترون منها أكياساً .

لم تكن العصيدة تملّح كما يجب في الكثير من الأحيان ، وغالباً ما كانت تحترق ، وتخلّف بعد الانتهاء من تناولها آثاراً على سقف الحلق واللثة ، وتتسبب بحرقة ، ولكن لم تكن ماتريونا هي المذنبة في ذلك . لم يكن يباع في المخزن زبدة أو سمن ، أما المارغارين فيتلقفه الراغبون . كان يمكن أن تشتري بشكل حر الشحم المركب الثقيل فحسب . والموقد الروسي أيضاً ، كما بدا لي ، لا يصلح للطهو ، فالطبخة تطهى فيه

من دون أن يراها الطبّاخ ، والحرارة تصل إلى القدر من الجهات المختلفة بدرجات متفاوتة . سلّفنا أجدادنا هذا الموقد ، على الأرجح ، من أيام العصر الحجري ، لأنك إن أوقدته مرّة واحدة عند الفجر حفظ طوال اليوم الماء والعلف دافئين للحيوانات ، والطعام والشراب لك ، وهو مرقد دافئ للنوم .

كنت آكل برضى كل ما تطبخه لي ماتريونا ، وأضع جانباً بصبر ما يصادفني من شوائب في الطعام : شعرة ما ، قطعة تورف ، رجل صرصور .

لم تكن تكفيني الجرأة لتوجيه ملاحظة لماتريونا . لكنها في نهاية المطاف تبادرني بنفسها قائلة :

ـ لا حيلة لي لا بنظافة جيدة ، ولا بطبخ طيبّ ، فبماذا أرضيك!

ـ شكراً! ـ أجيبها من كل قلبي .

ـ على أي شيء ، فما تأكله من خيرك أنت!

تجردني ماتريونا من سلاحي بابتسامة وضّاءة :

ـ وعلى العشاء ، ماذا تريد أن أحضر لك ؟

كنت أتناول الطعام مرتين في اليوم ، كما لو كنت في الجبهة . ماذا كان يمكنني أن أطلب على العشاء ؟ إنها الأشياء ذاتها بطاطا مسلوقة أو حساء من البطاطا . ولقد رضيت بذلك فالحياة علمتني أن لا أرى في الطعام مغزى الوجود ، فقد كانت تلك الابتسامة على وجهها المدور أغلى على قلبي بكثير ، تلك الابتسامة التي رحت أحاول أن التقطها بعناية حين تمكنت أخيراً من شراء آلة تصوير . لكن ماتريونا كانت ما أن ترى العدسة الباردة متجهة صوبها حتى تضطرب ، فتأخذ هيئة إمّا متوترة ، أو جديّة للغاية .

مرة واحدة فقط التقطت لها الصورة التي أريد ، حين كانت تبتسم لشيء ما وهي تنظر إلى الخارج عبر النافذة .

في ذلك الخريف كان لدى ماتريونا الكثير من بواعث القهر والمنغصات . كان قد صدر قبل ذلك قانون جديد للتقاعد ، واقنعتها جارتها بضرورة الحصول على راتب تقاعدي . كانت ماتريونا وحيدة تماماً ، فمنذ ذلك الوقت ، حين بدأ المرض يشتد عليها ، صرفوها من العمل في الكولخوز .

لقد وقع على ماتريونا الكثير من الظلم . فقد كانت مريضة ، ورغم ذلك لم تخصص براتب تقاعدي . عملت ماتريونا ربع قرن في الكولخوز ، ولكن ، لأنها عملت هنا بالذات وليس في معمل لم يكن مخصصاً لها راتب تقاعدي . كان يمكن الحصول فقط على تقاعد الزوج ، أي الحصول على إعالة بعد وفاة المعيل ، ولكن زوجها لم يعد موجوداً منذ خمسة عشر عاماً منذ بدء الحرب . وليس هيناً عليها الآن الحصول على الوثائق المطلوبة من الأماكن المختلفة التي عمل فيها زوجها ، ومعرفة كم كان يقبض في كل من تلك الأماكن .

كانت المعاملات كثيرة للحصول على هذه الوثائق . كان يجب أن يكتبوا لها انه كان يحصل في الشهر على ثلاثمائة روبل على الأقل . ومن ثم عليها تصديق وثيقة تثبت أنها تعيش وحيدة بلا معيل ، وشهادة ميلاد لها يحدد فيها عام ميلادها . وعليها بعد ذلك أن تأخذ كل هذه الوثائق إلى قسم المعاشات ، وتعيدها لأنها لم تُملأ بشكل صحيح ، وترجع بها ثانية إلى هنا . وبعد كل هذا الدوران والانتظار ، لا أحد يعلم أيعطونها راتباً تقاعدياً أم لا!

ومما يزيد من صعوبة إنجاز هذه المعاملات ، أن قسم المعاشات يبعد عن قرية تالنوڤو عشرين كيلومتراً إلى الشرق ، وسوڤييت الناحية يبعد عن القرية عشرة كيلو مترات إلى الغرب ، وسوڤييت القرية يقع على بعد ساعة مشي إلى الشمال . وهكذا تقاذفوا ماتريونا من ديوان إلى ديوان طوال شهرين ، مرّة لوضع نقطة ، وأخرى لإضافة فاصلة ، وكل إضافة أو تعديل تحتاج يوماً على الأقل .

تذهب ماتريونا إلى سوڤييت الناحية ، يقولون لها إن السكرتير اليوم غير موجود . بمنتهى البساطة غير موجود كما يحصل في الأرياف . إذن ، عليها أن تعود غداً من جديد ، وفي الغد السكرتير موجود ، ولكن الختم ليس لديه . وهكذا فعليها أن تأتي إلى هنا في اليوم الثالث ، من جديد ، وفي اليوم الرابع أيضاً يكونوا قد وقّعوا ولكن ليس على الورقة المطلوبة ، فأوراق ماتريونا مغروزة فوق بعضها بعضاً في كدسة واحدة .

ـ إنهم يضيقون عليّ ، يا أيفناتيتش ـ شكت لي بعد تلك المحاولات العقيمة ـ لم أعد أعرف ماذا أفعل .

لكن جبينها لم يبق مقطباً فترة طويلة . لقد لاحظت أنها كانت تملك دواءً شافياً تعيد به الصفاء إلى روحها . إنه العمل . فهي الآن لا يطيب لها الجلوس من دون عمل . تراها إما ممسكة بالمعول ذاهبة لنكش البطاطا ، أو متأبطة كيساً ، متجهة لإحضار التورف ، أو حاملة سلة إلى الغابة البعيدة لجمع الثمار البرّية . ماتريونا لا تنحني أمام مكاتب الإدارات ، بل أمام الشجيرات . تعود من الغابة إلى كوخها مهدودة الظهر ، لكن مشرقة الوجه ، راضية عن كل شيء ، ترتسم على وجهها تلك الابتسامة الطيبّة .

ـ أنا الآن علّمت المكان ، وأعرف يا إيفناتيتش أين أحصل عليه ـ كانت تتحدث عن التورف ـ يا له من مكان ، متعة حقيقية ، هناك .

ـ أجل ، يا ماتريونا فاسيليڤنا ، ولكن ألا تكفي مخصصاتي من التورف ؟ إنها سيارة كاملة .

ـ خووو! تورفك أنت! مثله ومثله سيارات . أحياناً يكفي ، ولكن حين يشتد الشتاء وتصفر الريح في الشبابيك ، دفئ وما تدفئ فلا فائدة ، كله يطير مع الريح الباردة . ولكن لا بأس ، نقلنا في الصيف كمية كبيرة من التورف! لو كان الأمر بيدي لنقلت الآن ثلاث سيارات! ولكنهم يمسكون بنا ، فها هم يجرجرون إحدى النساء إلى المحاكم .

بالفعل . كان الأمر يسير على هذه الشاكلة ، فها هو الشتاء يزفر أنفاسه الباردة المتوعدة ، ويمس شغاف القلوب . الغابات تحيط بالقرية من كل صوب ، ولكن لا مكان تستطيع الحصول فيه على الوقود . الجرافات تهدر هنا وهناك في المنخفضات ، بيد أنهم لا يبيعون التورف للسكان ، بل يقدمونه للإدارة ، ولمن هو في لفيفها ، ومن ثم سيارة لكل معلم وطبيب وعامل في المصنع . لم يكن هناك وقود ، ولم يكن السؤال عنه وارداً . يجوب مدير الكولخوز شوارع القرية ، ناظراً في أعين الناس نظرة تسلط ، أو لا مبالاة ، أو نظرة ضبابية ، ويتحدث عن أي أمر يخطر بباله ، ولكن ليس عن التورف على الإطلاق ، فلا حاجة به إليه ، فقد احتاط منه واستزاد ، وبالتالي فلا يقلقه الشتاء .

ما الذي يضير! لقد كانوا في الماضي يسرقون غابة الإقطاعي ، واليوم يسرقون التورف من المجّمع الحكومي . اجتمعت النسوة في مجموعات من خمس إلى عشر نساء ، ليتجرأن على الذهاب ، وذهبن نهاراً إلى هناك . وفي

غضون أشهر الصيف تجمّع التورف في كل مكان ، وفرش في طبقات لطرد الرطوبة منه .

الأمر المحمود في التورف أنه بعد أن يستخرجونه لا يمكنهم نقله في الحال ، بل يجب أن يبقى في مكانه حتى يجف ، ويظلّ يجف حتى حلول الخريف ، وفيما لو انقطعت الطريق ، أو قصرّت الشركة بنقله ، يبقى حتى هطول الثلج . في هذه الأثناء كانت النسوة يأخذن من التورف حاجتهن . تضع الواحدة منهن في كيسها ست قطع فيما لو كان التورف ما يزال رطباً . وعشراً إذا كان جافاً .

مثل هذا الكيس المحمول على الظهر لثلاثة كيلو مترات ، البالغ وزنه حوالي بودين* ، لا يكفي لإحماء الموقد أكثر من مرّة واحدة . بيد أن أيام الشتاء ماتتان ، ولا طاقة بالبقاء من دون تدفئة : ففي الصباح يجب إيقاد الموقد الروسي ، وفي المساء يأتي دور «الهولندي» .

ـ وما نفع الكلام ـ احتدت ماتريونا على أحد ما في مكان ما ـ حين لم تعد هناك خيول ، كل ما لا تنقله على ظهرك ، لن تجده في بيتك . ظهري لا يتعافى أبداً ، ففي الشتاء نجر الزلاجات ، وفي الصيف نحمل على ظهورنا . إنما هي الحقيقة ، والله!

النساء يذهبن لإحضار التورف ليس مرّة واحدة فقط في اليوم . ففي الأيام الحسنة الطقس كانت ماتريونا تنقل ستة أكياس . وضعت ماتريونا سيارة التورف التي خصوني بها في مكان مكشوف ، أما التورف الذي كانت تأتي به فخبأته تحت السقيفة ، وكل مساء كانت تغلق بوابتها بخشبات لتخفيه عن العيون :

---

* بود : وحدة وزن روسية تعادل ١٦,٣٨٠ كغ

ـ لن يتمكن الأعداء من اكتشاف مكانه ـ كانت تبتسم ماسحة العرق عن جبينها ـ إنهم لن يعثروا عليه في حياتهم .

ما الذي كان بيد الشركة أن تفعله! لم يكن لديها ما يكفي من العمال حتى توزع حراساً على المستنقعات . كان عليهم ، على الأرجح ، أن يسجلوا في البداية أرقاماً كبيرة للانتاج ، ومن ثم عليهم إخراج الفقد الناجم عن تفتت التورف وعن الأمطار .

أحياناً ، كانوا يخرجون في دوريات ، ويقبضون على النسوة عند مدخل القرية . حينئذ تلقي النساء بأحمالهن ، ويولين الأدبار . في أحايين أخرى ، كانوا يأتون إلى البيوت بعد وشاية ، وينظمون ضبطاً بالعثور على تورف غير نظامي ، ويهددون بإحالته إلى القضاء . يتوقفن إثر ذلك عن نقل التورف لبعض الوقت ، ولكن ما أن يأتي الشتاء حتى يحثهن البرد على الذهاب من جديد . فيأخذن زلاجاتهن ، ويذهبن في الليالي إلى هناك .

حين كنت أنظر إلى ماتريونا ، ألاحظ أنه إلى جانب مشاغل البيت ، كان لديها ، عموماً ، غير قليل من الأعمال الأخرى التي تؤديها ، وكانت تحتفظ في ذهنها بتسلسل هذه الواجبات ، فهي بمجرد أن تنهض في الصباح تعرف دوماً ما الذي ستفعله في هذا اليوم . فإضافة إلى التورف ، وإلى جميع القرم العتيقة التي نكشتها الجرارت وألقت بها على أرض المستنقع ، وإلى الثمار البرية المنقوعة في أوعية زجاجية حتى حلول الشتاء («سن أسنانك إيفناتيتش » . كانت تدعوني) ، وإلى قلع البطاطا ، وإلى الركض هنا وهناك لملاحقة معاملة التقاعد ، كان عليها أن تحصل من مكان ما على التبن من أجل عنزتها الوحيدة البيضاء .

ـ ماتريونا ڤاسيليڤنا ، لماذا لا تربون بقرة ؟

ـ إخ خ ، يا إيفناتيتش ـ أوضحت لي ماتريونا ، واقفة في باب المطبخ ، متجهة صوب طاولتي ، وعلى صدرها مريلة متسخة ـ حليب العنزة يكفي حاجتي . تربية بقرة! يمكن للبقرة أن تلتهمني مع قدمّي ، فهي لن تبقي على شيء . من أين آتي بالعشب ؟ عند السد ، أصحاب الأراضي لا يسمحون بحش العشب ، وفي الغابة أيضاً لا مجال لحش العشب ، وفي الكولخوز . لا يسمحون لي بذلك ، يقولون لي أنت لست كولخوزية . وكأن الكولخوزيات يأخذن شيئاً لأنفسهن . فكل ما يجمعنه للكولخوز ، للكولخوز... وهكذا يبدأ الثلج بالهطول ، فلا يبقى أمامهن إلا أن يجمعن لأنفسهن ما بات تحت الثلج ، فأي عشب هذا ؟... فيما مضى كنا نجمع من العشب تلالاً ، نجمعه من عيد بطرس وحتى عيد إيليا ، كان عشباً كالعسل .

هكذا هو الحال جمع العشب لهذه العنزة الجرباء وحدها عبء ثقيل على ماتريونا .

كانت ماتريونا تأخذ منذ الصباح المنجل والكيس ، وتذهب إلى تلك الأماكن ، التي تذكر أن العشب ينمو فيها ، على جوانب الطريق ، وعلى ضفاف المستنقعات ، وعلى التخوم . وبعد أن تملأ الكيس بالعشب الأخضر الثقيل تحمله إلى البيت وتفرشه ليجف في أرض الدار . من كيس العشب الأخضر كله لا يبقى حين يجف أكثر من مذراة واحدة .

كان أول عمل قام به مدير الكولخوز الجديد ، الذي أرسل من المدينة منذ فترة قريبة ، تجريد جميع المقعدين من جزء من حاكوراتهم . أبقى لماتريونا على دونم ونصف من الأرض الرملية ، أما الدونم الآخر فضمّه إلى الكولخوز ، وبقي بائراً وراء السياج . عدا عن ذلك ، فقد فرض على ماتريونا

العمل في الكولوخوز ، مقابل قطعة الأرض التي بقيت لديها أمّا حين كانت تعجز أيدي النساء عن إنجاز ما لديهن من أعمال ، فكن يرفضن بعناد العمل في الكولخوز ، وعندئذ تأتي زوجة المدير إلى دار ماتريونا . كانت زوجة المدير أمرأة مدنية ثابتة العزم . بمعطف قصير ، ونظرة متوعدة كنظرات العسكر .

تدخل المرأة إلى الكوخ من دون أن تلقي التحية وتنظر بصرامة إلى ماتريونا .

ترتبك ماتريونا :

ـ أ هـ كـ ذ ا ـ تمط زوجة المدير كلماتها وهي تتكلم ـ يا رفيقة غريغوريڤا! سيكون عليك أن تساعدي الكولخوز! سيكون عليك أن تذهبي غداً لنقل الروث!

يتجعد وجه ماتريونا ، راسماً نصف ابتسامة مسترضية ، كما لو أنها كانت تخجل بدلاً عن زوجة المدير ، لأن تلك لم تكن تستطيع أن تدفع لها أجراً مقابل عملها .

ـ ماذا عساي أن أفعل ـ تقول ماتريونا على مهل ـ أنا مريضة ، والله ، ولا علاقة لي بعملكم ، فلست موظفة عندكم ـ ولكنها تتدراك الأمر في الحال ـ في أية ساعة يجب أن آتي ؟

ـ خذي معك المذراة! تؤكد زوجة المدير وتخرج مع حفيف تنورتها .

هكذا إذاً! تمتعض ماتريونا في أثرها ـ ومذراتي يجب أن آخذها! لا يوجد لا معاول ولا مذارٍ في الكولخوز! وأنا التي أعيش من دون رجل ، من الذي سيزرع أرضي ؟...

وبعد ذلك تناقش الأمر معي طوال المساء .

ـ ماذ عساي أقول يا إيفناتيتش! فلا طائل من وراء هذا الشغل . تقف وتستند على معولك ، منتظراً أن ينفخ بوق المصنع ، معلناً الثانية عشرة . ناهيك عن النساء اللواتي تثور ثائرتهن ، ويصفين هنا حساباتهن ، فمن منهن خرجت للعمل ، ومن منهن لم تخرج . عندنا تعمل الواحدة لنفسها لا تنتظر أية أبواق ، وليس إلا الحسرات... أوي ، أوي ها هي الظهيرة قد حانت ، وها هو المساء قد أزف .

ومع هذا تذهب ماتريونا في الصباح حاملة مذراتها .

وليت الكولخوز وحده الذي يأتي ليأخذ ماتريونا ، بل أية واحدة من قريباتها البعيدات ، وأية جارة من جاراتها تأتي في المساء لتقول :

ـ تعالي ماتريونا وساعدينا غداً في قلع البطاطا .

وماتريونا لا تستطيع أن تردها خائبة ، بل تترك أعمالها ، وتذهب لمساعدة الجارة ، وحين تعود تقول من دون نأمة حسد :

ـ آخ ، يا إيفناتيتش ، حبّات البطاطا عندها كبيرات! كم اشتغلت برغبة ، تمنيت لو أقلع وأقلع... والله لا أقول إلا الصدق!

ولا تتوقف الأمور عند هذا الحد . بل لا تتم فلاحة واحدة للأرض من دون ماتريونا . رأت نسوة تالنوفو أن قلع البطاطا عمل طويل وشاق على الواحدة منهن ، والأسهل والأسرع من ذلك أن يأخذن محراثاً يربطنه خلف ست نساء ، يجررنه معاً لحراثة حاكوراتهن الست دفعة واحدة . وبالتالي كن يدعون ماتريونا لجر المحراث معهن .

ـ وهل تعطونها أجراً مقابل ذلك ؟ وجدت نفسي مضطراً لسؤالهن .

ـ لا ، هي لا تأخذ مالاً ، ولكننا نعطيها رغماً عنها .

أمّا العبء الأكبر فقد كان يقع على ماتريونا حين يأتي دورها لإطعام رعاة الماعز ؛ واحد ضخم أصم أبكم ، وآخر فتي يعض سيجارة بين أسنانه يسيل معها لعابه بشكل دائم . كان هذا الدور يأتي مرّة كل شهر ونصف الشهر ، ولكنّه كان يشكل ضغط مصاريف إضافية على ماتريونا...

تذهب ماتريونا إلى مخزن القرية لتتبضع ، تشتري سمكاً معلباً ، وسكراً ، وزبدة... أطعمة لا تشتريها ماتريونا لنفسها على الاطلاق .

النسوة هنا يتبارين بتقديم أفضل ما لديهن للرعاة .

ـ عليك أن تحذر جانب الراعي والخياط ـ أوضحت لي ماتريونا ـ يذيعان صيتك في كافة أرجاء القرية إذا قصّرت معهما .

في هذه الحياة المكتظة بالمشاغل ، كان المرض الثقيل يطل برأسه بين الحين والآخر . عندئذ ترزح ماتريونا تحت وطأته عدة أيام . في أيام المحنة هذه تأتي ماشا ، الصديقة القريبة لماتريونا منذ أيام الطفولة ، لإحماء الموقد ، والعناية بالعنزة . أما ماتريونا ، فلا تشرب ولا تأكل ولا تطالب بأي شيء طالما هي مريضة . دعوة الطبيب من النقطة الطبية في القرية إلى البيت ، كانت إحدى الأعاجيب ، فلم يكن ذلك فعلاً لائقاً في أعين الجيران ، فمن يريد أن يفعل ما كان يفعله الاقطاعيون . ومع هذا اضطروا ذات مرّة إلى دعوة طبيبة . كانت تلك الطبيبة عصبية المزاج جداً ، فطلبت من ماتريونا حين تتمكن من النهوض والمشي بالمجيء إلى النقطة الطبية بنفسها .

ذهبت ماتريونا إلى هناك رغماً عن إرادتها . أخذوا عينات لإجراء التحاليل ، وأرسلوها إلى مشفى المنطقة ، وهنا انتهت القصة . فالمشاغل

اليومية شدت ماتريونا إلى الحياة . بدأت ماتريونا تنهض بعد فترة قصيرة من ذلك . في البداية راحت تتحرك ببطء ، ومن ثم أسرع فأسرع .

ـ ليتك رأيتني في صباي يا إيفناتيتش ـ قالت محاولة أن تبرر ضعفها ـ كنت أنقل جميع الأكياس بنفسي . كل كيس منها كان يزن خمسة بودات . حماي كان يصيح بي : احذري يا ماتريونا ، ستكسرين ظهرك . وكان أخو زوجي بدلاً من أن يساعدني برفع القرمة إلى كتفي ، يقف ليتفرج كيف أرفع الجذع وأضعه على كتفي لوحدي . كان لدينا حصان حربي ، كان اسمه ڤولتشوك ، كان حصاناً ضخماً...

ـ ولماذا حربي ؟

ـ لأنهم أخذوا حصاننا إلى الحرب وأعطونا بدلاً منه هذا الحصان المصاب . تبين أنه حصان جفول . ذات مرّة ، جفل على حين غرة خائفاً ، وركض بالزلاجة إلى البحيرة . عندما رآه الرجال فروا من طريقه ، أمّا أنا فأمسكته باللجام ، وأوقفته . كان حصاناً ربي على الشوفان . كان الرجال عندنا يحبون إطعام الخيول . تلك الخيول التي تتغذى على الشوفان لا تطيق اللجام .

ومع كل ما قيل لم تكن ماتريونا امرأة لا تعرف الخوف ، بل كانت تخاف من أشياء كثيرة : تخاف الحريق ، تخاف الرعد والبرق ، تخاف أكثر من أي شيء من القطار!

ـ حين أكون مسافرة إلى تشيروست ، ما أن يخرج القطار من محطة نيتشايڤكا ، ويبلق عينيه العملاقتين ، وتضج تحته سكة الحديد ، حتى تجتاحني الحمى ، وترتجف مفاصلي ، إي واللّه! .

كانت ماتريونا تعجب لذلك وتلم كتفيها باستغراب .

ـ ربما ، لأنه لا يمكن العثور على بطاقة سفر ، يا ماتريونا ڤاسيليڤنا ؟

ـ إنهم يبيعون فقط بطاقات الدرجة الممتازة . القطار يتحرك ، ونحن نركض من هنا وهناك . احذروا أيها الرجال... الرجال يتسلقون أسطحة العربات . أمّا نحن فنعثر على باب غير مقفول في إحدى العربات . نندفع إليه ، من دون بطاقات .

العربات كلها من الدرجة الثانية ، كلها من الدرجة الثانية ، وما أكثر الأماكن ، تستطيع أن تستلقي هناك على أي سرير تشاء ، ومع ذلك يقولون ليس هناك أماكن ، لا يبيعون بطاقات ، عديمو الاحساس ، آفات... لا أدري لماذا...

رغم كل المعاناة ، تحسنت أحوال ماتريونا مع قدوم ذلك الشتاء ، وصارت حياتها كما لم تكن من قبل . صاروا يدفعون لها ثمانين روبلاً راتباً تقاعدياً ، إضافة لمائة أخرى كانت تحصل عليها من المدرسة ومني .

ـ تفوو! لا حاجة بماتريونا إلى الموت الآن! ـ بعض جاراتها بدأن يحسدنها ـ عجوز ، تكسب المزيد من المال ، ماذا ستفعل بالنقود!

ـ عن أي مال تتحدثن ، التقاعد ؟ ـ اعترضت الأخريات ـ هذا مال حكومة ، مال لحظة ، اليوم يعطونك وغداً يمنعون عنك .

أوصت ماتريونا لنفسها بجزمة من لباد جديدة . اشترت سترة لباد جديدة أيضاً ، وخاطت لنفسها من معاطف السكة الحديدية ، الذي أهداها إياه زوج ربيبتها كيرا ، سائق القطار في تشيروست ، معطفاً جديداً .

وضع خياط القرية الأحدب تحت الجوخ حشوة قطنية ، فحصلت

ماتريونا على معطف معتبر ، لم تخط لنفسها مثيلاً له على مدى أعوامها الستين .

وفي أواسط الشتاء خاطت ماتريونا داخل بطانة هذا المعطف مائتي روبل ، من أجل مصاريف دفنها حين تموت ، وفرحت :

ـ أخيراً ، بت أشعر بقليل من الاطمئنان ، يا إيفناتيتش .

انصرم كانون الأول ، ومضى كانون الثاني في أعقابه . لم تطأ نوبة المرض جسد ماتريونا طوال شهرين .

صارت ماتريونا تتردد أكثر من ذي قبل على صديقتها ماشا في المساءات . تجالسها وتشاركها في أكل البذر . لكن ماتريونا لم تدع ضيوفاً لزيارتها في بيتها في المساء مراعاة لي . مرّة في عيد القداس . بينما كنت عائداً من المدرسة فوجئت بالرقص في كوخ ماتريونا ، وهنا تعرفت بأخواتها الشقيقات الثلاث ، اللواتي كن يسمين ماتريونا كأكبر واحدة بينهن ليولكا ، أو نيانكا .

قبل هذا اليوم نادراً ما كان الحديث ، في كوخنا ، يدور حول أخوات ماتريونا . أكن يا ترى يخشين أن تطلب منهن العون ؟

حادثة واحدة فقط ، دالّة واحدة فحسب ، كدرت ماتريونا في هذا العيد :

قطعت ماتريونا مسافة خمسة فرستات حتى وصلت إلى الكنيسة لإحضار الماء المقدس . هناك ، وضعت قدرها وسط قدور الأخريات . وما أن انتهى صب الماء المقدس حتى اندفعت النسوة يتزاحمن ، ويتدافعن لأخذ قدورهن . لم تستطيع ماتريونا أن تشغل مكاناً في المقدمة ، بل دفعها

الزحام إلى الخلف . حين انفض الجميع تبين أن قدرها لم يعد موجوداً . ولم يكن هناك وعاء آخر متروك بدلاً منه . اختفى القدر كأن روحاً شريرة سحبته .

ـ يا نسوان! ـ تجولت ماتريونا بين المصليات ـ ألم تأخذ واحدة منكن ، عن غير قصد ، ماء مقدساً غريباً ؟ في القدر ؟

لم يعترف أحد بذلك . يحدث أحياناً أن يتشاقى الصبيان ، فالصبية أيضاً كانوا في الكنيسة في ذلك الحين .

عادت ماتريونا حزينة إلى البيت . كان دائماً لديها في البيت ماء مقدس ، أما هذا العام فلن يكون لديها .

مع كل هذا ، لا يمكن القول إن ماتريونا كانت شديدة الإيمان . بل هي أقرب ما تكون إلي الوثنية منها إلى الكنيسة ، فقد كانت تؤمن بالفأل والدالات أكثر :

يجب عدم دخول الحاكورة في عيد إيڤان بوستني وإلا ، فإنك لن تحصل على محصول جيد في الموسم القادم . إذا دارت زوبعة ثلجية في مكان ما ، فهذا يعني أن أحداً ما ، في مكان ما شنق نفسه . إذا حشرت قدمك بالباب ، فلتستعد لاستقبال ضيف قادم إليك...

وطوال ما عشت عند ماتريونا لم أرها مرّة واحدة تصلّي ، ولا حتى ترسم إشارة الصليب . ومع هذا كانت تبدأ أعمالها كلها «باسم الله!» ، وتودّعني كل مرّة وأنا خارج إلى المدرسة «باسم الله!» أيضاً .

ربما كانت ماتريونا تصلي من دون أن أدري ، مخفية ذلك عني خجلاً مني ، أو رغبة بعدم مضايقتي .

كانت هناك زاوية أيقونات مقدسة في الكوخ النظيف ، وكانت هناك إيقونة نيقولاي أوغودنيك في المطبخ . في الأيام العادية كانت هذه الأيقونات تبقى من دون أضاءة ، أما في أعياد الميلاد والفصح الليلية ، وكذلك في بقية الأعياد ، في الصباحات ، فكانت ماتريونا تشعل أمامها المصابيح .

لكن ذنوب ماتريونا كانت أقل من ذنوب قطتها العرجاء ، فتلك كانت تزهق أرواح الفئران .

ما أن نفضت عنها غبار حياتها البائسة ، حتى صارت ماتريونا تصغي إلى مذياعي باهتمام . لم أشأ تركيب مأخذ للمذياع بالقرب مني . كانت ماتريونا حين تسمي المأخذ تقول رازڤيتكا (تجسس) ، بدلاً من رازيتكا (مأخذ) . لم يعد المذياع بالنسبة إلي لعنة ، فقد صار بإمكاني أن أسكته وقت أشاء .

في هذا العام جرت العادة على استقبال وفدين أو ثلاثة وفود أجنبية كل أسبوع ، ومرافقة هذه الوفود في زيارات مدن عدة ، وتنظيم حشود جماهيرية في هذه المناسبات . فمع إطلالة كل يوم جديد يزدحم البث الإذاعي بأخبار هامة عن ولائم غداء وولائم فطور .

تجهمت ماتريونا ، وتنهدت تنهيدة عدم رضا :

ـ يسافرون ، يسافرون... لو أنهم من أجل شيء مفيد يسافرون!

وما أن تسمع باختراع آلة جديدة . ، حتى تبربر ممتعضة من مكانها في المطبخ :

ـ جديدة ، وجديدة ، لا يريدون العمل على القديمة ، إلى أين سنذهب بالآلات القديمة .

في ذلك العام ، أيضاً ، أعلنوا عن اختراع قمر صناعي :

ـ أوي ، أوي ، سينقلب كل شيء الصيف ، والشتاء .

أدى شالابين بعض الأغاني الروسية . وقفت ماتريونا ، وراحت تصغي إليه . وأخيراً عقدت العزم وقالت :

ـ عجيب ، يغني ليس من أغانينا!

ـ ماذا بكم ، ماتريونا ڤاسيليڤنا! اصغوا جيداً .

أصاخت السمع ثانية ، ثم زمّت شفتيها وقالت :

ـ لا ، لا اللحن مختلف ، وهو يتلاعب بصوته أيضاً .

ولكن مقابل ذلك كافأتني ماتريونا على غير انتظار . في يوم من الأيام بثوا حفلاً من رومانسيات غلينكا ، وإذا بماتريونا بعد خمس من مقطوعات موسيقا الحجرة تخرج من المطبخ ممسكة بفوطتها ، متوهجة الخدين ، في عينيها غير اللامعتين دمعة لمّاعة :

ـ اسمع ، هذه من أغانينا الحقيقية ، هذه منها... قالت ذلك همساً .

ـ ٢ ـ

وهكذ اعتادت ماتريونا عليّ ، واعتدت عليها ، وعشنا معاً ببساطة . لم تزعجني يوماً في عملي المسائي الطويل وراء الطاولة ، ولم تثقل عليّ بأية تساؤلات . كانت بعيدة بعداً شديداً عن الفضول النسائي المعروف! أم كانت لبقة إلى درجة أنها لم تسألني مرّة ، أكنت يوماً متزوجاً ؟ كل نساء القرية ألححن عليها بالرجاء أن تعرف شيئاً عني . أما هي فكانت تجيبهن :

ـ أنتن تردن أن تعرفن ، فاسألنه . أنا أعرف أمراً واحداً ، هو أنه من مكان بعيد .

حين أخبرتها بعد مرور وقت مديد أنني أمضيت وقتاً طويلاً في السجن ، لم تفعل أكثر من أنها هزت رأسها كما لو أنها كانت تشك بذلك من قبل .

أنا بدوري رأيت ماتريونا على حالها عجوزاً هرمة ، وأيضاً ، لم أفتق جراح ماضيها ، ولم أشك أصلاً بأن هناك ما يمكن البحث عنه في ذلك الماضي .

كنت أعلم أن ماتريونا كانت متزوجة من أيام ما قبل الثورة ، وأعرف أنها بعد ليلة العرس مباشرة ارتبطت بهذا الموقد ، شاغِلها في هذا الكوخ بالذات ، فلم يكن لديها لا حماة تعينها ، ولا أختاً عانساً لزوجها تأخذ عنها كتفاً . أعرف أيضاً أنها أنجبت ستة أولاد ، وأنهم جميعاً ماتوا ، واحداً بعد الآخر ، في وقت مبكر جداً ، حتى أن اثنين منهما لم يلتقيا في الحياة معاً . وهذا ما جعل ماتريونا تأخذ الفتاة كيرا لتعنى بتربيتها .

زوج ماتريونا ذهب إلى الحرب ولم يعد ، ولم يدفن في قبر . الذين كانوا معه من أبناء قريته قالوا إنه إمّا وقع في الأسر ، أو قتل ، ولكنهم لم يعثروا على جثته . وبعد انقضاء أحد عشر عاماً على نهاية الحرب ، اقتنعت ماتريونا بأنه ليس بين الأحياء . ولحسن الحظ أن ماتريونا كانت تفكر بهذه الطريقة ، فلو أنه كان حياً ، لكان الآن متزوجاً في مكان ما في البرازيل ، أو في أوستراليا . وقرية تالنوفو ، واللغة الروسية بدأت تتلاشى من ذاكرته مع الزمن .

ذات مرّة كنت عائداً من المدرسة ، وإذا بي أفاجأ بضيف في كوخنا .

كان الضيف رجلاً عجوزاً أسود الشعر . يجلس على كرسي وضعته له ماتريونا في وسط الغرفة ، قرب الموقد الهولندي ، واضعاً قبعته على ركبتيه ، غطا وجهه شعر أسود كثيف يكاد يخلو من الشيب ، تدلى شارباه الأسودان الكثان على لحيته السوداء الممسدة ، حتى بالكاد كان يظهر فمه من تحتهما ، وسالفاه كانا أسودين غزيري الشعر بالكاد بانت أذناه من ورائهما ، اتصلا بشعره الأسود الطويل ، المتدلي من قذاله ، وحاجباه كانا أسودين غليظين وصل بينهما جسر من الشعر . الشعر كان يغيب فقط عن جبهته التي امتدت صلعاء حتى قفا رأسه .

كل ما في هذا العجوز بدا لي ينم عن معرفة كبيرة ، ووقار . جلس منتصب الظهر ، واضعاً يديه على عصاه المستقيمة المستندة إلى الأرض . جلس في وضعية انتظار صبور . وعلى ما يبدو لم يتحدث مع ماتريونا ، المنشغلة وراء ستارة باب المطبخ ، إلا قليلاً .

عندما دخلت الكوخ ، أدار على مهل رأسه المبجل صوبي ، ودعاني بغتة :

ـ إسمع يا جدو!… أكاد لا أراك جيداً . ابني يدرس عندكم . اسمه غريغورويف أنتوشكا .

كان يمكن أن لا يضيف أي كلمة أخرى… فبالرغم من رغبتي الكبيرة في مساعدة هذا العجوز المحترم . كنت أعلم مسبقاً بلا جدوى ذلك ، وأرفض مسبقاً كل ما سيقوله العجوز حول الولد .

كان انتوشكا غريغوريف ولداً ممتلىء الجسم ، مورّد الخدين ، تلميذاً في الشعبة ج من الصف الثامن . وكان يبدو كقط بعد أكلة فطائر دسمة . كان هذا الولد يأتي إلى المدرسة ، كما لو أنه جاء ليستجم ويستريح .

يجلس على مقعده ويبتسم بكسل . عدا عن ذلك فإن أنتوشكا لم يحضر وظيفته البيتية ولا مرّة على مدار الأيام .

والأهم من هذا وذاك أن الحرص على نسب النجاح المرتفعة ، التي تمجّدها مدارس الناحية ، والمنطقة ، والمناطق المجاورة ، جعلهم يرفَعونه من صف إلى صف ، وهكذا فهم انتوشكا جيداً أن دراسته كيفما كانت لا علاقة لها بنجاحه ، فهو في كل الأحوال سيترفع في نهاية العام إلى الصف الأعلى . إذن ، فلا حاجة به للدراسة ومشاغلها . إنه ببساطة كان يسخر منا ، فهو يجلس على مقاعد الصف الثامن ، ولا يعرف أبسط عمليات التقسيم ، أو كيف تكون المثلثات .

في الفصول الثلاثة الأولى من العام الدراسي لم يحصل عندي على علامة النجاح الدنيا ، وكان المصير ذاته ينتظره في الفصل الرابع أيضاً .

ولكن ماذا عساي أقول لهذا العجوز نصف الضرير ، الذي يصلح لأن يكون جداً لأنتوشكا ، وليس أباً . والذي جاء ذليلاً في طلب العون!... هل أقول له إن المدرسة كانت تخدعه عاماً بعد عام ، وأنني لا أستطيع أن أستمر في خداعه ، وإلا فإنني أقضي على الصف بالكامل قضاء مبرماً ، وأتحول إلى مجرد ثرثار ، وعندئذٍ سيكون الأجدر بي أن أبصق على عملي ، وأبصق على لقبي ؟ ها أنا الآن أوضح له بتأن ، أن ابنه قصّر في دراسته كثيراً ، وانه يكذب في البيت ، وفي المدرسة ، وأنه يجب التحقق من دفاتره باستمرار ، والتشديد عليه بحزم من الجانبين .

ـ وهل هناك أشد مما أفعل يا جدّو ـ أكد لي الضيف ـ بت أضربه كل أسبوع ، ولي يد ثقيلة لا يستهان بها .

أثناء الحديث تذكرت أن ماتريونا ڤاسيليفنا بذاتها كانت قد أوصتني

ذات مرة بأنتوشكا غريغوريف ، ولكنني لم أشأ أن أسألها عن علاقة القربى التي تجمعهما . وفي ذلك الحين رفضت الرجاء بمساعدته . وها هي ماتريونا تقف في باب المطبخ وقفتها الراجية الصامتة تلك .

عندما غادرنا فاديي ميرونوفيتش ، عاقداً العزم على العودة من جديد ليستفسر عن وضع ابنه ، توجهت بالسؤال إلى ماتريونا :

ـ أنا لا أفهم يا ماتريونا فاسيليفنا ، ما العلاقة التي تربطكم بهذا الأنتوشكا ؟

ـ إنه ابن أخ زوجي .

أجابت ماتريونا باقتضاب وجفاف ، وذهبت لحلب العنزة .

أخيراً فهمت أن هذا العجوز ، الأسود الشعر ، الملحاح ، كان أخاً لزوجها ، الذي اختفى من غير أثر .

مضى مساء طويل لم تتطرق ماتريونا فيه إلى هذا الموضوع . إنما في وقت متأخر من هذا المساء ، عندما لم أعد أتذكر العجوز ، وكنت قد انكببت علي أوراقي أكتب في صمت الكوخ ، على موسيقا خربشات الصراصير ودقات الساعة ، فاجأتني ماتريونا من زاويتها المعتمة بقولها :

ـ أنا ، يا أيفناتيتش ، لولا قليل لكنت صرت زوجة لهذا الرجل .

كنت قد نسيت ماتريونا أيضاً ، ونسيت أنها موجودة هنا . لم أكد أسمعها فقد قالت ما قالته باضطراب من قلب العتمة ، كما لو أن هذا العجوز ما يزال يريدها لنفسه . يبدو أن هذا الأمر كان يشغل ذهن ماتريونا دون غيره طوال المساء .

نهضت ماتريونا عن سريرها البائس ، وراحت تدنو مني ببطء ، كما لو

أنها كانت تسير في أعقاب كلماتها . التفت إليها ، فخيّل إليَ أن ماتريونا التي أراها أمامي الآن أراها لأول مرّة في حياتي .

لم يكن هناك مصباح سقف في غرفتنا الكبيرة المكتظة كغابة بشجيرات الكاوتشوك .

كان الضوء يسقط من مصباح الطاولة في دائرة تطال دفتري فحسب . فلو رفعت عينيك عن بقعة الضوء ، وجلت بناظريك في أرجاء الغرفة ، لبدت لك غارقة في عتمة زهرية . من قلب تلك العتمة خرجت ماتريونا ، ولم يكن خداها كعادتهما شاحبين ، بل كان يعلوهما لون زهري أيضاً .

ـ كان قد طلب يدي قبل يفيم... إنه الأخ الأكبر ليفيم... كان عمري آنذاك تسعة عشر عاماً ، وكان عمر فاديي ثلاثة وعشرين... كانوا يعيشون في هذا البيت ذاته... كان هذا البيت لهم ، وكان والدهم قد بناه .

وجدت نفسي أتلفت حولي .

هذا البيت الرمادي ، العتيق ، المتهالك ، بدا لي فجأة من خلال ورق الجدران الأخضر الكامد اللون ، الذي تتراكض خلفه الفئران ، جديداً ، ناصعاً ، تفوح من جذوع جدرانه رائحة الصمغ المنشية .

ـ وأنتِ ماذا... ؟ ما الذي حصل... ؟

ـ في ذلك الصيف ، ذهبنا معاً لنمضي بعض الوقت في الغابة ـ همست ماتريونا ـ كانت هناك غابة ، حيث يقع إسطبل الخيول الآن... قطعوها... لولا قليل لتزوجته يا أيفناتيتش . بدأت الحرب الألمانية . أخذوا فاديي إلى الحرب .

نطقت ماتريونا بذلك . فتوهج أمامي تموز ١٩١٤ الأزرق والأبيض

والأصفر ، وسماء السلم أيضاً ، وغيوم سابحات في قبتها ، وفلاحون يجمعون القمح . تصورت ماتريونا وفاديي معاً :

تصورت فاديي بطلاً أسود الشعر يحمل منجلاً على ظهره ، وماتريونا قربه تحتضن رزمة القمح ، وأغنية ، أغنية تعلو إلى السماء ، من أغاني الحصاد تلك ، التي لم يعد يغنيها القرويون ، وكيف لهم أن يغنوها مع آلات الحصاد .

ـ ذهب إلى الحرب ، وضاع له كل أثر . صبرت سنوات ثلاث ، وانتظرت ، لا خبر عنه ، ولا أثر له .

قالت ذلك ثم دار وجهها المدور المطوق بمنديل عتيق نحوي ، في ضوء المصباح الدافئ ، بدا وجهها كما لو أنه تخلص من تجاعيده ، من علامات قلقه ، وانشغاله ، كوجه فتاة مضطربة أمام اختيار مخيف .

أجل ، أجل أستطيع أن أفهم . تساقطت أوراق الشجر ، وهطل الثلج ، ثم ذاب ، ومن جديد حرثوا الأرض ، ومن جديد نثروا الحب ، ومن جديد حصدوا ، ومرّة أخرى تساقطت أوراق الشجر ، ومرّة أخرى هطل ثلج ، وثورة أولى ، وثورة ثانية ، وانقلب العالم كله وبكل ما فيه .

ـ ماتت أمُهم ، وجاء يفيم يطلب يدي ، يقول طالما أردت المجيء إلى كوخنا ، فلتأتي إليه . كان يفيم يصغرني بعام واحد . يقولون عندنا : الذكية تتزوج بعد عيد باكروف ، والغبية بعد عيد بيتروف . كانت تنقصهم اليد العاملة.. وهكذا تزوجت . تزوجت في عيد بيتروف . عاد فيديا من الأسر الهنغاري في عيد نيقولاي الشتوي .

أغلقت ماتريونا عينيها ، والتزمت أنا الصمت . اتجهتْ صوب الباب ووقفت تقول كأنها تخاطب أحداً يقف أمامها :

ـ وقف في الباب . وزعقتُ حين رأيته . تمنيتُ لو أركع تحت قدميه ، ولكن لا يجوز... قال : لو لم يكن أخي لقطعتكما معاً إرباً ، إرباً .

ارتعدت لاندفاعها أو ربما خوفها . تصوّرت بشكل حي كيف وقف ذلك الأسود الشعر في باب مظلم ، يهوي بالبلطة على ماتريونا .

هدأت ماتريونا ، وأستندت على ظهر الكرسي ، وراحت تكمل قصتها بدندنة الآن :

أوي أوي أويي يي ، يا للرأس المسكين! ما أكثر الصبايا في القرية ، لكنه لم يتزوج واحدة منهن . قال : سأبحث عن واحدة تحمل اسمك ، سأتزوج ماتريونا ثانية . وبالفعل جاء بعروس اسمها ماتريونا من ليبوفكا ، وبنى لنفسه كوخاً خاصاً . إنه ذات الكوخ الذي يعيشون فيه إلى الآن . أنت تمر من هناك في طريقك إلى المدرسة كل يوم .

هكذا إذن جرت الأمور! فهمتُ الآن انني كنت قد رأيت تلك الماتريونا الثانية مرّات ومرّات ، ولم أشعر تجاهها بالود ، فهي دائماً تأتي إلى ماتريونتي لتشكو سوء أحوالها . تقول إن زوجها يضربها ، وإنه بخيل جداً ، وإنه يمتص دمها ، وتبكي هنا ساعات طوال . وحتى وهي تتحدث كان صوتها دائماً يغص بالدمع . إذن فليس هناك ما تندم عليه ماتريونتي ، فقد كان فيديا يضرب ماتريونته طوال الوقت ، وهو ما يزال يضربها حتى اليوم ، ممسكاً بقبضة من حديد كل من في البيت .

ـ زوجي لم يضربني ولا مرّة في حياته ـ قالت وهي تتحدث عن يفيم ـ بينما كانت قبضته تعمل بالرجال في الشارع . أمّا أنا فلم يمد يده صوبي... أعني ، حصل ذلك مرّة واحدة عندما تشاجرت مع أخته ، عند ذلك كسر الملعقة على جبهتي . انتفضت عن طاولة الطعام وصرخت :

تزقّموا طعامكم ، واختنقوا به يا ذكور النحل . واندفعت خارجة باتجاه الغابة . بعد ذلك لم يضربني .

يخيلّ إليَ أن فيديا أيضاً لم يكن لديه ما يندم عليه ، فقد أنجبت له ماتريونا الثانية ستة أطفال أيضاً (من بينهم تلميذي أنتوشكا وهو الأصغر بينهم ، الأخير) ، وجميع هؤلاء عاشوا ، وكبروا . أما أولاد ماتريونا فلم يصمدوا أمام الحياة لقد ماتوا قبل أن يبلغ الواحد منهم ثلاثة أشهر من دون أن يصيبهم أي مرض أو علة .

ـ أنجبت فتاة واحدة ، غسلناها وكانت ما تزال حيّة . وإذا بها تموت بين أيدينا ، لو أنها أتت ميتة لوفرت علينا غسلها... كما تزوجنا في عيد بيتروف ، دفن ابننا السادس والأخير في عيد بيتروف أيضاً .

لقد رأى جميع من في القرية أن لعنة سكنت روح ماتريونا .

ـ اللعنة فيَّ أنا! ـ قالت ماتريونا ، وهي ما تزال مقتنعة بذلك . مؤرجحة رأسها ـ لقد أخذوني إلى راهبة لمداواتي ، وقد دفعتني هذه الراهبة إلى السعال ، وانتظرت أن تخرج اللعنة من فمي ضفدعاً ، ولكنها لم تخرج .

جرت الأعوام كما يجري الماء... في العام الواحد والأربعين لم يأخذوا فاديي إلى الحرب بسبب ضعف نظره ، لكنهم أخذوا يفيم . كما اختفى الابن الأكبر من دون أثر في الحرب الأولى ، وضاع للأصغر كل أثر في هذه الحرب أيضاً ، فهو لم يعد على الإطلاق .

هذا الكوخ الفارغ الآن ، والذي كان يوما ما يعج بالحركة عتق مع الزمن وتهالك ، وكبرت معه ماتريونا المسكينة .

رجت ماتريونا من ماتريونا الثانية التعيسة أن تعهد إليها بجزء من

حشاشة كبدها ، بابنتها الصغيرة كيرا ، (أم بتأثير من فاديي! ؟) تتولاه بالرعاية ، والتربية . وبالفعل ، فقد ربت ماتريونا الصغيرة كيرا سنوات عشر كما لو كانت ابنتها الحقيقية ، ربتها كما كانت ستربي أولادها الذين ماتوا . وقبل نزولي في بيتها بزمن قصير زوّجتها لسائق قطار شاب من تشيروست . والعون الوحيد الذي تحصل عليه ماتريونا من أحد ما يأتي من هناك الآن : بعض السكَّر أحياناً ، أو بعضاً من شحم الخنزير ، خاصة حين يذبحون وحداً منها .

تحت وطأة المرض ، ورهبة الموت القريب ، أعلنت ماتريونا ذات مرّة عن وصيتها التالية : أن تورث الغرفة الملاصقة للكوخ بعد موتها لكيرا .

أما مآل الكوخ . فلم تذكر ماتريونا حوله شيئاً ، فقد كان لدى ماتريونا أخوات ثلاث ينتظرن أن يرثنه .

في ذلك المساء تعرفت على خبايا ماتريونا التي لم أكن أعرفها من قبل . وكما تحصل مثل هذا الأمور ، بدأ مغزى حياتها يتوضح لي ، وبدأت علاقاتها التي بالكاد تكشفت أمامي تخرج من سكونها في تلك الأيام بالذات . ها هي كيرا تأتي من تشيروست ، وها هو العجوز فاديي يبدو عليه القلق :

لكي تحصل كيرا وزوجها على قطعة أرض في تشيروست ، ولكي يتمكنا من المحافظة عليها بعد احتلالها ، يجب عليهما أن يقيما هناك بناءً يثبت تبعية الأرض لهما . من أجل هذا بالذات جاءت كيرا إلى هنا . لم يكن الحصول على الخشب للبناء أمراً ممكناً . أما الاستيلاء على قطعة أرض ، فلم تكن لا كيرا ولا زوجها قد تحمسا له ، بالمقدار الذي تحمس له العجوز فاديي .

ها هو العجوز يتردد علينا . جاء مرة ، وتحدث مع ماتريونا بإلحاح ، وطالبها بأن تمنح كيرا الغرفة التي أوصت بها لها الآن ، وليس بعد موتها . أثناء هذه الزيارات لم أكن أرى في فاديي عجوزاً يتكئ على عصاه ، يكاد يتهاوى من دفعة خفيفة ، أو كلمة فظة . ومع أنه كان يحنى ظهره لألم فيه ، إلا إنه كان ما يزال ممشوق القد ، تجاوز الستين من عمره ، وشعره ما يزال أسود غزيراً ، وها هو يلح في طلب الغرفة .

لم يزر النوم عيني ماتريونا ليلتين متتاليتين بعد ذلك . لم يكن سهلاً عليها أن تتخذ قراراً بهذا الشأن . لم تكن ماتريونا تبخل بالغرفة التي تقف بلا أية فائدة ، كما هي لا تبخل عادة لا بجهدها ، ولا بشيء مما لديها . أما هذه الغرفة فكانت قد أوصت بها لكيرا في كل الأحوال ، ومع هذا كان يصعب عليها جداً أن تبدأ بتهديم السقف الذي عاشت تحته أربعين عاماً . وحتى أنا نزيل دارها المؤقت ، كان يؤلمني أن يبدؤوا بخلع ألواح الخشب ، وتفكيك جذوع الجدران ، فكيف لها أن تكون! وقد كان ذلك بمثابة إعلان لنهاية حياتها .

أما أولئك الذين يلحون في طلب الغرفة ، فهم يعرفون بأنهم يستطيعون تحطيم بيت ماتريونا وهي ما تزال حيّة .

ذات صباح من صباحات شباط جاء فاديي بصحبة أولاده وأصهاره ، وبدأت خمس بلطات تفعل فعلها في أخشاب الغرفة ، وبدأت الألواح المخلوعة تصر ، تئن ، وتتخلع .

التمعت عينا فاديي ببريق الانشغال ، وبالرغم من أن ظهره لم يستقم تماماً ، إلا أنه راح يحشر نفسه بهمة ونشاط تحت العوارض ، ويتحرك بحيوية هناك ، صارخاً بين الفينة والأخرى بمعاونيه . كان فاديي قد ساعد

أباه ببناء هذا الكوخ بيديه في صباه . كانوا قد بنوا هذه الغرفة من أجله هو الابن الأكبر بالذات ، لكي يقطنها مع عروسه . أما الآن ، فها هو يخلع أخشابها كي يخرجها من هذه الدار الغريبة .

علّموا القواطع والعوارض والألواح بأرقام ، وخلعوها من مكانها الذي رقدت فيه سنوات طوال . أمّا جدار الكوخ من جهة الغرفة التي هدموها ، فقد دعموه بألواح من الخشب تاركين فيها الكثير من الشقوق .

كان واضحاً أن من يهدم ليس كمن يبني ، فهؤلاء لم يخطر ببالهم أصلاً أنه سيكون على ماتريونا أن تعيش في هذا البيت سنوات أخرى .

بينما كان الرجال يهدمون ، كانت النسوة يتجهزن ليوم الشحن : كان تأمين الفودكا فوق طاقتهم على الدفع . جلبت كيرا معها من منطقة موسكو بوداً من السكر . قامت ماتريونا تحت حجاب الليل بنقل هذا السكر وأواني التقطير لصنع الفودكا .

كانت الألواح والجذوع قد نقلت ، ورصت خارج الدار ، بانتظار أن يعود الصهر سائق القطار ، مع جرار من تشيروست لنقلها إلى هناك . ولكن في هذا اليوم بالذات بدأت عاصفة ثلجية هجومها كما تقول ماتريونا .

تحلزنت الريح ، وزوبعت العاصفة يومين متتالين ، وأخفت بتلال من الثلج معالم الطريق . بعد أن انتهت العاصفة جرفوا الثلج عن جسد الطريق قليلاً .

مرّت شاحنة ، وثانية... وإذا بالحرارة ترتفع فجأة ليذوب الثلج في يوم واحد . بدأ الضباب الرطب المعتم يخيم على المكان ، وبدأت جداول الماء تحفر في الثلج مسارب لها وصارت القدم تغرق في المهروس الثلجي الرطب حتى عنق الجزمة .

عاندت الغرفة المحطمة جرار النقل أسبوعين كاملين! خلال هذين الأسبوعين كانت ماتريونا تتحرك في أرجاء الدار كمن أصابها مس .

كان أكثر ما يثقل عليها أن أخواتها الثلاث أتين معاً ، وأنبنها في جوقة واحدة ، على فعلتها الغبية بالسماح لهم بتحطيم الغرفة ، وقلن لها بأنهن لا يرغبن برؤيتها بعد اليوم ، وانصرفن عنها إلى بيوتهن .

في الفترة ذاتها خرجت قطتها العرجاء من الدار ولم تعد إليه . زاد هذا الأمر من وساوس ماتريونا وأشعرها بالغم .

أخيراً ، أمسك الجليد بالطريق ، فقد حل يوم مشمس أشرقت معه نفس ماتريونا . كانت ماتريونا قد رأت حلماً طيباً في الليلة السابقة لهذا النهار الجليدي المشمس .

أخبرتُ ماتريونا منذ الصباح عن رغبتي بالتقاط صورة لأحد ما وهو يجلس وراء النول العتيق (كان يوجد مثل هذا النول في كوخين من أكواخ القرية ، وكانوا يستخدمونهما لنسج البسط الخشنة) . ضحكت ماتريونا عند سماعها ذلك وقالت بحياء :

ـ طوّل بالك قليلاً يا إفناتيتش حتى ينقلوا الغرفة . أستطيع أن أجمع لك النول الذي لدي ، فهو كامل لا ينقصه شيء ، وتلتقط الصورة التي تريد عندئذٍ ، إي والله! .

يبدو أن ماتريونا كان يعجبها أن ترى نفسها في الزمن الغابر . سكبت الشمس الجليدية الحمراء ، حزمة ضوء وردية ، عند نافذة المدخل الذي بات الآن أقصر ، ودفأت وجه ماتريونا . وجوه هؤلاء الناس الذين يعيشون في توافق مع ضمائرهم مشرقة دوماً .

بينما كنت في طريق عودتي من المدرسة إلى البيت ، قبيل حلول العتمة بقليل ، لاحظت حركة نشطة عند بيتنا . كانت هناك زلاجة جرّار كبيرة جديدة قد رصت بالأخشاب ، بينما تكوم بجوارها الكثير مما لم تتسع له من الخشب . كانت عائلة الجد فاديي ، والمدعوون لتقديم العون قد انتهوا من صنع زلاجة أخرى من ألواح الخشب . كان الجميع يعملون باندفاع مجنون ، بذلك الحماس الذي يشتغل به الناس عندما تفوح رائحة مبلغ كبير من المال ، أو تنتظرهم وليمة عظيمة . كانوا يتصايحون ويتجادلون .

كان الجدال يدور حول ما إذا كانوا سينقلون الزلاجتين معاً ، أم ينقلون كل واحدة منهما على حدة . ابن فاديي الأعرج وصهره سائق القطار قالا : إن الجرار لن يتمكن من جرهما معاً . أمّا سائق الجرار الضخم ، العريض البوز ، المغرور ، فقد لغط بصوته الأجش قائلاً بأنه السائق ، وأنه الأدرى ، وأنه سيجر الزلاجتين معاً .

كانت حسابات السائق واضحة : لقد اتفق معه الصهر سائق القطار على أجر مقطوع لنقل خشب الغرفة . وهو أيضاً لن يتمكن من القيام برحلتين في الليل الواحد بمسافة خمسة وعشرين كيلو متراً ، ويعود إلى القرية بعد ذلك . فقبل طلوع الضوء ، عليه أن يعيد الجرار إلى المكان الذي أخذه منه في المرآب ، سراً ، ليعمل لحسابه في الليل .

لم يكن العجوز فاديي يحتمل فكرة تأجيل النقل إلى الغد ، وهكذا أشار لجماعته بالتراجع عن رأيهم . ربطوا تلك الزلاجة المصنوعة من قبلهم على عجل ، بتلك الجاهزة القوية .وتنقلت ماتريونا بين الرجال بخفة ، مشغولة بما يفعلون ، تساعدهم في ترتيب الخشب على الزلاجة . وبينما كنت أنظر لاحظت أن ماتريونا ترتدي سترتي ، وأنها لطخت كميها

بالوحل الثلجي الملتصق بالجذوع . نبهتها على ذلك بامتعاض . ارتبطت هذه السترة بذكريات هامة في حياتي ، فقد دفأتني في سنوات عمري العجاف .

كانت تلك هي المرّة الأولى التي أغضب فيها من ماتريونا ڤاسيليڤنا .

ـ أوي ، أوي... أوينكي ، يا لرأسي البائس! ـ اغتمت ماتريونا ـ اعذرني يا إيفناتيتش! ـ وخلعت السترة وعلقتها لتجف .

فرغ الرجال من تحميل الزلاجتين بأخشاب الغرفة المهدّمة ، واندفعوا جميعاً وكانوا حوالي عشرة رجال إلى المطبخ هادرين بمحاذاة طاولتي ، متحاشرين تحت ستارة الباب . ومن هناك كان يصلني صوت قرع الكؤوس ، وضرب الزجاجات هادئاً في البداية ، ثم راحت الأصوات تعلو وتعلو . بدأ التباهي الفارغ .

كان سائق القطار أكثر من تباهى بينهم . فاحت رائحة الفودكا المنزلية الثقيلة النفاذة في أرجاء البيت كافة حتى بلغت أنفي . لم يطل الرجال جلسة الشراب ، فقد أرغمتهم العتمة على الاستعجال . بدؤوا بالخروج . خرج سائق الجرار المغرور ذو الوجه الجلف . خرج الصهر سائق القطار وابن فاديي الأعرج ، وأحد أحفاده لمرافقة الحمولة حتى قرية تشيروست .

أما البقية . فتفرقوا إلى بيوتهم .

لوّح فاديي بعصاه ، مسرعاً في أعقاب واحد منهم ، محاولاً أن يفهمه أمراً ما .

توقف الابن الأعرج عند طاولتي ليدخن لفافة تبغ . قال لي فجأة إنه يحب العمة ماتريونا كثيراً ، وإنه تزوج منذ فترة قريبة ، وإن زوجته أنجبت

له صبياً منذ عدة أيام . وبينما كان يحدثني جاءه صوت من الخارج ، فأسرع إليهم .

شخر الجرار خلف النافذة . كانت ماتريونا آخر من خرج من البيت . فها هي تغادر المطبخ على عجل . هزّت رأسها بقلق في أعقاب المغادرين .

لبست سترتها ، ووضعت الشال على رأسها ، وقالت لي وهي واقفة بالباب :

ـ لماذا لم يستأجروا جرارين بدل الواحد! فإذا عجز أحدهما يجرّه الآخر . والآن ، كيف سيصل! الله وحده يعلم . ثم ركضت إلى هناك .

بعد تناول الفودكا ، والجدال الصاخب ، والتحرك إلى هنا وهناك ، عم السكون بشكل خاص الكوخ المهمل ، البارد ، الذي غادره الدفء نتيجة الفتح المتكرر للباب . وفي الخارج عمت الظلمة . أنا أيضاً لبست سترة اللباد ، وجلست وراء طاولتي . ضعف صوت الجرار شيئاً فشيئاً حتى تلاشى في البعيد . مضت ساعة ، وثانية ، وثالثة... ولم تعد ماتريونا ، لكن ذلك لم يثر استغرابي . ربما تكون قد عرّجت على صديقتها ماشا في طريقها أثناء مرافقتها للزلاجات . ليست العتمة وحدها ، بل وصمت عميق ما هبط على القرية . لم أستطيع آنذاك أن أفهم من أين جاء هذا الهدوء المطبق . تبين لي فيما بعد أن أي قطار لم يمر طوال المساء على سكة الحديد التي تبعد عنا نصف فرستا* فحسب ، وأن مذياعي كان صامتاً أيضاً . أمّا الفئران ، فقد نشطت في هذا المساء أكثر من أي وقت مضى . لقد تراكضت بصخب أكبر ، ووقاحة أكبر خلف ورق الجدران . خشخشت ، وصأصأت .

* فرستا : وحدة روسية لقياس المسافة تعادل ١,٠٦٦٨ كم .

كبوت فوق طاولتي ، ثم انتفضت على حين غرة ناظراً إلى الساعة . كانت الساعة تقارب الواحدة ليلاً ، ولم تعد ماتريونا إلى البيت بعد . سمعت فجأة عدة أصوات مرتفعة في القرية . كانت الأصوات ما تزال بعيدة ، ومع هذا شعرت بأنها تتجه صوبنا بالذات . وبالفعل ، ما هو إلا قليل ، حتى طرق بابنا طرقات حادة متلاحقة .

أمرني صوت غريب متسلط بأن افتح الباب . خرجت أحمل مصباح الجيب الكهربائي إلى العتمة المطبقة . كانت القرية تغط في نوم عميق ، وكانت نوافذ البيوت معتمة . والثلج أيضاً كان قد ذاب خلال الأسبوع المنصرم ، ولم يشع الآن .

فتحت درباس الباب . دخل الكوخ أربعة رجال غرباء في معاطف حكومية ، أنْ يأتوا إليك ليلاً هادرين وفي معاطف حكومية ، أمر غير مطمئن على الإطلاق . تحت الضوء ، رأيت أن معطفي اثنين منهما يخصان السكك الحديدية .

سألني قائدهم ، الرجل السمين ، ذو الوجه المشابة لوجه سائق الجرار :

- أين ربة البيت ؟

- لا أدري ؟ أجبته .

- والجرار الذي يجر زلاجات ، ألم يخرج من هذا البيت ؟

قلت له :

- أجل من هذا البيت ؟

- ألم يشربوا فودكا ، قبل أن ينطلقوا من هنا ؟

ضيّق الرجال الأربعة عيونهم ، وجالوا بأبصارهم في الكوخ نصف المعتم ، رغم ضوء المصباح على طاولتي . قلت في نفسي ربما يكونون قد اعتقلوا أحداً ما ، أو أنهم يريدون اعتقال أحد ما .

ـ ولكن ما الذي حدث ؟ سألتهم .

ـ أجيبوا عن الأسئلة! ولا تسألوا .

ـ وماذا هناك بعد ؟...

ـ هل خرجوا من هنا وهم سكارى ؟ هل شربوا قبل الخروج ؟

تساءلت بيني وبين نفسي هل قتلوا يا ترى أحداً ما ، أم أن نقل أخشاب الغرفة ممنوع! لقد أثقل علي هؤلاء الرجال جداً . لكن أمراً واحداً بات واضحاً بالنسبة لي هو أن ماتريونا يمكن أن تسجن من وراء هذه الفودكا المنزلية الصنع . اندفعت باتجاه باب المطبخ ووقفت أحجب داخله بجسدي .

ـ في الحقيقة ، لم ألاحظ ، لم يكن ذلك واضحاً عليهم! (أنا فعلاً لم أكن أرى ، بل كنت أسمع فقط) . ثم أشحت بيدي بحركة عدم فهم وكأنني أعرض ما في الكوخ : ضوء المصباح الخافت فوق دفاتري وكتبي ، حشد شجيرات الكاوتشوك المذعورة ، وسرير الزهاد الصارم .

لم تكن هناك أية آثار للعربدة ، وها هم قد رأوا بأنفسهم منزعجين أن أية حفلة سكر لم تجر هنا . اتجهوا صوب الباب ، وهم يتحدثون فيما بينهم (يعني ، السكر لم يتم في هذا الكوخ ، ولكن ، لو نستطيع أن نثبت أنهم سكروا) .

رافقتهم ، محاولاً معرفة شيء مما حصل . عندما وصلنا إلى باب الدار قال أحدهم :

ـ تمزّقوا شر تمزيق!

ـ هذه ليست مشكلة! المصيبة كانت ستقع لو أن القطار الحادي والعشرين السريع انقلب ، فهو بأعجوبة لم يخرج عن السكة . أضاف الثاني . ثم خرجوا جميعهم مسرعين .

من هؤلاء الذين تمزقوا ؟ هل هم جميعاً ؟ وماتريونا أين تكون الآن ؟

عدت إلى الكوخ . أزحت ستارة باب المطبخ ، ودخلت . فاحت رائحة الفودكا في وجهي . كانت أمامي آثار حفلة سكر انقضت : كراسي ومقاعد مشتتة بفوضى حول الطاولة ، زجاجات فارغة مريبة ، واحدة منها بقي فيها بعض الڤودكا ، كؤوس ، سمك مملح لم يؤكل ، بصل ، قطع من شحم الخنزير... كل ذلك كان ميتاً الآن . وحدها الصراصير كانت تتنقل في أرض المعركة ، كيفما تشاء ، غير مبالية .

بدأت بترتيب ما خلّفوه . غسلت الزجاجات . رفعت بقايا الطعام عن الطاولة . رتبت الكراسي . أمّا ما تبقى من ڤودكا ، فأخفيته في زاوية بعيدة من القبو المعتم . وبعد أن انتهيت من كل ذلك عدت لأقف كالساموك وسط الكوخ الفارغ .

كانوا قد قالوا شيئاً حول القطار الحادي والعشرين السريع ، ماذا يعني ذلك ؟ ربما كان من واجبي أن أريهم كل ما خلّفه أولئك من آثار... لم أعد واثقاً بصحة ما فعلت . ولكن ، أي سلوك ملعون هذا! لماذا لا يوضحون شيئاً للمواطن ؟ وإذا بي أسمع صرير باب الدار .

خرجت مسرعاً إلى العتبة ، وناديت :

ـ ماتريونا ڤاسيليڤنا!

دخلت الكوخ ماشا صديقة ماتريونا وهي تجوح في مشيتها ، وتولول :

ـ ماتريونا! ماتريونا... يا إيفناتيتش .

دعوتها للجلوس . حدثتني وهي تذرف الدمع :

ـ هناك طلعة قاسية عند تقاطع الطريق مع سكة الحديد ، ولا توجد إشارة وقاطع على المعبر . تجاوز الجرار سكة الحديد مع الزلاجة الأولى ، وفجأة انقطعت الوصلة بين الزلاجتين ، وعلقت الزلاجة الثانية بسكة الحديد ، وبدأت تتهاوى . لم يعطهم فيديا خشباً قوياً لصناعة هذه الزلاجة! جرّوا الزلاجة الأولى لبعض المسافة ، وعادوا لجر الثانية ، راح سائق الجرار وابن فيديا الأعرج يحاولان ربط الزلاجة العالقة بالجرار ، ماتريونا أيضاً حشرت نفسها بين الجرار والزلاجة . مالذي دفعها إلى الذهاب! أي نفع منها للرجال هناك ؟ إنها طوال عمرها تحشر نفسها في أشغال الرجال . في يوم من الأيام كاد حصان يلقي بها في نقرة جليد في البحيرة . ما الذي دفع بها إلى ذلك المعبر اللعين! أعطتهم الغرفة ، وأدّت واجبها ، وانتهى الأمر... كان صهرهم سائق القطار ينظر بانتباه خوفاً من أن يندفع من جهة تشيروست قطار ما . كان يمكن رؤية ضوء القطار من مسافة بعيدة . ولكن من الجهة المقابلة ، من ناحية محطة قريتنا تحرك قطارا شحن مربوطان معاً... تحركا بدون أضواء باتجاه الخلف . لماذا تحركا على السكة من دون أضواء! لا أحد يعلم . وعندما يتحرك القطار إلى الخلف فإن سائقه يكاد لا يرى شيئاً من خلال غبار الفحم المتطاير . اصطدم القطار فجأة بالزلاجة فأحال من كان بينها وبين الجرار إلى قطع من اللحم . تعجّن الجرار ، وتحطمت الزلاجة ، وتقنطرت سكة الحديدة ، وانقلب القطاران معاً بحمولتهما .

ـ كيف! ألم يسمعوا صوت اقتراب القطار منهم! ؟

ـ لا ، كان محرك الجرار اللعين يشخر قربهم بصوت مرتفع .

ـ وماذا عن الجثث ؟

ـ لا يسمحون بالاقتراب منها . طوّقوها .

ـ ولكنهم قالوا شيئاً ما حول القطار السريع ، ماذا عنه ؟

ـ قطار الساعة العاشرة السريع يمر من هنا ، دون أن يتوقف في محطتنا ، ويجتاز هذا المعبر أيضاً . لحسن الحظ عندما انقلب قطارا الشحن بقي سائقاهما على قيد الحياة ، لم يتأذيا . ركضا على طول السكة وهما يلوحان بأيديهما... وتمكنا من إيقاف القطار السريع . حفيد فيديا أيضاً تأذى فقد ارتطمت إحدى الخشبات برأسه ، وهو يختبئ الآن عند كلاڤديا ، فلو عرفوا أنه كان معهم على المعبر لأهلكوه في التحقيق كشاهد على الحادث (من لا يعرف ينام مرتاحاً ، ومن يعرف يجرجر هنا ، وهناك) . أمّا زوج كيرا فلم يصب بأي خدش ، لكنه حاول أن يشنق نفسه .

أخرجوا رأسه في اللحظة الأخيرة من الأنشوطة . راح يهذي : بسببي ماتت عمتي وأخو زوجتي . ذهب وسلّم نفسه إلى السلطات .ولكن يجب أخذه ، الآن ، ليس إلى السجن بل إلى مشفى المجانين... آخ يا ماتريونا ، ماتريونشكا! . لم تعد هناك ماتريونا ، قتيلة أنت الآن أيتها الحميمة .

يا للّه ، في آخر يوم من حياتها وبّختها على تلطيخ سترتي! ابتسمت الفتاة الملونة بالأحمر والأصفر على ورقة الاعلان بسعادة . بقيت العمة ماشا جالسة لبعض الوقت تذرف الدمع . وحين همّت بالانصراف سألتني على حين غرة :

ـ إيفناتيتش ، ألا تذكر ، كان لدى ماتريونا كنزة صوف رمادية ، وقد أوصت بها لابنتي تانيا بعد موتها . أليس كذلك ؟

قالت ذلك ونظرت إليّ في غبش العتمة مؤملة . أوَ هل أكون قد نسيت أجل ، ها أنا قد تذكرت :

ـ لقد أوصت بذلك فعلاً .

ـ اسمع ، لو تسمح لي بأخذها الآن معي . ففي الصباح سيأتي الأقرباء ، ولن يكون بمقدوري بعدها الحصول على أي شيء .

ومن جديد نظرتْ صوبي راجية مؤملة .

كانت ماشا صديقة ماتريونا الوحيدة على مدى نصف قرن . والوحيدة التي تحب ماتريونا في هذه القرية... ربما يكون من الأفضل فعلاً ، أن تأخذها الآن .

ـ طبعاً... خذيها . أكدت لها .

فتحت ماشا الصندوق . حشرت الكنزة تحت ابطها وانصرفت...

سيطر الجنون على الفئران . ركضت على الجدران . كان ورق الجدران الأخضر يُرى وهو يموج تحت ظهور الفئران المتحركة .

لم يكن لديَّ مكان أذهب إليه . هم بأنفسهم سيأتون ليستجوبوني .

في الصباح كانت المدرسة بانتظاري . الساعة تجاوزت الثانية بعد منتصف الليل ، ولا حل لدي إلا أن أحشر نفسي في السرير وأنام . يمكنني أن أقفل الباب فماتريونا لن تأتي إلى البيت .

استلقيت على السرير من غير أن أطفئ النور . خربشت الفئران . صوصأت بما يشبه الأنين ، وتابعت رواحها ومجيئها خلف الورق . لم يستطع

ذهني المرهق ، المشتت أن يتخلص من هاجس أن ماتريونا عادت كائناً غير مرئي ، مودّعة ، تجوب الكوخ .

فجأة ، بدا لي ، كأنني أرى على عتبة الباب فاديي الشاب الأسود الشعر يرفع بلطته صائحاً : «لو لم يكن أخي لقطعتكما معاً إرباً إرباً!» .

رقد هذا الوعيد في الزاوية كساطور عتيق أربعين عاماً ، وأخيراً ضرب ضربته .

ـ ٣ ـ

قبيل الفجر جاءَت النسوة بكل ما بقي من جسد ماتريونا على زلاجة مغطاة بكيس قذر . ألقين بالكيس جانباً للغسيل . كانت أشلاء الجسد مخلوطة ، غير قابلة للتمييز ، لم يكن ممكناً أن ترى لا القدمين ، ولا نصف البدن ، ولا اليد اليسرى . رسمت إحدى النساء علامة الصليب وقالت : لقد أبقى الله على يدها اليمنى لكي تصلي هناك له .

قامت النسوة بإخراج كل نباتات الكاوتشوك من الكوخ ، تلك الشجيرات التي أحبتها ماتريونا كثيراً ، حتى إنها في إحدى المرّات ، وقد استيقظت على دخان ينبعث من مكان ما ، قفزت من سريرها لا لكي تحمي الكوخ ، بل لتُرقد النباتات على الأرض كي لا تختنق من الدخان .غسلن أرض الكوخ جيداً . غطين مرآة ماتريونا الغبشة بمنشفة منزلية الصنع ، عريضة ، عتيقة . نزعن عن الجدران أوراق الإعلان الزاهية . أزحن طاولتي جانباً . وضعن النعش البسيط ، الذي رقدت فيه ماتريونا على مقاعد ، قرب النوافذ ، تحت الإيقونات .

كان جسدها الغائب المشوه مغطى بشرشف نظيف ، وكان رأسها ملفوفاً بمنديل أبيض ، أما وجهها فلم يطله التشويه ، بل بقي هادئاً ، أقرب إلى الحياة من الموت .

جاء أهل القرية ليقفوا ويلقوا نظرة الوداع . اصطحب النسوة أطفالهن ليلقوا نظرة على المتوفاة . وحين كان يبدأ العويل ، كن جميعهن ، حتى أولئك اللواتي دخلن بدافع الفضول ، يتباكين كما لو ليكملن جوقة النواح . أمّا الرجال ، فقد وقفوا صامتين ، مشدودي الظهور ، حاسري الرؤوس .

كان النواح الحقيقي من نصيب قريبات ماتريونا . لاحظت في البكاء على الميتة تقليداً قديماً تكوّن على مدى زمن طويل :

من كُنّ من الأباعد يقتربن من النعش لقليل من الوقت ، ويندبن قربه قليلاً أيضاً . أمّا من عددن أنفسهن أقرب إلى المتوفاة ، فيبدأن بالنواح من عتبة الدار ، وعندما يبلغن النعش ينحنين ، ويندبن مباشرة فوق وجه المتوفاة .

كانت نغمة نواح كل واحدة من النساء خاصّة بها ، صبت فيها أفكارها و أحاسيسها الخاصّة .

بُتُّ أعرف الآن أن البكاء على الميت ليس بكاء فقط ، بل هو ممارسة لسياسة ما أيضاً . أخوات ماتريونا الثلاث وصلن ، فاحتللن الكوخ ، والموقد ، والعنزة ، وقفلن صندوق ماتريونا بالمفتاح ، وأخرجن من قلب بطانة معطفها تلك الروبلات المائتين ، التي خبأتها لمثل هذا اليوم ، وحاولن أن يزرعن في أذهان الجميع أنهن الوحيدات القريبات من ماتريونا . أمّا نواحهن فوق نعش اختهن فكان على الصورة التالية :

ـ آخ ، نياكا ، نياكا ، آخ يا لالكا لالكا... آخ يا وحيدتنا . كان يمكنك أن تعيشي بهدوء وسلام ، وكنا نعطف عليك ونرعاكِ... قتلتك غرفتك ، ونالت منك لعنتك! فلأي شيء هدمت الغرفة ؟ ولماذا لم تصغي إلينا ؟

هكذا ، كان نواح أخوات ماتريونا ، نواحاً متهماً لأقرباء زوجها ، بأنهم هم من أرغم ماتريونا على هدم الغرفة ، وما كان يجب عليهم أن يفعلوا ذلك (أما المغزى الأعمق لهذا النواح : الغرفة وأخذتموها ، أمّا الكوخ فلن نعطيكم إياه!)

أمّا القريبات من جهة زوج ماتريونا ، أخوات يفيم وفاديي ، وبنات الأخوة ، والأخوات ، فقد أتين ، وبدأن النواح بهذا الشكل :

ـ آخ ، يا تيوتنكا تيوتنكا! لماذا لم تصوني نفسك! هم الآن سيزعلون منا ، على الأرجح! وأنت حبيبتنا ، والذنب كله ذنبك أنت! ولا علاقة للغرفة بما حصل لك! فلماذا ذهبت إلى هناك ، حيث كان الموت يتربص بك ؟ لم يطالبك أحد بالذهاب! وهكذا متِّ ، ولم تفكري إنك تموتين! ولماذا لم تأخذي بنصيحتنا ؟

أمّا أنا ، فمن كل ما قلنه في نواحهن أستخلص الجواب التالي : (لا ذنب لنا بموتها ، أمّا ما يتعلق بالكوخ ، فلنا حديث آخر!)

أما ماتريونا الثانية البليدة ، العريضة الوجه ، تلك البديلة التي تزوجها فاديي ، فقط ، لأنها تحمل اسم ماتريونا ، فقد خرجت عن سياسة النواح ، وراحت تغط في البكاء ، وتنشج فوق النعش :

ـ آه ، يا أختي الغالية! هل يعقل أن تزعلي مني ؟ أُخ ماآآ... كم كنت تؤانسينني وتحدثينني! اعذريني يا مسكينة! أُخ ماآآ... ورحلت إلى أمك من دوني ، ليتك تمرّين وتأخذينني معك ، أُخْ ما آآ...

لقد صبت ماتريونا الثانية كل روحها في هذه الـ «أُخْ ماآآ» وهي تخبط صدرها بالنعش .

عندما تجاوز نواحها المعيار المتفق عليه في التقاليد ، قالت لها النسوة بصوت واحد ، كأنهن كن يعترفن بأن بكاءها حقق النجاح المطلوب :

يكفي! يكفي!

تتراجع ماتريونا قليلاً ، لكن ها هي تعود من جديد غارقة في هياج من النشيج .

تنهض عندئذ إحدى عجائز القرية المعمرات من مكانها في الزاوية . تضع يدها على كتف ماتريونا ، وتقول بصرامة :

ـ في الدنيا لغزان : كيف ولدت ـ لا أذكر ، وكيف ستموت ـ لا أعرف . وإذا بماتريونا تصمت في الحال ، وجميعهن يصمتن حتى يعم السكون .

لكن هذه العجوز ذاتها ، التي تكبر جميع عجائز القرية بعدة سنوات ، والتي لا تمتّ بصلة قربى إلى ماتريونا المتوفاة ، بدأت بعد قليل من الوقت بالنواح :

ـ آخ ، أنت يا طيّوبة! آخ ، يا ڤاسيليڤنا! آخ ، لم أعد أطيق وداعك!

وبنحيب بسيط ، خارج إطار الأعراف ، نشجت ربيبة ماتريونا التعيسة الحظ كيرا ، تلك التي من تشيروست ، تلك التي من أجلها هدموا الغرفة ، ونقلوها ، تدلت خصلات شعر كيرا المجعدة بأسى . كانت عيناها المنتفختان حمراوين كالدم . لم تكن تعي أن شالها يتجرجر على الأرض ، وأنها لبست معطفها ، ونسيت أن تدخل يدها في أحد الكمين . كانت في عجلة تتنقل

بين نعش ماتريونا هنا ، ونعش أخيها هناك ، حتى إنهم باتوا يخشون على عقلها من مس ، فزوجها أيضاً سيخضع للمحاكمة .

كان واقع الأمر يقول بأن ذنب زوج كيرا ذنبين : فهو لم يكتف بنقل خشب الغرفة عبر سكة الحديد ، بل وكان موظفاً في السكك الحديدية سائقاً لقطار ، ويعرف جيداً قواعد نقاط العبور غير المحمية . كان عليه أن يذهب إلى المحطة ويعلمهم بوجود الجرار . ففي ذلك الليل كان في قطار الأورال السريع حيواتٌ لألف إنسان ينامون باطمئنان ، على الأسرّة السفلى ، والعليا تحت الأضواء الخافتة لمصابيح المقصورات . كان يمكن أن تزهق تلك الأرواح من وراء جشع عدة أشخاص : الاستيلاء على قطعة أرض ، أو توفير أجر الجرار ، ونقل الخشب على دفعة واحدة بدلاً من دفعتين .

كل ذلك جرى بسبب هذه الغرفة ، التي حلّت عليها اللعنة منذ رفع فاديي يده ليحطمها . لم يعد سائق الجرّار خاضعاً لمحكمة البشر ، وبعد ، فإن إدارة سكة الحديد ليست معفاة من الذنب ، فهم لم يضعوا محرساً على نقطة العبور النشيطة تلك ، وسمحوا للقطار أن يمشي عليها من دون ضوء .

لقد حاولوا في البداية أن يلقوا بالمسؤولية كلها على الخمر ، أمّا الآن ، فإن المحكمة تنظر في الأمور .

كانت سكة الحديد قد تشوهت إلى درجة أن القطارات لم تستطع السير عليها ، بل حُوّلت عن خط سيرها إلى خط آخر ، طوال الأيام الثلاثة ، التي كانت النعوش خلالها ما تزال في البيوت . فعلى مدى أيام الجمعة والسبت والأحد ، من نهاية التحقيق وحتى الدفن ، كانت أعمال الصيانة والاصلاح تجري بنشاط على المعبر ليل نهار . أمّا عمال الصيانة فلكي ، يتدفؤوا ، ويتضوؤوا في عتمة الليل ، أشعلوا النار في أخشاب الزلاجة الثانية

المتناثرة حول المعبر . أما االزلاجة الأولى ، فقد وقفت على بعد عدة أمتار من المعبر ، محمّلة عن آخرها بالخشب .

وهذا بالذات ما أغاظ العجوز فاديي ذا اللحية السوداء ، ومزّق روحه ، طوال يومي الجمعة والسبت ، فإحدى الزلاجتين جاهزة مع حبلها تنتظر من يجرها ، والثانية ما يزال بالإمكان إنقاذها من النار . وابنته أصاب عقلها خبل ، وصهره مهدد بالسجن ، وفي بيته ترقد جثة ابنه الذي قتله بيديه ، وفي هذا الشارع ترقد قتيلةً ، المرأة التي أحبها يوماً .

لدقائق فقط كان يأتي فاديي ليقف أمام نعوش الموتى ، ممسكاً بلحيته السوداء . كانت التجاعيد تبدو على جبهته العالية المقطبّة تحت وطأة التفكير الثقيل . لكن هذا التفكير لم يكن بمن ماتوا ، بل بحيلة ، ينقذ بها خشب الغرفة من لهب النار ، ومن مؤامرت أخوات ماتريونا .

كنت أعرف من خلال خبرتي بأهل تالنوڤو أن أمثال فاديي هنا كثر ، فليس وحده الذي يفكر بهذه الطريقة في هذه القرية :

إنّ ما هو لنا منّا ، ومن المعيب أن نفرط به ، ونخسره .

عجيبة هي التسميات التي يطلقها الناس على ما يملكون!

لم يطق فاديي الركون في مكان بهدوء ، بل راح يتنقل بين القرية ومحطة القطار ، من إدارة إلى إدارة ، منتصب القامة ، مستنداً إلى عصاه ، يرجو كل من يراه أن يتكرم على شيخوخته ، ويسمح له بإعادة الخشب المحجوز .

وأخيراً أتت محاولاته أكلها ، فسمح له أحدهم بذلك . وفي الحال استنفر فاديي أولاده السالمين ، وأصهاره ، وأحفاده ، وحصل على أحصنة من

الكولخوز ، وانطلق إلى الجهة الثانية من المعبر المحطم ، في طريق دائري طويل يمر بثلاث قرى ، وعاد بخشب الغرفة إلى داره .

أنجز فاديي كل ذلك في ليل السبت إلى الأحد .

نهار الأحد قاموا بدفن الموتى . التقى نعشان في وسط القرية ، فتجادل الأقرباء من الطرفين أيهما يكون في المقدمة ، وأخيراً اتفقوا على وضعهما معاً على زلاجة عريضة واحدة ، جنباً إلى جنب . وعلى قشرة الثلج الجليدية ، التي راحت تتبلل من جديد ، في هذا اليوم الشباطي ، تحت السماء الكالحة ، نقل جثمانا ماتريونا وابن أخ زوجها إلى مقبرة الكنيسة الواقعة على بعد قريتين من هنا .

كان الطقس عاصفاً ، متجهماً ، لذلك لم يخرج الخوري والشماس إلى تالنوڤو لملاقاة الجنازة ، بل انتظرا وصولها في الكنيسة .

سار المشيعون ببطء حتى تخوم القرية يرددون بجوقة واحدة بعض أغاني الجنائز ، ثم ما لبثوا أن كفّوا عن الإنشاد .

لم يهدأ هرج النساء وململتهن في كوخنا حتى يوم الأحد : قرأت إحدى العجائز قرب نعش ماتريونا في كتاب صلوات الشكر ، أما أخوات ماتريونا فكن قد شغلن الركن عند الموقد الروسي ، حيث يتوهج اللهب خارجاً من فتحته ، منبعثاً من قطع التورف ، ذلك التورف الذي حملته ماتريونا على ظهرها من المستنقع الكبير .

خبزن من طحين رديء فطائر غير لذيذة الطعم .

في يوم الأحد ، عندما عادوا من الدفن ، وكان المساء قد أرخى سدوله اجتمعوا على وليمة تأبين المتوفاة . رُتبت الطاولات في صف واحد طويل ،

وصل إلى ذلك المكان الذي كان النعش يشغله هذا الصباح .

في بادئ الأمر وقف الجميع حول الطاولة ، وبينما قرأ العجوز زوج أخت يفيم «يا سيدّي!» بعد ذلك تناولوا بعض الطعام وشربوا الڤودكا ، فبدأت الأحاديث تكتسب المزيد من الحيوية . وقف الجميع قبل تناول الكيسيل* ، ورددوا «ذكرى خالدة» (أوضحوا لي أن تناول الكيسيل لا بد أن يسبقه إنشاد «الذكرى الخالدة») . عادوا إلى شرب الفودكا من جديد ، وصاروا يتحدثون بصوت أعلى فأعلى . ولكن ليس عن ماتريونا على الإطلاق .

أخذ زوج أخت ماتريونا طرف الحديث ، وراح يتباهى :

ـ ألم تلاحظوا ، أيها الأرثوذكسيون أن إنشادنا اليوم كان بطيئاً ؟ هذا لأن الأب ميخائيل التفت إلي . هو يعرف أنني أجيد الصلاة ، أما اليوم فقد رجاني ، بشكل خاص أن أتدبر الأمر بمعرفتي .

وأخيراً ، انتهى حفل العشاء . نهض المحتفلون من جديد . وأنشدوا «هبنا لقمة كريمة!» رددوا بعدها ثلاث مرّات ذكرى خالدة ، ذكرى خالدة ، ذكرى خالدة! لكن أصواتهم كانت قد بُحت وخشنت ، ووجوههم كانت وجوه سكارى . ولم يعد أحد منهم يحمّل هذه «الذكرى الخالدة» أية مشاعر .

بعد ذلك تفرّق معظم الضيوف ، وبقي الأقرباء فقط . لفوا السجائر . دخنوا ، وبدؤوا بإلقاء النكات ، وبالقهقهات . تناول الحديث زوج ماتريونا الذي اختفى بلا أثر . قام زوج أخته ، ضارباً على صدره ، محاولاً إقناعي ، وإقناع الحذّاء زوج إحدى أخوات ماتريونا ، وقال :

* كيسيل : طعام روسي يتألف من النشاء وإضافات نباتية : ثمار فواكه أو عصائرها .

ـ مات يفيم ، مات! كيف يمكنه ألا يعود إلى وطنه ؟ لو قالوا لي سيعلقون مشنقتك إن عدت إلى وطنك ـ أعود!

هزَّ الحذّاء رأسه مؤيداً . كان الحذّاء فاراً من الجندية ، وهو لم يفارق وطنه في يوم من الأيام ، فقد اختبأ طوال فترة الحرب عند أمه في القبو .

عالياً ، على سقيفة الموقد ، جلست تلك العجوز التي بقيت لتقضي الليل هنا ، تلك العجوز التي تكبر أكبرهن بالعمر . جلست صامتة تنظر من أعلى نظرة استنكار إلى شباب الخمسين والستين عاماً في هرجهم غير اللائق .

وحدها ربيبة ماتريونا التعيسة ، التي ترعرعت وشبت بين هذه الجدران انزوت في ركن من المطبخ تذرف الدمع .

لم يأت فاديي إلى وليمة تأبين ماتريونا . ربما لأنه كان يؤبن ابنه القتيل . لكنه في الأيام القليلة التي تلت ذلك ، قدم مرتين إلى الكوخ ، لا في زيارة ودٍ ، بل مشحوناً بفكرة التفاوض مع أخوات ماتريونا ، ومع الحذّاء الفار من الجندية .

كان الجدال يدور حول الكوخ ، أيعود لربيبة ماتريونا أم لأخواتها!

وَصل النقاش إلى طريق مسدود ، ليس بعده إلا اللجوء إلى المحكمة .

لكن التفكير بذلك دفعهم إلى المصالحة ، فالمحكمة لن تمنح الكوخ لا لهؤلاء ولا لأولئك ، بل ستسلّمه لسوڤييت القرية . وهكذا تم الاتفاق :

العنزة ، تأخذها إحدى الأخوات ، الكوخ للحذّاء وزوجته ، وتُركت تلك الغرفة المهدّمة لفاديي الذي «كل قطعة خشب هنا من صنع يديه» ، وتنازلن له أيضاً عن الحظيرة ، حيث كانت تعيش العنزة ، وعن كل السياج الداخلي الفاصل بين أرض الدار والحاكورة .ومن جديد نشط العجوز الجشع ، متغلباً

على وهنه ونقزان مفاصله ، وعاد إليه شبابه . ومرّة أخرى ، جمع أبناءَه الأحياء ، وأصهاره ، فراحوا يداً واحدة يفككون الحظيرة والسياج . بينما تولى بنفسه نقل الأخشاب إلى الزلاجات... ثم إلى الزلاجات... حتى إنه بقي يعمل وحيداً في آخر المطاف ، يساعده انتوشكا ابن الصف الثامن من الشعبة ج ، الذي لم يتكاسل هنا على الاطلاق .

أغلقوا باب كوخ ماتريونا بألواح من الخشب وسمّروه حتى الربيع . أما أنا فانتقلت للعيش عند إحدى أخوات زوجها . كانت هذه الأخت ، في مناسبات عدة ، تتذكر شيئاً ما يخص ماتريونا ، وتضيء لي إذ تتحدث جوانب أخرى لم أكن أعرفها من حياة ماتريونتي .

ـ لم يكن يفيم يحبها . كان يقول لها : أحب أن تلبس اللباس المدني ، أمّا هي... فكيفما كان باللباس القروي . كانت في إحدى المرّات مسافرة بصحبته إلى المدينة ، في عمل ، وهناك صاحب يفيم أفندية ، ولم يرغب بالعودة إلى البيت إطلاقاً .

كانت كل آرائها بماتريونا غير إيجابية : لم تكن نظيفة ، ولم تسعَ إلى جمع المال ، و كانت غير مرتبة ، ولم تربّ خنزيراً فلم يكن يعجبها تقديم العلف له ، وكانت غبية تساعد الغرباء مقابل لا شيء .

(ما دفعها للحديث عن ماتريونا هو حاجتها لمن يجر لها المحراث لحراثة حاكورتها ، فلم يعد هناك من تلجأ إليه في طلب العون بعد وفاة ماتريونا) .

وحتى فيما يتعلق بطيبة قلب ماتريونا ، وبساطتها ـ تلك الصفات التي تعترف بها أخت زوجها ، كانت تذكرها متحسّرة .

مع هذه التعليقات غير المستحسنة لأخت زوجها ، ارتسمت أمامي صورة لماتريونا ، التي لم أكن أفهمها ، أنا الذي كنت أعيش معها جنباً إلى جنب .

هناك فعلاً في كل بيت خنزير! وأي شيء أسهل من ذلك ـ أن تطعم خنزيراً شرهاً لا يعرف في الدنيا سوى الطعام ، أن تطبخ له ثلاث مرات في اليوم ، وتعيش من أجله ، ثم تذبحه ، وتأكل شحمه! بينما هي لم تفعل... لم تركض وراء المال ، ولم تسابق لاقتناء الأشياء كي تصونها فيما بعد أكثر من حياتها نفسها ، ولم تنجر وراء الزينة ، ووراء اللباس الذي يخفي التشويهات ومعالم الحقد .

هذه المرأة التي لم يفهمها زوجها فهجرها ، والتي دفنت أولادها الستة ، لم تدفن خلق المعاشرة . هذه الغريبة عن أخواتها وأخوات زوجها ، هذه المضحكة التي تخدم الغرباء دون أجر ، هذه التي لم تجمع للموت سوى عنزة بيضاء ، وقطة عرجاء ، وبعض شجيرات الكاوتشوك... كلّنا عشنا قربها ، ولم نفهم أنها هي بذاتها ذلك التقي . الذي لا تقوم ـ كما يقول المثل ـ قرية ولا مدينة ولا الأرض كلها من دونه .

١٩٥٩

حادثة في محطة كوتشيتوفكا

ـ آلو ، مسؤول الحركة ؟

ـ ماذا تريد ؟

ـ من معي ؟ دياتشيخين ؟

ـ ماذا تريد ؟

يكفيك ، ماذا ، ماذا... أنا أسألك ، هل أنت دياتشيخين ؟

ـ حوّل عربات الصهريج من السابع إلى الثالث . نعم أنا دياتشيخين ؟

ـ معك مساعد الآمر الحربي ، الملازم زوتوف! اسمع ، لماذا لم ترسلوا إلى ليبيسك حتى الآن القافلة الحربية رقم ستمائة و... وسبعين... وكمْ يا ڤاليا ؟

ـ وثمانٍ وسبعين .

ـ ستمائة وثمانٍ وسبعين!

ـ ليس لدينا رأس جر .

ـ كيف ذلك! لا يوجد رأس جر ؟

ـ هكذا ، لا يوجد . ڤارناكوڤ ؟ ڤارناكوڤ ، هناك على السكة

السادسة أربعة أرصفة بزاوية أتراها ؟ حوِّلهم إلى هناك . نعم ؟

ـ اسمع ، ماذا يعني لا يوجد رأس جر ، أنا من هنا في مكتبي أرى عبر النافذة ستة منها .

ـ هذه منسّقة .

ـ ماذ يعني منسّقة ؟

ـ يعني معطوبة ، يرحّلونها إلى المقبرة .

ـ حسناً ، ليكن ، وقاطرات المناورة ، لديكم اثنتان منها تعملان!

ـ بل ، أنا رأيت ثلاثاً ، أيها الرفيق الملازم!

ـ ها هو قائد حراس القافلة ، يقول إنه رأى ثلاثاً منها ، إنه يقف بجانبي هنا .

ـ هذه القاطرات لا أستطيع إرسالها .

ـ ماذا يعني ، لا تستطيع ؟ وهل فكّرتم بأهمية الحمولة ؟ لا يجوز تأخيرها دقيقة واحدة ، وأنتم هنا...

ـ ضعها في الخزانة .

ـ... وأنتم تؤخرونها هنا يوماً ونصف تقريباً .

ـ لا ، ليس يوماً ونصف .

ـ ما الذي لديكم هناك! روضة أطفال أم مكتب حركة ؟ لماذا يصرخ هؤلاء الأطفال ؟

ـ لقد عربدوا هنا . يا رفاق كم مرّة سأكرر نظفوا الغرفة ؟ لا أستطيع أن أسفِّر أحداً . حتى القافلة الحربية واقفة .

ـ يوجد مع القافلة دم للمشفى العسكري! أتفهمون!

ـ أفهم ، أفهم كل شيء... ڤرناكوف ؟ إذهب الآن إلى مضخة المياه ، خذ تلك العشرة .

ـ اسمعوا! إذا لم تحركّوا القطار خلال نصف ساعة ، سأبلغ القيادة العليا! وهذه ليست مزحة! ستتحملون مسؤولية ذلك!

ـ ڤاسيل فاسيليتش! هات السماعة أنا بنفسي...

ـ أبلغ المسؤول العسكري عن الحركة .

ـ نيقولاي بيتروڤيتش ؟ أنا بودشيبياكينا ، اسمع ، ما الذي هناك في عنبر القاطرات ؟ ؟ أليس واحداً من الـ س و انتهى من التزود بالوقود هناك!

ـ هكذا إذن! أيها الرفيق الرقيب ، عُد إلى عربة الحرس ، وإذا... خلال أربعين دقيقة... هكذا ، إذا لم يحركوكم أبلغوني .

ـ حاضر ، آتي وأبلغكم! أتسمحون لي بالانصراف ؟

ـ انصرف .

استدار الرقيب قائد مفرزة الحرس بسرعة وبدقة ، ومع الخطوة الأولى أنزل يده عن سدارته ، وخرج .

عدّل الملازم زوتوف نظارته ، التي تكسب وجهه ، ذا الملامح غير الصارمة في العادة ، هيئة صارمة . نظر باتجاه المسؤولة العسكرية عن الحركة بود شيبياكينا ، التي ترتدي بزة السكك الحديد ، مرخية جدائلها الشقراء المجعدة على كتفيها ، وهي تتحدث بهاتف من طراز قديم ، ثم خرج من غرفتها الصغيرة ، ليدخل في غرفته الصغيرة أيضاً ، التي لا باب ثانياً لها!

كانت غرفة زرتوف تقع في زاوية المبنى ، في الطابق الأول منه ، أمّا

هناك في الأعلى ، فوق الزاوية بالضبط ، فقد كانت ماسورة المياه معطوبة . كان صوت تدفق الماء يسمع من وراء الجدار ، وكانت هبات الريح تسفح الماء ، وترذذه ، أمام النافذة اليسرى ، على رصيف المحطة ، وتحمله أحياناً لتنثره أمام النافذة اليمنى على الممر المقفر .

بعد الصقيع التشريني ، الذي غطى المحطة برمتها برداء من الجليد المتلألئ ، جاءت الأيام الأخيرة ماطرة رطبة ، فمنذ الأمس راح مطر بارد يهطل بلا انقطاع ، مما يدفع المرء للتساؤل بدهشة : من أين للسماء بكل هذا الماء!

لكن هطول المطر أعاد النظام إلى المحطة : لم يعد هناك ذلك التزاحم اللا معقول للناس ، ذلك الاكتظاظ على الأرصفة ، وعلى السكك ، المشوه لمنظر المحطة ، والمعيق لعملها .

انحشر الجميع في مخابئ تدرأ عنهم الماء . لم يجث أحد على ركبتيه ليعبر من تحت العربات ، ولم يتسلق أحد سلالم المقطورات .

والسكان المحليون لم يصطفوا على امتداد الأرصفة مع دلائهم المملوءة بالبطاطا المسلوقة المعروضة للبيع ، وركاب عربات الشحن لم يتنقلوا بين القطارات ، معلقين على أذرعهم ألبسة داخلية ، وفساتين ، وملابس صوفية متنوعة ، كما لو كانوا في السوق (كانت هذه التجارة تثير امتعاض الملازم زوتوف ، ولكن ما العمل ، فمن جهة لا يجوز تركها على حالها ، ومن جهة أخرى لا يجوز منعها أيضاً ، لسبب بسيط هو أن هؤلاء المهجرين الذين يبيعون ويشترون لم يحسب أحد حسابهم بأية بطاقات تموين) .

الوحيدون ، الذين لم يحشرهم المطر في مخابئ هم طاقم خدمة المحطة .

كان يمكن رؤية الخفير ، عبر النافذة ، واقفاً على رصيف المحطة قرب حمولة مغطاة بشادر ، مبللاً عن آخره بالماء المنهمر من السماء ، واقفاً لا يحاول حتى نفض الماء ، ولو قليلاً ، عن نفسه .

كان يمكن أن ترى من نافذة الغرفة أيضاً قاطرة مناورة تجر عربة صهاريج ، على السكة الثالثة ، وعامل التحويل في معطفه المطري ذي القبعة يلّوح بعلم الإشارة .

وكانت تُرى أيضاً القامة الضئيلة لفني العربات ، وهو يسير على امتداد القطار المتوقف على السكة الثانية ، متفقداً عرباته ، منحنياً تحتها واحدة تلو الأخرى .

كان المطر ما يزال يهطل ، والريح تنفخه جانباً . الريح العتيدة الباردة تضرب بالمطر أسطحة وجدران عربات الشحن ، وتضرب أيضاً صدور قاطرت البخار ، وتضرب أضلاع الحديد الحمراء المشوية للعربات العشرين (كان خشب العربات قد احترق تحت القصف في واحدة من الغارات وها هي هياكل الحركة المعدنية المتبقية منها تسحب إلى المؤخرة) .

يندلق المطر على أربعة مدافع مكشوفة منصوبة على رصيف المحطة ، مندمجاً مع ألوان الغروب ، يلف بلون رمادي الهالة الخضراء للإشارة الضوئية ، والشرارت المتوهجة الحمراء ، الخارجة بفوضى التناثر من مداخن العربات .

كان اسفلت الرصيف الأول كلّه مغطى بقطرات كبيرة من الماء تحولت إلى فقاعات بلورية تكاد لا تسيل . أمّا سكة الحديد ، فقد التمعت مع الماء في عتمة المساء . بينما كان الخط الحديدي ينفض ، تحت وقع ضربات القطار ، بركه التي عجزت الأرض عن شرب مائها .

كل هذا لم يكن يصدر أصواتاً ، عدا عن الاهتزاز الصامت للأرض ، والصوت المكبوت لصفارة عامل التحويل . أمّا صفّارات القطارات ، فقد منع استعمالها منذ اليوم الأول لنشوب الحرب .

وحده المطر كان ينفخ في بوق الشؤم .

وراء النافذة الثانية لغرفة زوتوف ، في الطريق المؤدي إلى مستودعات البضائع ، تقف سنديانة كبيرة قرب السياج . هزّتها الريح اليوم ، وشعثتها ، وعذبتها ، ونتفت عنها آخر الأوراق الكامدة ، التي كانت ماتزال عالقة بها .

الزمن الآن ، ليس زمن الوقوف وإمعان النظر . آن أوان تغطية النوافذ بستائر التمويه الورقية ، وإشعال المصباح ، والجلوس وراء طاولة العمل ، فهناك الكثير مما يجب إنجازه قبل تبديل الوردية عند العاشرة ليلاً .

لكن زوتوف لم يسدل الستائر ، بل قام بنزع سدارته المزينة بشريط أخضر عن رأسه ، سدارته التي لا ينزعها أثناء مناوبته حتى عندما يكون داخل الغرفة ، وقام بنزع نظارته ، ثم مسح عينيه بحركة متمهلة من أصابعه المرهقة من نقل الأرقام المرمّزة للارساليات من قائمة إلى أخرى .

لا ، ليس التعب ، بل هو الغمّ داهم زوتوف في هذا اليوم الرازح تحت العتمة قبل الأوان . الكرب الذي يصدر صريراً وهو يجتاح الروح .

الحسرة التي تملكت روح زوتوف لم تكن على زوجته ، التي بقيت في بيلوروسيا مع طفلها الذي لم تلده بعد تحت رحمة الألمان ، ولا على ماضيه الضائع ، فلم يتكون لدى زوتوف ماضٍ بعد ، ولا على ثروته الضائعة ، لأنه لم يملك تلك الثروة بعد ، ولا يرغب بامتلاكها أصلاً .

كربة روح زوتوف ، وحاجته إلى البكاء بصوت مسموع ، إنما كانت

ناجمة عن مجرى الحرب اللا معقول . فحسب بلاغات مكتب الاعلام لم يكن ممكناً رسم خط لجبهة الحرب ، فقد كان التساؤل ما يزال قائماً تحت سيطرة من تقع مدينة خاركوف ، وتحت سيطرة من تقع كالوغا . بيد أن عمال سكك الحديد كانوا يعلمون علم اليقين أن القطارات لا ترسل إلى أبعد من محطة اوزلوڤايا باتجاه تولا ، ولا إلى أبعد من إيليتس باتجاه فيرخوفيا . ناهيك عن أن القاذفات الألمانية كانت تصل إلى هنا وهناك ، فقد ألقت بقنابلها على خط ريزان - فورونيج ، وطال القصف أيضاً محطة كوتشيتوفكا . والأدهى من ذلك حدث منذ عشرة أيام فقد ظهر على حين غرة ألمانيان طائشان ، واقتحما على دراجتهما النارية محطة كوتشيتوفكا ، وهما يطلقان النار من رشاشيهما على الماشي . تم قتل أحدهما ، أمّا الثاني فتمكن من الافلات والفرار . ولكن في هذه الأثناء حدث هرج ومرج في المحطة جرّاء إطلاق النار ، فقام قائد المفرزة الخاصّة ، المكلّفة بالتفجيرات في حال الانسحاب ، بنسف مضخة المياه بالمتفجرات المثبتة فيها للحظة الإخلاء . بعد ذلك اضطروا لاستدعاء قطار الصيانة ، فعمل هنا ثلاثة أيام .

ولكن ليس الذي حصل في كوتشيتوفكا هو الذي أغم زوتوف ، بل الحرب ، الحرب لماذا تسير بهذا الشكل ؟ ليس فقط ، لم تتحقق الثورة في كل أوربا ، وليس فقط لم نستطع اقتحام تشكيلات الأعداء كلها بالقليل من الدم ، بل ، إلى أي مدى وصل الأمر ؟

ومهما يكن نوع العمل الذي يشغل زوتوف أثناء النهار ، فما أن يأتي المساء ويستلقي على السرير ، حتى يقلقه السؤال : إلى متى سيستمر ذلك ؟

وعندما لا يكون زوتوف مناوباً في الليل ، بل يبيت في شقته ، كان

أيضاً ينهض في السادسة صباحاً على صوت دقات المذياع ، ملؤه الأمل بأن يدوّي نبأ النصر اليوم . لكن ها هو البوق الأسود اللعين يعلن عن خروج جبهات فيازيمسك ، وفولكولامسك ، مطوقاً قلب زوتوف بالأسى : ألن يسلّموا موسكو أيضاً ؟ لم يكن زوتوف يطرح هذا السؤال بصوت مسموع (فمن الخطر التساؤل بصوت مسموع) ، بل ولم يكن ليجرؤ على التساؤل حتى بينه وبين نفسه عن هذا الأمر . كان زوتوف طوال الوقت يفكر بهذا الأمر ، ويجاهد لعدم التفكير به في آن معاً .

لكن هذا السؤال القاتم لم يكن آخر الأسئلة . فتسليم موسكو ليس كل المصيبة ، فقد تركوا موسكو قبلاً لنابليون . أمّا ما يحرق قلبهُ الآن ، فشيء آخر : ما الذي سيكون بعد ذلك ؟ وإذا وصل الأمر إلى الأورال ؟ حتى ورود مثل هذه الأفكار المقلقة في ذهنه ، كان يعده قاسيا زوتوف جريمة . كان بمثابة الوصمة ، والإهانة للأب والمعلم ، القادر على كل شيء ، والعارف بكل شيء ، الذي لا يغيب ، والذي يتنبأ بالغيب ، ويتخذ كل ما يلزم من إجراءات ، ولا يسمح بذلك أبداً .

لكن بعضاً من العاملين في السكك الحديدية ، الذين أمضوا في موسكو في أواسط تشرين الأول بعض الوقت . جاؤوا من هناك ، وتحدثوا عن أشياء جهنمية غير معقولة : عن فرار مدراء مصانع ، عن سرقات بعض البنوك والمخازن... ومن جديد اعتصر الألم قلب الملازم زوتوف .

منذ زمن غير بعيد ، عاش زوتوف يومين عند القادة الاحتياطيين .

جلس هؤلاء في إحدى أماسيهم . وكان هناك ملازم نحيل ، شاحب الوجه أصلع ، نهض من بينهم ليقرأ إحدى القصائد التي كتبها ، والتي لم يدققها له أحد ، إحدى القصائد العارية . وإلى الآن ، حيثما ذهب زوتوف ،

أو تمشي في محطة كوتشيتوفكا ، وأينما كان في القطار إلى مركز القيادة الرئيس في ميتشورينسك ، أو في عربة الخيل إلى مركز السوفييت المحلي التابع لهم عسكرياً ، حيث كان عليه أن يدرب المتطوعين ، والمقعدين على استخدام السلاح ، أو في أي مكان آخر ، كانت دوماً تلك القصيدة حاضرة في ذهنه ، يستعرضها ، يعيدها ، يتوقف عند كلماتها ، كما لو كانت قصيدة هو كاتبها :

قرانا في النار ومدننا في الدخان...
وتحفر ، تحفر في عمق الأسى
فكرة واحدة : متى ؟ متى ؟! متى
سنوقف هجوم الألمان ؟!

وأبيات أخرى أيضاً ، ربما كانت على الشكل التالي :

إذا كان صرح لينين سينهار اليوم
فمن أجل ماذا سأبقى لأعيش ؟

زوتوف أيضاً لم يكن يريد أن يسلّم بذلك منذ اليوم الأول للحرب ، فحياته الصغيرة تعني له فقط ما يستطيع أن يخدم به الثورة . ولكم أراد أن يقاتل ، لكن جميع محاولاته بالتوجه إلى خط النار ، انتهت به إلى الخدمة في إدارة السكك الحديدية .

أن يصون حياته من أجل نفسه ، لا معنى لذلك . أن يصون حياته من أجل زوجته ، من أجل الطفل الذي في رحمها ، هذا ليس حتمياً أيضاً . فكّر زوتوف... إذا ما وصل الألمان إلى البايكال ، وبقي هو بأعجوبة على قيد الحياة ، فإنه سيرحل ماشياً على الأقدام عبر كياختا إلى الصين ، أو إلى الهند ، أو إلى ما وراء المحيط... سيذهب إلى هناك من أجل أمر واحد فقط ،

هو أن ينضم إلى وحدات ما ستكون قد نظمت نفسها في تلك الأنحاء ، واستعادت قوتها ، وسيرجع حاملاً السلاح إلى الاتحاد السوفيتي ، أو إلى أوروبا .

هكذا وقف زوتوف يفكر في العتمة تحت زخات المطر وهبات الريح . منقبض الروح ، وراح يردد قصيدة ذلك الملازم النحيل .

بمقدار ما كانت العتمة تشتد في غرفة زوتوف يشتد معها احمرار باب المدفأة الكرزي المتوهج . كان ضوء أصفر واهن ينتشر عبر زجاج الباب من الغرفة المجاورة . في تلك الغرفة كانت تجلس المسؤولة العسكرية عن الحركة ، على خط ن ك ب س ، على ضوء المصباح . ومع أنها لم تكن تقع تحت إمرة مساعد القائد الحربي هنا ، إلا أنها لم تكن تستطيع تأدية عملها من دون اللجوء إليه . فلم يكن يحق لها أن تعرف مضمون الارساليات ، أو الغرض من إرسالها . وكل ما تعرفه أرقام العربات فحسب . كانت العمة فروسيا هي التي تحمل إليها هذه الأرقام . العمة فروسيا التي تجدول العربات دخلت للتو وبالكاد نفضت الوحل عن حذائها .

ـ آخ ، المطر غزير! ـ اشتكت العمة فروسيا ـ غزير!... ولكن لا بأس ، إنه يخف شيئاً فشيئاً!

ـ ولكن ، ياعمة فروسيا ، يجب إعادة تسجيل العربة رقم سبعمائة وخمسة وستون .

قالت ڤاليا بود شيبياكينا .

ـ لا عليك ، سأعيد تسجيلها ، أعطني مصباحاً .

لم يكن الباب ثخيناً ، ولم يكن محكم الاغلاق ، وكان الملازم زوتوف يسمع ما يدور بينهما من حديث .

ـ حسناً ، أنا ذاهبة لإحضار الفحم ـ قالت العمة فروسيا ـ لم أعد أخشى شيئاً الآن ، فلدي من البطاطا ما يكفي لحياة الصغار . أمّا داشكا ميلينتيڤا فلم تقلع بطاطتها بعد... فلتذهب وتحفر إذن في الأرض الموحلة .

ـ أترين كيف بردت الدنيا ، يكفي برداً .

ـ سيأتي الشتاء مبكراً هذا العام . أخ خ ، لا ينقصنا ، إلا الشتاء المبكر مع هذه الحرب... وأنتم كم جمعتم من البطاطا ؟

تنهّد زوتوف ، وراح يسدل ستائر التمويه على النوافذ ، حريصاً على أن تلتحم جيداً بإطار النافذة ، بحيث لا تكون هناك فرصة لمرور الضوء حتى من أصغر شق .

ذلك ما لم يستطع زوتوف فهمه ، وما جعله يشعر بالغبن ، بل ويبعث فيه أحساساً بالوحدة . فكما لو أن جميع هؤلاء العاملين من حوله سمعوا ما سمع من الأخبار المقبضة المكربة ، وتفرقوا عن مكبرات الصوت مع الغصة الصامتة ذاتها . لكن زوتوف كان يرى فرقاً بينه وبينهم ، فهؤلاء المحيطين به كانوا يعيشون شيئاً آخر غير أخبار الجبهة ، فها هم يجمعون البطاطا ، ويحلبون البقرات ، ويحتطبون ، ويطلون نوافذ بيوتهم . وقد استهلكوا من الوقت في الحديث عن ذلك ، والقيام به ، أكثر بكثير مما فعلوا على الجبهة .

يا لها من امرأة حمقاء! أحضرت فحماً ، وهي الان «لم تعد تخشى شيئاً» ، حتى دبابات غودريان ؟

هزت الريح باب مستودع البضائع ، فرنّ زجاج تلك النافذة قليلاً .

أسدل زوتوف الستارة الأخيرة ، أشعل المصباح ، فبدت الغرفة الدافئة ، المنظفة جيداً مريحة في الحال ، رغم فراغها من الأثاث . صار ذهن زوتوف

أكثر صفاء وحضوراً ، وغدا أكثر ثقة بالقدرة على التفكير بأي شيء .

كانت هناك في وسط الغرفة ، تحت المصباح مباشرة ، طاولة مكتب . كانت هناك خزانة أيضاً ، وضعت خلف هذه الطاولة ، بالقرب من المدفأة . وفي مكان قريب من النافذة وضعت أريكة ثلاثية ذات سنادة ظهر مصنوعة من خشب البلوط ، برزت على مسندها حروف خشبية باسم السكك الحديدية . كان يمكن الاستلقاء على هذه الأريكة في الليل ، لكن العمل لم يكن يترك مجالاً لذلك إلا في أندر الحالات . كان هناك أيضاً كرسيان غير متقني الصنع . أمّا على الجدار بين النافذتين ، فقد علقت صورة كاغانوڤيتش* في البزة الرسمية للسكك الحديدية .

كانت هناك ، من قبل ، على الجدار خارطة لشبكات سكك الحديد ، لكن النقيب مدير المحطة أمر بنزعها ، لأن أشخاصاً شتى يدخلون هذه الغرفة ، فإذا حصل وكان بينهم عدو ، يمكنه بالتفاتة بسيطة من عينيه أن يفهم أية سكة تؤدي إلى أين .

ـ لقد حصلت على جوارب ـ تباهت العمة فروسيا في الغرفة المجاورة ـ أخذت منهم جوارب حرير مقابل خمسة أقراص من فطائر البطاطا . قد لا تتوفر الجوارب في السوق حتى تنتهي الحرب . قولي لأمك ، بدلاً من أن تجلس وتتثاءب ، الأفضل أن تطبخ شيئاً ما من البطاطا ، وإلى هناك ، إلى العربات ، سيتلقفونها من يديها على الماشي . أمّا غرونكا موستروكوڤا! لو رأيت أي قميص عجيب تلبس ، لقد قايضته ببعض الكعك... قميص نوم وفيه قصات في تلك الأماكن... من الجسم ، اسمعي...

اجتمعت النسوة في بيتها ليتفرجن على قميص النوم ، وحين لبسته

* كاغانوفيتش : أحد رؤوساء جهاز الأمن في عهد ستالين .

كادت بطونهن تنفجر من الضحك!... يمكن أيضاً أن تحصلي منهم على الصابون ، وبسعر رخيص... الصابون الآن مفقود ، ولا تستطيعين شراء قطعة منه . قولي لأمك يكفي تثاؤباً .

ـ لست أدري ، يا عمّة فروسيا...

ـ ماذا! ، ألست بحاجة إلى جوارب ؟

كيف لا! طبعاً ، بأشد الحاجة إليها ، ولكن بأي ضمير آخذها من النازحين!...

ـ أوه ، إنما منهم يحلو الأخذ! فهم يحملون أقمشة ، بدلات ، وصابون... ترينهم كما لو أنهم تهندموا وانطلقوا إلى السوق . هناك بينهم أووه ذوو رؤوس كبيرة ، لو أنك تقدمين لهم دجاجة مسلوقة لما طلبوا شيئاً آخر في الدنيا! هناك من رأى عند البعض منهم مئات ، ربطات منها ، مكدّسة ، حقيبة ملآنة ، ماذا يعني ؟ هل هم ينقلون بنكاً معهم ؟ نحن لا نريد المال . خذوه معكم!

ـ خذي مثلاً ، مستأجري شقتك...

ـ هـ هؤلاء ، لا تقارنيهم مع أولئك ، أنهم حفاة عراة ، هؤلاء نزحوا من كييف ، جاؤوا بما على أجسادهم فقط . كيف وصلوا إلى هنا أحياء! هذا ما يجب أن نعجب له . بولينكا تدبرت أمرها في عمل في البريد ، براتب هزيل ، لا يطعم ولا يغني من جوع . أخذت المرأة ، فتحت لها القبو ، قلت لها انظري : بطاطا ، ملفوف مخلل ، خذي حاجتك... وأجرة الغرفة أيضاً سامحتكم بها ، لا أريدها . أنا دائماً أعطف على الفقراء يا ڤالوشا ، فإذا كنت غنياً فارحم ولا تطلب .

كان هناك على طاولة زوتوف جهازا هاتف ، أحدهما للمحطة وهو جهاز قديم مزّود بذراع للرن ، موضوع في صندوق من الخشب الأصفر . كالذي في غرفة المسؤولة العسكرية عن الحركة ، أما الجهاز الثاني ، فعسكري أرضي ، موصول بمكتب النقيب ، وبمكتب حراسة مخزن مؤن المحطة .

كان مقاتلو مخزن المؤن ، القوة العسكرية الوحيدة في محطة كوتشيتوفكا ، ومع أن مهمتهم الرئيسية كانت حماية المؤن ، إلا أنهم كانوا يقومون بالإضافة إلى ذلك بالتدفئة ، وأعمال التنظيف . والآن ، ها هو دلو احتياطي من الفحم الرائع يقف قرب المدفأة ، تدفأ ما شئت .

رنّ هاتف المحطة ، فأسرع زوتوف إليه ، وكان قد تغلب على لحظات ، ضعفه المسائي . رفع السماعة بيد ، واضعاً باليد الأخرى السدارة على رأسه ، وبدأ يصيح في سماعة الهاتف مجيباً عن أسئلة محدّثه .

كان زوتوف دائماً يصيح عندما يكون الاتصال من البعيد . كان يفعل ذلك ، أحياناً ، لأن الصوت يصل إليه ضعيفاً ، وغالباً ما يفعل ذلك بحكم العادة .

جاء الاتصال الهاتفي من بوغويافلينسكايا . طلبوا أن يطابقوا الوثائق التي استلموها مع المرسلة ، ليتأكدوا من منها لم يصل بعد ، ومن منها وصل . كانت تعليمات الإدارة عن حركة القطارات ترسل على شكل معلومات مرمّزة بالتلغراف . منذ ساعة مضت قام زوتوف بذاته بإيصال عدد من هذه التيليغرافات ، واستلم أخرى . كان عليه أن يفك رموز تلك التي استلمها ، ويفهم مضمونها بسرعة ، ليعرف المقطورات التي يجب أن تربط معاً ، وفي أي اتجاه يجب أن ترسل ، وليعطي تعليمات للمسؤولة العسكرية عن الحركة عن تلك العربات التي يجب قطرها مع بعضها بعضاً ، وعليه أيضاً

أن يعد الوثائق الجديدة ، ويرسلها ، ويترك منها نسخة لديه ، يغرزها في أرشيفه .

ما أن يضع زوتوف سماعة الهاتف حتى ينهدّ على كرسيه ، وينحني فوق طاولته غارقاً في وثائقه ، مقرباً عينَيه اللتين تعانيان قصر نظر بسببها .

هاهو التشويش يأتي من جديد من الغرفة المجاورة . دخل إلى هناك رجل ما ثقيل الخطا ، وألقى على الأرض بحقيبة التنك التي لديه . سألته العمة فروسيا هل بدأ المطر يهدأ في الخارج . وغمغم بإجابة ما ، ثم خيل لزوتوف أنه جلس .

(في الحقيقة ، لم يعد الماء يتدفق من المزراب بتلك القوة ، لكن الريح ازدادت هديراً ، وضرباتها على النافذة صارت أشد)

ـ ما الذي قلته أيها العجوز ؟ صاحت ڤاليا بودشيبياكينا .

ـ قلت ، الدنيا تزمهر . أجابها العجوز بصوت أجش .

ـ أرى أنك تسمع يا غافريل ينكيتيتش ، أليس كذلك ؟ شاركتها العمة فروسيا في الصياح .

ـ أسمع ، أسمع ـ أجاب العجوز ـ لكن أذني تطقطق .

ـ كيف إذن تتمكن من تفحص العربات ، أيها الجد ؟ فأنت يجب أن تنقر عليها أثناء الفحص .

ـ أنا أعرف علتها ، حتى من دون ذلك .

ـ أتعرفين يا ڤاليا ، أن كوردوبايلو هذا ، من هنا من كوتشيتوفكا ، وأن جميع فنيي العربات ، في جميع المحطات ، من أولهم إلى آخرهم ،

تلاميذه . لقد أحيل إلى التقاعد قبل الحرب بعشر سنوات ، وها هو مع نشوب الحرب عاد إلى العمل من جديد كما ترين .

بدأت العمة فروسيا تثرثر بموضوع آخر جديد مما أثار ضجر زوتوف وامتعاضه الشديدين ، فعقد عزمه على الخروج إليها وتهديدها . وإذا بمجرى الحديث يتحول لتناول حادثة الأمس التي وقعت في قافلة المقاتلين المنسحبين من مناطق الحصار .

عرف زوتوف بهذه الحادثة ، من بديله المساعد الآخر للآمر الحربي ، الذي كان مناوباً آنذاك في المحطة ، وكان عليه أن يتخذ البارحة إجراءت ، لأن أحداً من قسم ترحيل المنسحبين لم يكن موجوداً .

صباح البارحة ، كان قطاران عسكريان يقفان في الوقت ذاته على سكتين متجاورتين : واحد منهما كان قادماً من شيغر عبر أوتروجكا يجر ثلاثين عربة من النازحين ، وكان يرافق جميع هؤلاء المالئين للعربات الثلاثين خمسة أشخاص من ن ك ڤ د* فقط ، ولم يكونوا طبعاً قادرين على فعل شيء مع هذا العدد الكبير . أما القطار الثاني ، فكان قافلة قادمة ، بملاقاتها ، من ريتشيف ، محملة بالطحين .

كان بعض الطحين محملاً في عربات محكمة الإغلاق ، والبعض الآخر في أكياس في عربات مكشوفة . فهم المنسحبون ، في الحال ، ماهية الأمر ، فهجموا على العربات المكشوفة ، وتسلقوها ، ومزّقوا أكياس الطحين بالسكاكين ، وصاروا يسكبون منه فيما لديهم من قدور ، وفيما أسعفتهم الحيلة بتحويله إلى أوانٍ ، فقد حوّلوا ستراتهم إلى حقائب عبؤوها بالطحين .

* ن . ك . ڤ . د : الأحرف الأولى من كلمات : القوميسارية الشعبية للشؤون الداخلية (وزارة الداخلية) .

وقف على رصيف السكة من مفرزة الحرس المرافقة للقافلة خفيران ، واحد عند مقدمة القطار ، والآخر عند نهايته . كان الخفير الأمامي ما يزال شاباً صغيراً . صرخ بالمنسحبين مرات عدة كي لا يمسوا الطحين ، لكن أحداً من هؤلاء لم يلق إليه بالاً ، ولم يخرج أحد لمساعدته من زملائه في عربة الحرس . عندئذ سحب بندقيته ، وأطلق النار مرّة واحدة . هذه الطلقة اليتيمة أصابت أحد المنسحبين في رأسه فأردته قتيلاً ، حيث كان ، على كومة أكياس الطحين .

أنصت زوتوف إلى الحديث الجاري في الغرفة المجاورة . كان الحديث ينحرف عما جرى في الحقيقة . كانوا يفهمون الموضوع بشكل مختلف على ما يبدو . لم يطق زوتوف صبراً ، فاندفع خارجاً إليهم ليوضح حقيقة الأمر .

ما أن فتح زوتوف الباب ووقف على العتبة ، حتى جال ببصره عليهم جميعاً ، عبر نظارته الدائرية البسيطة . من جهة اليمين وراء طاولة المكتب مباشرة جلست ڤاليا الهيفاء منحنية على أوراق ومخططات وجداول رسمية ملّونة .

كان هناك مقعد خشبي طويل ، موضوع تحت النافذة المغطاة بستائر من ورق أزرق للتمويه ، تجلس عليه الآن العمة فروسيا ، ذات الطبع الرجولي المتسلط ، الذي تلاقيه عند النساء الروسيات ، اللواتي تقع عليهن جل الأعباء في العمل وفي البيت . كان المعطف الرمادي المائل للخضرة ، المبلل بالماء ، الذي تسلّمته فروسيا لأداء نوبتها مكرمشاً على مشجب في الجدار . أمّا هي فقد جلست في جزمة مبللة بالماء ، وفي معطف مدني أسود عتيق ، تحاول إصلاح الفتيل الذي نزعته من القنديل اليدوي الرباعي الأوجه .

علقت على باب الغرفة ورقة زهرية اللون ، ترى مثلها إينما ذهبت في محطة كوتشيتوفكا ، كتب عليها «احذروا التيفونيد!» . كانت ورقة الملصق زهرية كالطفح التيفوسي ذاته ، أو كالعظام الحديدية لتلك العربات بعد نار القصف .

كي لا يوسخ الأرض بحذائه ، جلس العجوز كوردوبايلا ، غير بعيد عن الباب ، قرب المدفأة ، على الأرض مباشرة ، متكئاً على الجدار . في مكان مجاور له رقدت حقيبة تنك عتيقة ، فيها أدوات ثقيلة . ألقيت هذه الحقيبة بلا اعتناء بحيث لا تكون في الطريق ، والقي قربها قفاز ملطخ بالمازوت .

كان واضحاً أن العجوز جلس على الأرض بمجرد دخوله ، فهو لم ينفض الماء عن نفسه ، ولم يخلع معطفه ، فقد تجمع الماء المنسال من معطفه وحذائه في برك حوله الآن . كان هناك على الأرض بين رجليه المثنيتين ، عند ركبتيه ، مصباح كالذي عند العمة فروسيا بالضبط . كان العجوز يرتدي تحت معطفه المطري سترة سوداء قذرة ، ذات زنار بني متسخ . كان قد نزع عن رأسه باشليكه الخاص أما سدارة السكك الحديدية فما تزال على رأسه ذي الشعر الأشعث . ظللت السدارة عينَيه ، وقد بدت من تحتها ، على ضوء المصباح الخافت ، أرنبة أنفه بلون رمادي مزرق ، وشفتاه السميكتان اللتان رطب بهما لفافة من ورق جريدة وبدأ التدخين... كانت لحيته الشعثاء ، مشوبة بشعرات سود متفرقات ، لم يطلها الشيب بعد .

ـ وماذا كان بإمكانه أن يفعل غير ذلك ؟ ـ حاججتهم ثاليا ضاربة بقلم الرصاص على الطاولة ـ لقد كان على رأس عمله ، وهو حارس! .

ـ أجل ، صحيح ، ولكن ـ هز العجوز رأسه مسقطاً رماد سيجارته

الأحمر على الأرض ، وعلى غطاء المصباح ـ ولكن ، الجميع يريدون أن يأكلوا .

ـ ما الذي تقصده أنت ؟ ـ صاحت الفتاة ـ من تقصد بالجميع ؟

ـ مَن! أنت وأنا على الأقل . تنهد كوردوبايلا .

ـ يا لك من عجوز أحمق! أتظن أنهم فعلاً جائعون ؟ قد سلموا كلاً منهم حصة من الطعام . أتعتقد أنهم يرحلونهم من دون طعام ؟

ـ صحيح . وافقها العجوز ، وسقطت من جديد قطع حمراء متوهجة من لفافته ، ولكنها سقطت هذه المرّة على ركبته وعلى طرف سترته .

ـ انتبه ، أنت تكاد تحترق يا غافريل نيكيتيتش! نبهته العمة فروسيا .

نظر العجوز بلا مبالاة إلى فتات الماخوركا المشتعلة وهي تخمد على سرواله القطني الغامق اللون ، المبلل بالماء . وما أن خمدت حتى رفع رأسه قليلاً مع سدراته .

ـ إيه يا صبايا! هل أكلتن يوماً طحيناً نيئاً مخلوطاً بالماء ؟

ـ ولماذا آكله نيئاً ؟ ـ تململت العمة فروسيا ـ أخلطه ، وأعجنه ، وأخبزه .

تمطّق العجوز بشفتيه الشاحبتين الثخينتين ، وقال بعد انتظار كلمات راحت تخرج على مهل كأنها كانت تسير على عكازات من هناك ، من حيث ولدت :

ـ يعني أنكن لم تجعن في حياتكن أيتها العزيزات .

تجاوز الملازم زوتوف عتبة الغرفة وتدخّل في مجرى الحديث :

ـ اسمع أيها العجوز ، قل لي ما معنى القَسَمْ! هل تعي معناه ؟

كان الملازم زوتوف يوأوئ* بشكل واضح .

نظر العجوز إلى الملازم نظرة غبشة . لم يكن العجوز ضخماً ، إنما جزمته كانت ضخمة ، كانت مشبعة بالماء ، ملطخة بالطين في أماكن شتى .

ـ ومن يعرفه أفضل مني! ـ غمغم الجد ـ أنا نفسي أديت القسم خمس مرّات .

ـ ولمن أنت أقسمت ؟ للقيصر ميكولاشكا** ؟ هزّ العجوز رأسه نافياً :

ـ بل ، قل أبكر من ذلك .

ـ كيف! لألكسندر الثالث ؟

ـ تمطق العجوز بشفتيه ممحوقاً ، وصار يدخن .

ـ هاه ، أما الآن فيقسمون للشعب ، أليس هناك فرق ؟

ما زال العجوز يسقط الرماد على ركبتيه .

ـ والطحين لمن ؟ أليس للشعب ؟

سألت ڤاليا مأخوذة بالحماس ، ملقية خصلات شعرها المرحة إلى الخلف .

ـ الطحين ، لمن يشحنون الطحين ؟ هل ينقلونه للألمان ؟

ـ بالفعل ، صحيح ـ لم يجادلهم العجوز أبداً ـ والمنسحبون ليسوا ألماناً أيضاً إنهم من شعبنا .

أنهى العجوز تدخين لفافة التبغ . طواها من الطرف المشتعل قبل النار ، وأطفأها في غطاء المصباح .

---

* يوأوئ : في اللغة الروسية يلفظ حرف « O » الذي عليه النبر كما هو « O » أما إذا ورد في مكان آخر في الكلمة ذاتها فيلفظ « A » . ومن يوأوي، يلفظه أينما كان « O » كما في بعض اللهجات .

** القيصر ميكولاشكا : المقصود القيصر الروسي نيقولاي الثاني (١٨٦٨ ـ ١٩١٨) آخر قياصرة روسيا .

ـ يا لك من عجوز قليل الفهم! ـ احتقن الملازم زوتوف بالغضب ـ وماذا يعني النظام الحكومي ، إذن ؟ هل لديك أدنى تصور عن النظام ؟ ـ وأوأ الملازم ـ إذا كان كل واحد منا سيأخذ ما يعجبه ، أنا آخذ ، وأنت تأخذ ، فهل سيجعلنا ذلك نربح الحرب ؟

ـ إذن ، لماذا مزّقوا الأكياس بالسكاكين ؟ ـ استغربت ڤاليا ـ بأي قانون يمكن ذلك ؟ أهذا هو شعبنا ؟

ـ ربما لأن الأكياس كانت مغلقة جيداً . قال كوردوبايلا ، ومسح أنفه بيده .

ـ هكذا يشاغبون ؟ كي ينسكب الطحين من الأكياس ؟ ـ استاءت العمة فروسيا ـ كم مزّقوا منها ، وكم سكبوا ، أيها الرفيق الملازم! كم من الأطفال كان يمكن أن يطعموا من هذا الطحين .

ـ هذا صحيح ، بالفعل ـ قال العجوز ـ ولكن ، باقي الطحين سيتبلل في العربات المكشوفة تحت المطر!

ـ أوه ، لا فائدة من الحديث معه! ـ استاء زوتوف من نفسه أكثر على خوضه في هذا الحديث اللا مجدي ، والمعروف النتائج سلفاً ـ لا تضجّوا! أنتم تعيقون عملي!

كانت العمة فروسيا قد انتهت من تنظيف الفتيل ، وأشعلت القنديل ، وعلقته في مكانه في الفانوس ، ثم نهضت باتجاه معطفها المتصلب المكرمش :

ـ ناوليني قلم الرصاص ، يا ڤاليوشا ، أنا ذاهبة لأسجل ذي الرقم سبعمائة وخمسة وستون .

عاد زوتوف إلى غرفته .

كان يمكن لتلك الحادثة المسائية أن تنتهي بأسوأ مما انتهت عليه . وعندما رأى المنسحبون أن واحداً منهم لقي مصرعه ، تركوا أكياس الطحين ، واندفعوا مزمجرين صوب صبي الحراسة . انتزعوا بندقيته منه ـ أو لأقل ربما هو الذي سلمها دون مقاومة ـ وبدؤوا بتوجيه الضربات إليه ، ولولا وصول عريف الحرس في اللحظة المناسبة لمزّقوه إرباً إرباً . فقد تظاهر عريف الحرس بإيقافه وذهب به بعيداً .

عندما يرّحلون المقاتلين المنسحبين ، تتبارى الإدارات بالتخلص منهم ، فكل إدارة تبذل ما تستطيع من جهد للتخلص منهم بأسرع ما يمكن .

في الليلة السابقة استقبل زوتوف قافلة من هذا القبيل ، كانت قادمة من بافيلتس إلى ارتشيدا ، وتحمل الرقم ٢٤٥٤١٣ ، وقد أرسلها لتتابع طريقها بأسرع ما استطاع . توقفت القافلة في محطة كوتشيتوفكا عشرين دقيقة فحسب ، كان النازحون أثناءَها نياماً ، ولم يغادروا عرباتهم .

عندما يكون عدد المنسحبين كبيراً ، يصبحون جسورين فظيعين . إنهم ليسوا وحدة مقاتلة ، وليس في أيديهم سلاح ، لكنهم ما زالوا يشعرون بأنهم جيش البارحة ، فهم أولئك الشباب المقاتلون ذاتهم ، الذين كانوا في حزيران يحاربون قرب بوبرويسكي ، أو في آب قرب كييف ، أو في أيلول قرب أوريول .

شعر الملازم زوتوف أمامهم بالرهبة ، وربما بالخوف ، الخوف ذاته الذي شعر به صبي الحراسة مقدماً لهم بندقيته دون أن يطلق المزيد من الرصاص .

لقد خجل زوتوف من وصفه كآمر في المؤخرة ، وحسدهم على

اشتراكهم في القتال . ويبدو لي أنه كان مستعداً حتى لأن يأخذ على عاتقه بعضاً من عيوبهم ، لكي يقنع نفسه ، فقط ، أن وراء ظهره قتال ، وأزيز رصاص ، ومخاضات أيضاً .

أبناء دورة ڤاسيا زوتوف ، وأصدقاؤه كانوا يقاتلون على الجبهة ، أما هو ، فهنا في المؤخرة .

لهذا كان يشعر أن عليه أن يعمل بمزيد من الجد ، أن يعمل ليس فقط لكي يسلّم النوبة بدقة ، بل ولكي يتمكن من إنجاز الأعمال الأخرى كلها على أحسن وجه . أن يكون ما ينجزه الآن أكثر وأجود على أعتاب الذكرى الرابعة والعشرين للثورة ، أحب الأعياد إلى قلب زوتوف ، العيد الفرح رغم عبوس الطبيعة ، جاء هذه المرّة يمزّق الروح .

إضافة لكل ما لديه من أعمال جارية ، ما يزال منذ أسبوع غارقاً في عواقب المشكلة التي بدأت في إحدى مناوباته : كانت الطائرات الألمانية قد أغارت على المحطة ، وقصفت بلا رحمة قافلة شحن عسكرية محملة بصنوف شتى من بينها مواد غذائية .

لو أنهم دمّروا القافلة كلياً لانتهت المشكلة عند هذا الحد ، ولكن لحسن الحظ سلم الكثير من الأشياء . بناء عليه تلقى زوتوف أوامر بإعداد قوائم جرد من أربعة نسخ : الحمولة التي دمّرت تماماً ، كان يجب إخراجها من كمية المخصصات المحددة ، والتعويض عنها ؛ الحمولة بلغت نسبة تلفها ٤٠-٨٠٪ كان يجب الحكم على مسألة صلاحيتها للاستعمال بدقة ؛ الحمولة التي تراوح تلفها بين ١٠ و٤٠٪ ، كان يجب ترحيلها إلى العنوان المرسلة إليه ، وإرفاقها بملاحظات خاصة ، أو استبدالها جزئياً ، وأخيراً الحمولة التي لم تتعرض للضرر .

ما زاد الأمر تعقيداً ، هو أنه رغم تجميع حمولة القطار الذي تعرض للقصف ونقلها إلى المستودعات ، فهي الآن هناك ، فإن ذلك قد استغرق زمناً ، وكانت المحطة تعج بأشخاص لا علاقة لهم بالأمر ، وبالتالي فالشك بوقوع سرقات وارد . إضافة إلى ذلك كان تحديد نسبة الضرر يحتاج إلى خبرة ، فقد جاء الخبراء من ميتشورينسك ، ومن ڤوروينج ، وما يقتضي ذلك من نقل للصناديق من زاوية إلى أخرى في المستودعات ، مع قلة عدد العتالين .

الأبله يستطيع أن يقصف ، ولكن تعال وحل هذه المشكلة التي خلّفها القصف!

لنقل إن ما زاد من تعقيد الأمور هو أن زوتوف كان يحب الدقة المتناهية في كل عمل يكلف به . لذلك فقد قلّب الجداول والوثائق وتفحصها مرات عدة . كان يمكن أن ينهي ما عليه بيوم ، لكنّه تفحص ومحص أسبوعاً كاملاً حتى ضاق به الوقت ، فليستعجل إذن الآن . يمكن القول إن هذا العمل أيضاً من الأعمال الجارية بالنسبة لزوتوف ، لذلك فإنه في الوقت الذي كان ينجز فيه عمله ، كان يخطط لعمل آخر . إنه رجل عالي التحصيل ، وبطبعه ميّال إلى التصنيف ، وهو بعمله في قيادة المحطة الآن يراكم خبرات مفيدة ، وقد بات يرى بوضوح عيوب ونواقص إجراءات التعبئة ، التي داهمتنا الحرب ونحن عليها ، وعيوب آلية مراقبة الشحنات الحربية ومتابعتها ، كذلك تبدو واضحة له الآن أفاق الكثير من التحسينات الصغيرة والكبيرة التي يمكن أن تعدل عمل الإدارات العسكرية...

أفليس ، إذن من واجبه الآن أن يكتب كل هذه الملاحظات ، ويبوبها ، وينسقها ، ويقدمها بعد ذلك على هيئة تقريرإلى اللجان الشعبية للدفاع ؟

حتى ولو كانت الإفادة من مقترحاته غير ممكنة في هذه الحرب ، فهي ستكون مفيدة ولا شك للحرب القادمة .

إذن ، فعلى زوتوف أن يجد الوقت والطاقة اللازمين لإنجاز هذا العمل أيضاً! (مع انه لو اقترح ذلك على النقيب ، أو في قيادة عقدة المواصات لكانوا سيسخرون منه . نظرهم محدود) .

لو أنتهي من هذه الأعمال المتعلّقة بحركة القطارات بأسرع ما يمكن! فكّر زوتوف فاركاً راحة يده المدورة ذات الأصابع القصيرة الثخينة بالأخرى . وأخذ قلم الكوبيا ، وراح يدقق بالرموز ، وكتب على عدة أوراق بخط منساب ، تلك الأرقام الدقيقة ، والهامة للقطارات ، والعربات والإرساليات .

هذا العمل كجهاز تسديد السلاح بالضبط لا يحتمل الهفوات . جعد زوتوف جبهته قليلاً مستغرقاً في عمله ؛ ومط شفته السفلى . لكن في هذه اللحظة بالذات جاءه طرق بود شيبياكينا على زجاج الباب :

ـ ممكن ، ڤاسيل ڤاسيليتش ؟ ـ وقبل أن يأتيها الجواب دخلت الغرفة ، حاملة بيدها بعض الوثائق .

في الحقيقة ، لم يكن الدخول إلى هذه الغرفة من صلاحياتها . كان يمكن أن تنهي المشكلة على عتبة الغرفة ، أو حتى في غرفتها ، ولكن تكرر وجودهما معاً في نوبة واحدة أكثر من مرّة ، لذلك لم ير زوتوف من اللباقة عدم السماح لها بدخول غرفته .

بينما كان يقلّب الأوراق المليئة بالرموز ، رفع طرف ورقة بيضاء ، كما لو أن ذلك تم عرضاً ، لتغطي عمود التواريخ التي قام بتدوينها .

ـ ڤاسيل ڤاسيليتش ، لقد اختلطت الأمور علي قليلاً!... انظروا هنا .

لم يكن لدى زوتوف كرسي ثان ، لذلك فقد اتكأت ڤاليا على ضلع طاولته ، مديرة باتجاهه ورقة رسمية كتبت عليها بعض السطور بخط مائل ، والأرقام بشكل غير متناسق .

ـ هذه في القافلة أربعمائة وست وأربعون ، العربة ٥٧٨٣١ ، إلى أين أذهب بها ؟

ـ الآن ، أقول لك ـ سحب درج طاولته . فكّر أياً من المصنفات الثلاثة يأخذ . فتح المصنف حذراً بحيث لا تستطيع أن ترى ڤاليا ما بداخله . وعثر على ضالته في الحال :

ـ ٥٧٨٣١ إلى باتشيلما .

ـ أُوهو ! قالت ڤاليا ، وكتبت «باتش» ، لكنها لم تغادر ، بل تابعت النظر إلى الجدول الذي بيدها ، وهي منحنية فوق الطاولة ، تمص طرف قلم الرصاص .

ـ ها هي «تشي» وكتبتها بخطء رديء .

أنبّها زوتوف على ذلك :

ـ قد تقرئينها فيما بعد «ڤي» وترسلينها إلى باڤليتس بالخطأ .

ـ ليس إلى هذه الدرجة ـ ردّت ڤاليا بهدوء ـ يكفيكم ملاحقتي بالملاحظات يا ڤاسيل ڤاسيليتش .

نظرت إليه من تحت خصلات شعرها المدلاة ، وهي تقول ذلك ، لكنها صححت كلمة «تشي» .

ـ ثم ، هـ... ذه أيضاً ـ مطت ڤاليا الكلمة ، ووضعت نهاية القلم في فمها من جديد . كانت جدائل شعرها الناعم الغزيرة الشقراء مدلاة ، كخيوط

الكتان ، مسدلة فوق جبينها ، تغطي عينَيها ، ومع هذا لم تحاول رفعها .

هذه الجدائل النظيفة ، لا بد أن تكون ناعمة الملمس . تصور زوتوف أية متعة ستكون لو ترك أصابعه تعبث بهذا الشعر...

ـ ها... هي... الرصيف ١٠٥١١٠ .

ـ الرصيف الصغير ؟

ـ لا ، الكبير .

ـ من المستبعد ذلك!

ـ لماذا ؟

ـ هناك رقم ناقص .

ـ وما العمل الآن ؟

رفعت ڤاليا شعرها عن وجهها ، كانت رموشها شقراء فاتحة بلون شعرها .

ـ ما العمل! يجب أن تفتشي ، أن تعملي بانتباه أكثر يا ڤاليا . فالقافلة نفسها ؟

ـ آ... ها

صار زوتوف يقلّب الأرقام الواردة في المصنف بذهنه ، أما ڤاليا فراحت تنظر إلى الملازم ، إلى أذنيه المتوضعتين بشكل مضحك ، إلى أنفه المكوّر كحبة البطاطا ، إلى عينيه اللازوردتيتين الفاتحتين ، الواضحتين ، من خلال نظارته .

كم كان دقيقاً موسوساً في عمله هذا الڤاسيل ڤاسيليتش ، لكنه لم يكن رجلاً شريراً ، أما أكثر ما كان يعجبها فيه فهو أنه لم يكن رجلاً عابثاً ، وهو لطيف كذلك .

ـ أُوو... ـ غضب زوتوف ـ تستحقين الضرب بالعصا! ـ ليس صفر واحد ، بل ، صـ ـفـ ـران خمسة . يا لرأسك!

ـ صـ ـفـ ـران! تعجبت ڤاليا وأضافت صفراً .

ـ لقد أنهيت المدرسة ، فكيف لا تخجلين من نفسك!

يكفيكم ذلك يا ڤاسيل ڤاسيليتش ، وما علاقة المدرسة هنا ؟ المهم إلى أين أرسله ؟

ـ إلى كيرسانوف .

ـ أَ... ها . كتبت ڤاليا «إلى كيرسانوف» ولكنها لم تنصرف .

كانت ڤاليا ما تزال في تلك الوضعية ذاتها ، منحنية فوق الطاولة ، قريباً من زوتوف ، تداعب بأحد أصابعها نثارة خشب انشطرت عن لوح الطاولة .

شدت شطفة الخشب إلى أعلى ، فغادرت تلك لتلتصق بأمها من جديد .

انشدت العينان الرجوليتان ، رغماً عنهما ، إلى نهدي الفتاة غير الكبيرين ، اللذين تكشفا جيداً في وضعية الانحناء تلك ، واللذين يختبئان طيلة الوقت ، وراء سترة السكك الحديدية الثقيلة .

ـ قريباً ستنتهي النوبة . قالت ڤاليا ذلك نافخة شفتيها . كانت شفتاها بلون زهري فاتح .

ـ ما زال هناك ما يجب فعله قبل هذه الـ «تنتهي»! تجهّم زوتوف وكف عن النظر إلى الفتاة .

ـ وستذهبون كالعادة إلى امرأتكم... أليس كذلك ؟

ـ إلى أين أذهب ، إن لم يكن إلى هناك ؟

ـ ألا تذهبون لزيارة أحد...

ـ وجدتُ وقتاً مناسباً للزيارات!

ـ وما الذي يحلو لكم عند تلك المرأة ؟ ليس لديها حتى سرير حديد ، أنتم تنامون على صندوق .

ـ وأنت ، ما الذي أدراك ؟

ـ الناس يعرفون ، يتحدثون...

ـ ڤاليتشكا! ليس الزمن الآن ، زمن التنعم بطراوة العيش ، وخاصة بالنسبة لي ، فأنا من دون ذلك أخجل من عدم وجودي على جبهة القتال .

ـ ماذا تقولون! ألستم تقومون بعمل هنا ؟ ما المخجل في الأمر! لا تخافوا سيأتي وقت تنبطحون فيه في الخنادق ، ولا أحد يدري هل ستبقون عندئذ على قيد الحياة... أما الآن فما زلتم أحياء يجب العيش كما يعيش الناس .

نزع زوتوف سدارته ، دلّك جبهته المضغوطة تحتها . كانت السدارة ضيقة على رأس زوتوف ، فلم يعثر في المستودع على واحدة من مقاسه .

رسمت ڤاليا بقلم الرصاص على زاوية القائمة التي بيدها انشوطة طويلة حادة الطرف كالمخلب .

ـ ولماذا غادرتم بيت أڤدييڤ ؟ ألم يكن هناك أفضل!

خفض زوتوف عينيه ، وعلت وجهه حمرة شديدة .

ـ رحلت ، وكفى .

(أيكون قد تسرب كل شيء من بيت أڤدييڤ ؟ فكر زوتوف...)

دببت ڤاليا رأس المخلب أكثر فأكثر .

كلاهما التزم الصمت .

مالت ڤاليا فوق رأسه الكروي . لو نزع زوتوف نظارته لبدا هذا الرأس كرأس طفل . كان شعره خفيفاً ، فاتح اللون ، وهنا... وهناك خرجت منه إلى أعلى شعرات كإشارات الاستفهام .

ـ وإلى السينما ، ألا تذهبون أبداً! لا بد أن لديكم كتباً مثيرة للاهتمام . لو تعيرونني شيئاً أقرأه .

ـ انتفض زوتوف ، كان وجهه ما يزال محمراً .

ـ من أين تعلمين أن الكتب ؟...

ـ أظن ذلك .

ـ لا ، ليس لدي كتب . تركتها في البيت .

ـ أنتم ببساطة تبخلون عليَ .

ـ لا ، ليس لدي ، أقول لك . إلى أين آخذ الكتب ؟ المقاتل يحمل كيس حاجياته ، هذا هو المتبع .

ـ لا بأس ، إذن يمكنكم أن تستعيروا بعض الكتب من عندنا وتقرؤوا .

ـ وهل لديكم الكثير منها ؟

ـ إنها مصفوفة على الرف .

ـ وأية كتب تلك ؟

ـ أية كتب... «فرن الصَهر»... «الأمير الفضي»... ويوجد غيرها .

ـ هل قرأتها كُلّها ؟

ـ بعضاً منها . ثم رفعت رأسها على حين غرة وقالت متنهدة :

ـ ڤاسيل ڤاسيليتش ، ما رأيكم بالانتقال إلى بيتنا! غرفة ڤوڤكين شاغرة لدينا ، وستصير لكم... إنها دافئة ، فالموقد يدفئها . وأمي ستحضر لكم الطعام . ما الذي يبقيكم عند تلك المرأة!

نظر كل منهما إلى الآخر حاملاً لغزه .

رأت ڤاليا أن الملازم متردد ، وأنه يكاد يوافق . وما الذي يمنع غريب الأطوار هذا من الموافقة ؟ كل العساكر يقولون عن أنفسهم غير متزوجين ، هو وحده متزوج . كل العساكر يتوزعون في شقق البلدة عند عائلات جيدة ، تشملهم بالدفء والرعاية . إلا هو . تمنت ڤاليا لو أن رجلاً يعيش في بيتهم ، الذي غادره أبوها ، وإخوها إلى الحرب . لو أنه يوافق لصارا يرجعان معاً ، في ذلك الوقت المتأخر ، بعد انتهاء النوبة المسائية ، عبر شوارع البلدة القذرة ، المرقّطة بالعتمة والضوء ، وربما تتشابك ذراعاهما في الطريق ، وكم سيكون مفرحاً الجلوس معاً على المائدة ، والمزاح ، والتحدث عن شيء ما...

أما ڤاسيا زوتوف ، فكان ينظر إلى الفتاة التي تدعوه للإقامة في بيتها بشكل مباشر ، نظرة تكاد تكون وجلة . كانت ڤاليا تصغره بثلاث سنوات فقط ، وهي حيث تخاطبه باسمه واسم أبيه ، وبصيغة التفخيم «أنتم» فليس لكبر سنه ، بل لاحترامها لرتبته .

كان زوتوف يعي أن الأمر لن ينتهي عند الغداءات اللذيذة ، ودفء الموقد . ماجت الرغبة فيه ، فلكم أراد الآن أن يمد يده ، ويداعب جدائلها الشقراء... ولكن ، لا ، لا يجوز هذا بأي حال .

صحح وضع ياقة سترته ذات الشارات الحمر في العروات الخضر ، ولم تكن بحاجة إلى تعديل فهي لا تضغط على عنقه . عدّل وضع نظارته .

ـ لا يا ڤاليا ، لن أذهب إلى أي مكان... ثم... العمل متوقف ، ونحن هنا نمارس الثرثرة ؟

بعد ذلك ، اعتمر زوتوف سدارته الخضراء ، مما اكسب وجهه العاري الأفطس صرامة أكبر . نظرت الفتاة إليه ثانية من تحت حاجبيها ، وقالت ماطّة كلماتها :

ـ ڤاسيل ڤاسيليتش ، دعكم من هذا!

تنهدت ڤاليا بعمق ، ورفعت ظهرها ، بصعوبة تخلو من حيوية الشباب ، من وضعية الانحناء فوق الطاولة تلك ، وجرّت الورقة بيدها المتهدلة ، وغادرت الغرفة .

أما زوتوف ، فرمش مرتبكاً . ربما ، لو عادت ودعته بإصرار أكبر لتراجع عن رأيه . لكنها لم تعد .

لم يستطع ڤاسيا أن يوضح لأحد لماذا هو يعيش في كوخ غير مدفأ جيداً ، مع امرأة عجوز ، وأحفادها الثلاثة ، وينام على صندوق أقصر من قامته . كانت القهقهات تعلو وسط الزحام الذكوري الكبير الخشن عام ١٩٤١ عندما كان يقول بإنه يحب زوجته ، ويفكر بعدم خيانتها طوال الحرب ، وإنه يثق بوفائها له أيضاً .

قهقه الشباب المرحون ، الأصدقاء الودودون معاً ، وخبطوا على كتفيه بعنف ، ونصحوه بألا يضيع نفسه . منذ ذلك الحين لم يعد زوتوف يحكي بصوت مسموع عن ذلك ، لكن الحنين كان ما يزال يشده إليها بقوة ، خاصة

عندما يستيقظ في الليالي الموحشة ، ويفكّر بحالها ، هي المرأة الحامل ، الباقية هناك في البعيد ، البعيد تحت رحمة الألمان .

بيد أنه لم يرفض عرض ڤاليا من أجل زوجته ، بل من أجل بولينا... ، لا وليس من أجل بولينا ، بل من أجل...

بولينا فتاة من كييڤ ، قصيرة الشعر ، كحلاء ، ذات بشرة وجه مخملية . بولينا هذه ، هي الفتاة ذاتها التي تعيش عند العمة فروسيا ، وتعمل في مركز البريد .

حين كانت الفرصة تسنح له كان ڤاسيا يذهب إلى مركز البريد لمطالعة آخر إصدارات الجرائد . الجرائد كانت تتأخر في الوصول فتنتظره أكداس منها . هذا ما كان يحدث قبلاً أيضاً ، وكان يمكن الاطلاع على جرائد عدة في الوقت نفسه . مركز البريد ليس قاعة مطالعة طبعاً ، وليس من واجب أحد أن يعطيه شيئاً ليقرأه . لكن بولينا كانت تفهمه ، وتحمل إليه كل الجرائد ، إلى المكان الذي يقف فيه ، في نهاية الحاجز الخشبي ، ليطالعها في البرد .

كما هي بالنسبة لزوتوف ، لم تكن الحرب بالنسبة لبولينا أيضاً ، ذلك الدوران الوحشي الحتمي لرحى الموت ، لذلك كانت بكل ما خُصت به من حياة ، ومن مستقبل ، تتمنى لو تستطيع تخمين بعض مما تؤول إليه ، تقلّب بيديها القلقتين هذه الجرائد باحثة عن كلمات مقتدرة جبارة تفسر لها مجرى الحرب .

غالباً ما كانا يقرأان جنباً إلى جنب ، يشير كل منهما للآخر ، بصورة خاطفة إلى المواقع الهامّة . كانت الجرائد تعوض لهما عن الرسائل التي لم يكن أي منهما يستلم منها شيئاً . قرأت بولينا باهتمام كُلَّ أخبار القتال

محاولة تخمين هل يمكن أن يكون زوجها في هذا المكان أو ذاك .

وعملاً بنصيحة زوتوف كانت تقرأ ، معقودة الحاجبين ، مقطبة الجبين ، حتى المقالات المكتوبة عن تكتيك الدبابات والمشاة في جريدة « كراسنايا زفيزدا » (النجمة الحمراء) . أما مقالات إيرينبورغ فقد قرأها ڤاسيا ، قلقاً ، بصوت مسموع . كان يستميح بولينا عذراً بأخذ بعض الجرائد ، ويقتطع من تلك المتبقية لديهم بعض المقاطع ويحفظها لديه .

لقد أحب زوتوف بولينا وطفلها وأمها كما لا يمكن للإنسان أن يحب إلا في المحن والمآسي . حمل السكر من مخصصاته وأعطاه للصغير . غير أنه لم يكن يسمح لنفسه على الاطلاق بأن يلامس يدها البيضاء في يوم من الأيام ، وهما يقلبّان صفحات الجرائد قرب بعضهما بعضاً ، ليس لأن لها زوج ، وليس لأن لديه زوجة ، بل لأن ما جمعهما معاً كان تلك الفجيعة المقدسة .

صارت بولينا أقرب إنسان إليه في كوتشيتوفكا ، لا ، بل في هذا القطاع من الجبهة برمته . لقد صارت عين ضميره ، وعين وفائه ، فكيف له أن ينتقل إلى شقة ڤاليا ما الذي ستفكر به بولينا عندئذ ؟

وحتى من دون بولينا ، هو لا يقدر على اللهو مع امرأة هنا ، بينما يحدق الخطر بكل ما يحب هناك .

عدا عن ذلك ، لم يكن زوتوف يجد من السهل عليه الاعتراف لڤاليا ، وللملازم البديل في الخدمة ، بأن لديه هنا مطالعة مسائية ، وأن لديه كتاباً ، ذلك الكتاب الوحيد ، الذي أخذه من مكتبة ما ، أثناء فوضى التنقل عبر الطرقات ، هذا العام ، الكتاب الذي ينقله في كيس حاجياته من مكان إلى مكان .

كان هذا الكتاب . ، هو الجزء الأول الأزرق السميك من «رأس المال» ذو الورق الأصفر الخشن من أعوام الثلاثينيات .

كان زوتوف طوال السنوات الخمس التي أمضاها في الدراسة ، يحلم بقراءة هذا الكتاب . كان قد استعاره من مكتبة المعهد أكثر من مرّة وحاول تلخيصه ، وكان يحتفظ به طوال الفصل الدراسي أحياناً ، وفي أحايين أخرى طوال العام . لكن الوقت لم يتوفر له في يوم من الأيام لقراءته . فقد استهلكته الاجتماعات ، والمهمات الاجتماعية ، والامتحانات... وكان عليه أن يعيده قبل أن يلخص صفحة واحدة من صفحاته ، عندما انطلقوا في مسير حزيران .

وحتى عندما كان يحضّر لتقديم الامتحان السياسي ، وهو الوقت الأنسب لقراءة «رأس المال» كان المدرس يثنيهم عن عزمهم قائلاً : «ستغرقون!» وينصحهم بالاكتفاء بكتاب لابيدوس المدرسي ، ويملخص المحاضرات .

وبالفعل ، بالكاد هم تمكنوا من قراءتها .

والآن ، في خريف العام الواحد والأربعين ، في أوار القلق العظيم ، في هذا المكان الموحش ، وجد ڤاسيا زوتوف الوقت لقراءة «رأس المال» .

هذا ما قام به في ساعات فراغه من الخدمة ، ومن التدريب الشعبي ، ومن مهمات لجنة المنطقة الحزبية ، في بيت أڤدييف ، في تلك الغرفة المخضّرة بنباتات الصبار وورق الصالون يجلس وراء طاولة متأرجحة ، مستنيراً بمصباح كيروسين ــ فلم تكن استطاعة محرك الديزل تكفي لإنارة كل بيوت البلدة ــ ممسداً بيده الورق الخشن ليقرأ : قراءة تصفّح أولى لالتقاط الفكرة العامة ، وقراءة ثانية للملاحظات ، وقراءة ثالثة لاستخلاص

الأفكار وتلخيصها ، وترتيبها بشكل نهائي في الذهن .

بمقدار ما كانت الأخبار الواردة من الجبهة تبدو أكثر سوءاً ، كان زوتوف يتعمّق بعناد أكبر في هذا الكتاب الأزرق الثخين .

فكّرڤاسيا أنه إذا ما استطاع استيعاب الجزء الأول على الأقل من هذا الكتاب ، وهضمه ، وحفظه في ذهنه بالتمام والكمال ، سيغدو لا يقهر ، ولا يفحم ، ولا يردّ له قول في أي جدال عقائدي . لكن المساءات لم تكن كثيرة ، وكذلك الساعات التي يتاح له فيه أن يخلو بنفسه للقراءة . كان عدد الصفحات التي دوّنها معدوداً ، ولكم كانت تعيقه أنتونينا إيڤانوڤنا .

كانت أنتونينا أيضاً من نزلاء بيت أڤدييڤ . وكانت هذه المرأة القادمة من ليسوك قد أصبحت هنا في كوتشيتوفكا مديرة مطعم كانت امرأة عملية ، ثبتت قدميها بثقة . ولم يكن من السهل على أحد أن يثير مشكلة لديها ، في المطعم .

عرف زوتوف ، فيما بعد ، أنهم كانوا يقدمون لقاء روبل محشور في الكوة ، بقصعة فخار ، مملوءة بماء رمادي ساخن ، بلا دسم ، تسبح فيه عدة معكرونات ، أما من كان لا يرغب بمط شفتيه لرشف الحساء من حافة القصعة ، فكان عليه حشر روبل آخر ، ليحصل على ملعقة خشبية مقرضة الحواف . أما أنتونينا إيڤانوڤنا ، فكانت تطلب في المساء من عائلة أڤدييڤ وضع السماور ، بينما تضع هي على المائدة خبزاً وزبدة .

على الأرجح ، كان عمر أنتونينا خمسة وعشرون عاماً ، لكنها كانت تبدو امرأة بالغة ، بيضاء ، ناعمة . كانت أنتونينا تحيي الملازم زوتوف بلطف دوماً ، أما هو فكان يردّ عليها بارتباك ، خالطاً ، ولفترة طويلة ، بينها وبين قريبة صاحبة البيت ، التي تأتي لزيارتهم .

بينما كان زوتوف ينكب على كتابه ، محني الظهر ، مستغرقاً فيه ، لم يكن يلاحظها ولا حتى يسمع خطواتها ، حين تعود من عملها في وقت متأخر من المساء ، وتعبر غرفته الصغيرة إلى غرفة نومها ، وتقفل راجعة من هناك إلى ركن صاحبة البيت ، وترجع من جديد إلى غرفتها ، وهكذا بين رواح ومجيء .

في إحدى المرّات دنت من الملازم فجأة وسألته :

ـ ما هذا الذي تقرؤونه طوال الوقت أيها الرفيق الملازم ؟

غطى الملازم المجلد بدفتره ، وأجابها بما وقع على لسانه متهرباً . مرة أخرى سألته :

ـ ما رأيكم ، أليس أمراً مخيفاً أنني لا أقفل باب غرفتي في الليل ؟

أجابها زوتوف :

ـ ما الخوف! فأنا هنا ، ولدي سلاح .

بمرور عدة أيام على ذلك ، وبينما كان يجلس كالعادة مستغرقاً في كتابه ، أحس أنها ، رغم توقفها عن الرواح والمجيء ، لم تغادر غرفته . التفت وصعقته المفاجأة : هنا ، في غرفته ، فرشت لنفسها على أريكته واستلقت ، مرخية شعرها فوق المخدة ، حتى من دون أن تستر باللحاف كتفيها ، الأبيضين ، الوقحين . بلق عينيه محدقاً فيها ، مأخوذاً لا يدري ما يفعل .

ـ هل يزعجكم وجودي هنا ؟ سألته غامزة .

وقف زوتوف مرتبك الذهن ، ثم خطا خطوة واسعة نحوها ، لكن شكل هذه الشبعانة ، المعلوفة بالمسروقات لم يجذبه ، بل على العكس أشعره

بالنفور . حتى إنه لم يستطيع أن يقول لها شيئاً ، فقد عقد المقت لسانه وأمسك بحلقه .

استدار زوتوف ، أغلق «رأس المال» . وجد في نفسه من القوة ما يكفي لضبه في الكيس . اندفع نحو المسمار على الجدار ، حيث يتدلى معطفه المطري ، وسدارته ، وخرج مسرعاً ، خالعاً في طريقه نطاقه المثقل بالمسدس ، قابضاً عليه بيده من دون أن يتزنّر .

خرج إلى الظلام الدامس ، حيث لم تتسرب قشة ضوء واحدة ، لا من الشبابيك المموهة ، ولا من السماء الغائمة ، حيث الريح الخريفية الباردة تزمجر ، وتضرب مع حبات المطر .

اتجه زوتوف إلى المحطة ، خابطاً بقدميه في البرك ، والحفر ، والوحول... ومضى بعض الوقت قبل أن يدرك أنه يمسك بيده الزنار والحمّالة مع المسدس .

لقد لدغته تلك الاساءة الوضيعة ، حتى كاد يبكي ، مهمهاً في اندفاعه الكالح .

منذ ذلك الحين تزعزعت حياته في بيت أقدييف . لم تعد انتونينا إيڤانوڤنا تلقي التحية عليه ، لكنها لم تكتف بذلك ، بل صارت تستقبل بوز كلب مدني إنما هو في جزمة وسترة رسمية ، كما كانت تملي روح ذلك الزمان .

حاول زوتوف أن يشغل نفسه عنهما ، لكنها كانت تترك باب غرفتها مفتوحاً عن قصد ، كي يسمع جيداً كيف يتضاحكان ، وكيف تتأوه وتموء .

عندئذ انتقل للعيش عند العجوز الثقيلة السمع ، التي لم يعثر لديها إلا على صندوق افترشه سريراً لنومه .

ولكن ها هي الاشاعة تسري في كوتشيتوفكا . لو أنها فقط لا تصل إلى بولينا يا للعار...

شغله ورود هذه الأفكار عن عمله . أمسك ، من جديد ، بقلم الكوبيا ، وأرغم نفسه على الاهتمام بخطوط الحركة . وعاد يكتب بخطه الانسيابي الواضح أرقام العربات والارساليات ، منظماً جداول الحركة عبر ورقة كربون . كان يمكن أن ينهي العمل الذي بين يديه ، لكن خللاً ما طال قطاراً كبيراً قادماً من كاميشين كان يجب أن يحل . القومندان وحده كان يمكن أن يحل هذه المشكلة .

أدار زوتوف ذراع هاتف العمليات ، ورفع السماعة وبدأ يصغي علّ أحداً يرد .

كرّر إدارة ذراع الهاتف لمدة أطول هذه المرّة ، ثم أعاد ذلك بواحدة أطول من سابقتها . بيد أن النقيب في الطرف المقابل لم يجب . هذا يعني أنه غير موجود في المكتب ـ فكّر زوتوف ـ ربما هو يستريح في البيت في قيلولة بعد الغداء . وهو لا بد أن يعود قبل تبديل الخدمة للاستماع إلى تقرير النوبة .

وراء الباب ، كانت بود شيبياكينا تهتف أحياناً لمسؤول الحركة في المحطة .

دخلت العمة فروسيا وخرجت بعد قليل . ثم تعالى وقع ثقيل لأربع فردات جزمات .

دقا الباب ، ثم فتحاه واستأذنا بصوت مرتفع :

ـ أتسمحون بالدخول ؟

ومن دون أن ينتظرا أو يصغيا إلى جواب دخلا .

كان الأول فائق الطول عملاقاً ، مرن الحركة ، ذا وجه زهري مصقع . سار حتى وسط الغرفة ، ثم خبط كعب حذائه بالكعب الآخر مقدماً تقريره :

ـ عريف حرس القافلة رقم ٩٥٥٠٥ الرقيب غايدوكوف! ثلاث وثمانون عربة ، كل شيء جاهز ، مستعدون لمتابعة الرحلة!

كان يعتمر قبعة شتوية جديدة ، ويرتدي معطفاً يتناسب وقده ، من معاطف الآمرين ، ذات الشقة . كان يتمنطق بحزام جلدي عريض ذي قفل على شكل نجمة ، ويحتذي جزمة جلد ملمعة جيداً .

أما الرجل الثاني ، المربوع القامة ، ذو الوجه الأسمر الغامق ، فخطا جانباً من خلف ظهر الأول ، محركاً قدميه بتردد ، غير مبتعد عن الباب ، ثم رفع يده ، بلا حماس ، إلى قبعته ذات الواقيتين المدلاتين ، وبدأ بتقديم تقريره بصوت منخفض :

ـ قائد حرس القافلة ٧١٦٢٨ العريف ضيغين ، أربع عربات حمولة ١٦ طن .

كان معطفه العسكري مطوقاً بزنار رفيع من مشمع أحد وجهيه مكرمش ، أو مُلاك بأسنان ماكينة الخياطة ، وكانت جزمته من جلد ثقيل ، ذات قصبة مكسّرة في طيات عدة متآكلات .

كان وجه العريف بارز الحاجبين ، ثقيل الفكين ، كوجه تشكالوف ، ولكن ليس كوجه تشكالوف* الشاب المقدام ، الذي استشهد منذ زمن بعيد ، بل كوجه تشكالوف عجوز هرم .

* تشكالوف : ڤاليري باڤلوفيتش تشكالوف (١٩٠٤ ـ ١٩٣٨) طيّار سوفيتي . بطل الاتحاد السوفيتي ، طار من موسكو إلى أمريكا عبر القطب الشمالي دون توقف .

ـ هكذا إذن! أنا مسرور جداً! مسرور جداً .

قال ذلك زوتوف ، ثم نهض واقفاً .

لم يكن على زوتوف لا بمستوى رتبته ، ولا بوظيفته أن ينهض لملاقاة كل رقيب أو عريف يدخل مكتبه ، إنما كان بالفعل يسر لملاقاة كل داخل عليه ، ويسرع للقيام بأفضل ما يمكن معه .

لم يكن هناك عساكر تحت إمرة معاون آمر المحطة زوتوف . وكان هؤلاء المسافرون العابرون ، المعرجون لخمس دقائق أو حتى ليومين هم الوحيدون الذين يمكن له أن يرعاهم باهتمامه ويشملهم بتعليماته .

ـ أعلم ، أعلم . وثائق قافلتكم صارت في حوزتي ـ بحث عن الوثائق على طاولته وأخيراً وجدها وصار يتملى فيها ـ ها هي ، ها هي... ٩٥٥٠٥... ٧١٦٢٨... هاهي .

ثم رفع عينيه بنظرة طيبّة شملت الرقيب والعريف .

كان معطفاهما وقبعتاهما مبللتين قليلاً ، تبدو عليهما بعض بقع الماء .

ـ أراكما جافين ؟ هل توقف هطول المطر ؟

ـ صار يسقط على شكل زخات ـ قال غايدوكوف ، هازاً رأسه ، مبتسماً ، وهو ما يزال واقفاً ، ولكن ليس في وضعية الاستعداد كما يجب ، وإنما مشدود القامة ـ ولكن الريح الشمالية عاتية!

كان يقارب التاسعة عشرة من العمر ، لكن الحرب وسمت وجهه الطيب بخاتم الرجولة المبكرة ، كما تمهر الوجوه لفحة الشمس .

غبار الجبهة ذاك ، هو ما أنهض زوتوف عن كرسيه .

لم يكن هناك إلا القليل الذي يحتاجه مساعد الآمر من هؤلاء ، ففي كل الأحوال لم يكن الحديث عن مضمون الارسالية مطلوباً ، لأن العربات التي يرافقونها يمكن أن تكون مختومة ، والصناديق مسمّرة ، وهم أنفسهم لا يعرفون شيئاً عما تحتويه ، أما هم ، فيحتاجون إلى الكثير من آمر المحطة .

كان غايدوكوف يريد أن يفهم ألا يكون هذا الآمر جرذ مؤخرة حشري ؟ ألن يطلب الآن تفقد القافلة ، والحمولة والتأكد منها ؟

لم يكن يقلقه وضع الحمولة ، على أية حال ، فهو لم يحم حمولته فقط ، بل وأحبها أيضاً : كانت الشحنة التي يصطحبها عدة مئات من الخيول الممتازة ، المرسلة من قبل ميّار فطن ، حمل معها على القطار ذاته كمية كافية من التبن المضغوط ، والشعير ، غير عاقد كبير أمل على امدادات الطريق .

ترعرع غايدوكوف في الريف ، وكان منذ صغر سنه ميّالاً إلى الخيل ، وهو الان يذهب إلى الخيول ، كما لو أنه يقوم بزيارة أصدقائه ، بملء رغبته ، وليس لضرورات الخدمة ، ليعين المقاتلين المناوبين في تقديم الماء والعلف للخيول ، ورعايتها .

عندما يدفع بالباب ، متسلقاً السلم الحديدي ، حاملاً بيده مصباحه الخفاش ، تدير جميع الخيول الستة عشرة : الكميت ، والأمغر ، والأحم ، والأغبر... أبوازها الطويلة ، الذكية ، اليقظة صوبه... وبعض منها تمط أعناقها عبر ظهور جاراتها ، وتنظر بعيون جاحظة ، كبيرة لا ترف ، مشنفة آذانها ، مرهفة سمعها ، كما لو أنها لا ترجو التبن فقط ، بل تتمنى لو يحدثها عن هذا الصندوق الذي حشرت فيه ، النطاط المفرقع ، ويوضح لها لماذا ، وإلى أين يذهبون بها .

طاف غايدوكوف بين الخيل ، منحصراً بين أكفالها الدافئة ، مداعباً أعرافها ، وعندما كان يخلو له المكان بغياب المقاتلين الحراس ، يمسد خطومها ، ويتحدث إليها .

كان الرحيل إلى الجبهة أقسى على الخيول ، مما على البشر ، فحاجة الحصان إلى الجبهة كحاجته إلى رجل خامسة .

ما الذي يقلق غايدوكوف الآن أمام الآمر . يبدو أن الأخير شاب عملي ، وليس هناك ما يثير التوجس من ذهابه لإلقاء نظرة على عربات الخيل . ومع أن معظم الخفراء كانوا حديثي العهد بالخدمة ، إلا أن قائدهم غايدوكوف سبق أن كان على خط القتال الأمامي ، وسبق أن جرح في تموز على جبهة الدنيبر ، ورقد شهرين في المشفى العسكري ، وعمل هناك في مستودع التعيينات ، وها هو يعود من جديد إلى جبهة القتال . لذلك فهو على معرفة جيدة بالأنظمة ، ويعرف أيضاً كيف يمكن اختراقها وأين يجب ذلك .

كانوا عشرين مقاتلاً شاباً . اصطحبوا معهم في الطريق هذه الخيول فحسب ، وما أن يقوموا بتسليمها ، حتى يكون عليهم الالتحاق بفرقتهم المقاتلة . وربما لن تمضي بضعة أيام حتى يكون عليهم أن يلطخوا هذه البزات الجديدة بوحل الخنادق . وليت ذلك يكون في الخنادق . فقد لا يكون أمامهم مهرب من إخفاء رؤوسهم وراء حدبات صغيرة اتقاء لقذائف الألمان . فما أشد ما ضايقت قذائف الهاون غايدوكوف في الصيف الماضي . ولهذا ، فإن هؤلاء المقاتلين يريدون أن يمضوا هذه الأيام الأخيرة ، التي بين أيديهم ، في الدفء والإلفة ، والمرح .

في عربتهم المربوطة بطرف القطار ، موقدتان من فولاذ ، متوهجتان

دوماً ، فهم باستمرار يلقمونها بقطع كبيرة من الفحم ، بحجم قبضة اليد ، حصلوا عليها من إحدى المحطات في الطريق .

لقد سيّروا قافلتهم بسرعة ، فلم يكن عليهم الانتظار طويلاً في أية محطة . وبطريقة ما تمكّنوا من تقديم الماء للخيول مرّة كل يوم وتمكنوا من صرف بطاقتهم التموينية ، والتبضع ، مرّة كل ثلاثة أيام .

حين يكون الطريق أمام القافلة ميسراً يكثر الراغبون بركوبها . ومع أن النظام يمنع منعاً باتاً اصطحاب المدنيين في عربات الحراسة ، فإن غايدوكوف ، ومساعده المتطبع بطبيعته الهشة بالقدرة على الرفض ، لم يستطيعا النظر إلى الناس المصقعين على متن السكة الخريفية الباردة ، الراكضين تجوح بهم أجسادهم على امتداد عربات القطار . هذا لا يعني أنهم كانوا يصطحبون كل من يرجو ، ولكن كان يعني أيضاً أنهم لم يصدوا الكثيرين .

لقد اصطحبوا معهم مفتشاً خبيثاً مقابل زجاجة فودكا منزلية ، وعجوزاً أمغر يحمل خرجاً ، مقابل قطعة من شحم الخنزير المملح ، وآخرين مقابل لا شيء . هناك من لم تكن تطاوعهم قلوبهم برفض رجائهن فيمدوا أيديهم في ملاقاة الفتيات والصبايا ، اللواتي كن أيضاً يرحلن إلى مكان ما ، من أجل شيء ما .

الآن ، في حر العربة الصاخبة ، يجلس العجوز الأمغر ، مبربراً بشيء ما عن الحرب العالمية الأولى ، وعن قتاله ومعاناته حتى حصل على صليب غيورغي* . واحدة حمقاء من الفتيات جلست بجوار الموقد مباشرة ، وراحت تنكش الجمر بالمغرفة . كان الحر قد أجبر الباقين على خلع معاطفهم

* صليب القديس غيورغي : وسام كان يمنح للضباط الروس على تميزهم الحربي في العهد القيصري . وله أربع درجات . أسس عام ١٧٦٩م .

وستراتهم ، حتى كنزاتهم . واحدة ما تزال في بلوزتها الحمراء ، وهي ذاتها صارت حمراء ، تغسل قمصان الشباب ، وقميص الذي يساعدها بعصر الغسيل ، نافضة عليه الماء من الخرق المبللة ، حين يحاول الالتصاق بها . اثنتان تطبخان للشباب من الدهن المنزلي وزاد القتال . واحدة أخرى تجلس ، وترتق ملابسهم التي تفتقت هنا وهناك .

حين سيغادرون المحطة هذه ، سيتناولون العشاء ، ويجلسون قرب النار ، ويغنون على إيقاع ضجيج العربة المكرور الرتيب . ومن ثم بعد أن يكون قد طال التعب من الجميع ، تراهم بلا تمييز ، اليقظ منهم والمستسلم للرقاد يتسلقون الأسّرة المصنوعة من خشب غير ممسوح ، ويستلقون هناك جنباً إلى جنب . بعض من هؤلاء النسوة والفتيات ، من هؤلاء الزوجات ، اللواتي ودّعن أزواجهن الراحلين إلى الجبهة منذ وقت قصير ، ومن هؤلاء العذراوات الصغيرات من لا يستطيع مقاومة عواطفهن فتراهن هناك في ظل المصباح يتعانقن مع الشباب .

أجل ، وكيف لا يثير عطفهن جندي راحل إلى جبهة القتال! ربما يكون هذا هو اليوم الأخير في حياته...

كل ما يريده غايدوكوف من الآمر ، شيء واحد هو أن يسفّرهم بأسرع وقت ممكن من هنا . كما كان يتمنى أن يعرف ولو القليل عن الطريق الذي ستسلكه قافلتهم : للمسافرات معهم ، ليعرف أين سينزلهن ، ولنفسه ، ليعرف أين سيكون عليه أن يخوض القتال من جديد . ألا يمر الطريق بالقرب من بلدة واحد ما من بينهم ؟

ـ هكذا... هكذا... ـ قال الملازم ، ناظراً إلى وثائق السفر ـ ألم تتحركوا معاً ؟ هل ضموكم منذ فترة قصيرة ؟

ـ بلى ، في واحدة من المحطات القريبة من هنا .

مطّ الملازم شفتيه ، محدّقاً عبر نظارته في الورقة

ـ ولماذا رحّلوكم إلى هنا ؟ ـ وجّه سؤاله إلى العجوز تشكالوف ـ هل مررتم في بينز ؟

ـ أجل مررنا . أجاب ضيغين محشرجاً .

ـ وأي شيطان جعلهم يرسلونكم عبر رياجسك ؟ هذا غير معقول ، يا لهم من حمقى!

ـ والآن ، هل سنتابع معاً . سأل غايدوكوف .

بقدومه إلى هنا عرف غايدوكوف سفر ضيغين ، وتمنى لو يعرف وجهة سفره الخاصّة .

ـ إلى غريازي معاً .

ـ وبعد ذلك ؟

ـ الباقي سر عسكري . قال زوتوف ذلك موأوئاً بلذة ، هازاً رأسه مضيقاً عينيه ، ناظراً من تحت إلى فوق ، عبر نظارته ، إلى العريف الطويل .

ـ على كل حال ، هل سنمر عبر كاستورنايا ، أم لا ؟...

تمتم غايدوكوف منحنياً قرب الملازم .

ـ هناك سيتوضح لكم لأمر . أراد زوتوف أن يكون رده صارماً ، غير أن شفتيه افترتا عن ابتسامة خفيفة ، وهذا ما جعل غايدوكوف يفهم أنهم سيمرون عبر كاستورنايا .

ـ وهل سننطلق في هذا المساء ؟

ـ أجل ، فنحن لا نستطيع تأخيركم .

ـ أنا لا أستطيع متابعة السفر . خرخر ضيغين بإصرار ، وبلهجة تخلو من المودة .

ـ ولماذا ، هل أنتم شخصياً مريضون ؟

ـ كل المقاتلين لا يستطيعون .

ـ هكذا!... كيف لا ؟ أنا لا أفهمكم ، لماذا لا تستطيعون ؟

ـ لأننا لسنا كلاباً!!! صاح ضيغين خارجاً عن صمته ، بينما تحركت مقلتاه بغضب تحت جفنيه .

ـ ما الذي اسمعه! ـ قطب زوتوف وشد ظهره ـ كن أكثر حذراً أيها العريف . قال ذلك وباتت وأوأته أكثر وضوحاً .

التفت إلى المثلث الأخضر عند العريف . كانت الشارة معلّقة في عروة واحدة من معطف صاحبها ضيغين ، أما العروة الثانية فكانت فارغة ، لم يبق إلا أثر المثلث على قماش المعطف وثقب في وسطه . تدلت واقيتا الأذنين من قبعة ضيغين كورقتي لوبوخ فوق صدره .

نظر ضيغين من تحت عقدة جبينه نظرة شر :

ـ لأننا... ـ قال بصوت مبحوح ـ نسافر لليوم الحادي عشر ، نحن ببساطة جائعون .

ـ كيف ؟ ؟ ـ أسند الملازم ظهره إلى الخلف . أفلت ذراع نظارته من أحد أذنيه فأمسك به ، وأعاده إلى مكانه ـ كيف يمكن لهذا أن يحدث ؟

ـ هكذا ، يحصل... بمنتهى البساطة

ـ ولكن ، أليس لديكم بطاقات تموين ؟

ـ وهل نأكل الورق!

ـ كيف إذن ، أنتم ما تزالون أحياء ؟!

ـ كما ترى... أحياء

كيف بقيتم أحياء! هذا السؤال الطفولي من ذي النظارات أثار أخيراً غضب ضيغين ، الذي أدرك أنه لن يتلقى المساعدة في محطة كوتشيتوفكا أيضاً .

كيف بقيتم أحياء! الجوع والمعاناة هي التي ضغطت فكيّه ، وليس هو الذي شدّهما ، وهو ينظر نظرة ثقيلة إلى مساعد الآمر الحربي الأبيض ، في غرفته الدافئة النظيفة .

من سبعة أيام تمكنوا من الحصول على شوندر في إحدى المحطات . ملؤوا كيساً من كومة ملقاة هناك . وراحوا على مدى أيام الأسبوع يسلقون هذا الشوندر في قدورهم ، ويأكلونه ، حتى صار يبعث فيهم الشعور بالغثيان ، فأمعاؤهم لم تعد تتقبله .

عندما كانوا متوقفين في محطة الكسندر نيفسكي ، في ليل أول البارحة ، نظر ضيغين إلى جنوده الاحتياطيين الجائعين ، الهزيلين ، وهم جميعاً يكبرونه بالسن ، فهو على أية حال ما يزال فتياً يقاوم . عقد العزم ونهض .

عوت الريح تحت العربات ، وصفرت في شقوقها . كان يجب إسكات الأحشاء الجائعة بشيء ما . سار ضيغين إلى قلب العتمة ، وعاد بعد مضي

ساعة ونصف الساعة ، حاملاً ثلاث أرغفة خبز ، ألقى بها على السرير .

أبكمت المفاجأة الجندي الجالس قربه «رغيف أبيض هنا!» «وماذا في الأمر ؟ ـ انتبه ضيغين إلى الرغيف الأبيض بين الأرغفة بلا مبالاة ـ لم ألاحظ ذلك» .

كيف بقيتم أحياء!... لن يقص كل هذه الحكايا على آمر المحطة .

سافروا هم المقاتلون الأربعة إلى وطنهم الأم ، كما لو كانوا في صحراء . كانت حمولتهم عشرين ألف معول ، ما تزال في شحم المعمل ، يذهبون بها ـ وقد عرف ضيغين ذلك من المصدر ـ من غوركي إلى تبليسي . يبدو أن الحمولات الأخرى على اختلافها كانت أهم وأعجل من هذه الباردة اللعينة ، ذات الشحمة المتجمدة .

ها هو الأسبوع الثالث قد بدأ ، وهم لم يجتازوا نصف طريقهم بعد .

قام مسؤول الحركة الأخير بفصل عرباتهم الأربع ، ونحّاها جانباً في إحدى المواقف الثانوية ، كما كان يفعل كل من لم يمنعه الكسل عن ذلك .

في رحلتهم الطويلة هذه كان بإمكانهم أن يتموّنوا مرّة واحدة في غوركي لثلاثة أيام ، ومرّة ثانية في سارانسك لثلاثة أيام أخرى . أمّا بعد ذلك ، فلم يتمكنوا من إدراك مخزن واحد مفتوح . ومع هذا ، كان يمكنهم أن يتحملوا هذه المصيبة ، وأن يجوعوا خمسة أيام أخرى بلياليها ، لو أنهم عرفوا فقط ، بأن حصتهم من الغذاء عن تلك الأيام لن تموت ، وأنهم سيحصلون في نهاية المطاف على حصص الأيام الخمسة عشر كلّها . لكن الأمعاء عوت ، والروح أنّت ، فقانون مخازن المؤن واحد : قسائم الأيام السابقة لا تصرف . ما فات مات .

ـ ولكن ، لماذا لا يمونوكم ؟ أضاف الملازم زوتوف

ـ وهل تموننا ، أنتم ؟ باعد ضيغين بين فكيه المشدودين .

كان ضيغين قد قفز من العربة ، وعرف من أحد الجنود القادمين بوجود مخزن للمؤن هنا في هذه المحطة . لكن الأوان قد فات ، فها هو الظلام قد أرخى سدوله ، ولا فائدة ، كما تقول التعليمات ، من الذهاب إلى تلك الكوة .

نسي الرقيب غايدوكوف وقفته المرحة أمام الملازم زوتوف ، وراح ينظر إلى ضيغين ، ثم مد ذراعه الطويل ، وربت على كتف الأخير :

ـ لماذا لم تخبرني يا أخي ؟ الآن نعطيكم مما لدينا!

ـ لم يتحرك ضيغين ولم يلتفت إلى غايدوكوف ، بل بقي محدقاً بثبات في وجه الملازم . كان يغيظه عجزه ، وعجز مقاتليه العجائز ، فطوال أحد عشر يوماً من سفرهم لم يطلبوا ما يؤكل ، لا من المدنيين ولا من العسكريين : كانوا يدركون أن لا أحد لديه لقمة زائدة في هذا الزمان . ولم يطلب أحد منهم أن يصطحبوه معهم في عربتهم المهملة ، المفصولة عن القاطرات معظم الوقت . ومؤونتهم من التبغ ، أيضاً ، نفذت عن آخرها . ولأن جدران عربتهم كانت مشققة من كل الجهات ، سدّوا ثلاثاً من نوافذها الأربع بألواح من الخشب ، فباتت العربة معتمة حتى في وضح النهار . وبعد أن أخذ منهم اليأس من كل شيء مأخذه ناست النار في موقدهم ، التي التفوا حولها يومين ، وربما ثلاثة أيام متتالية يسلقون الشوندر ، في قدروهم ، ويقطعونه بسكاكينهم ، ويأكلونه صامتين .

شد غايدوكوف صدره بحركة رجولية :

ـ أتسمحون بالانصراف ، أيها الرفيق الملازم ؟

ـ انصرفوا

خرج غايدوكوف مسرعاً ، فالآن سيقدّمن في عربتهم بأيديهن الدافئة لجنوده جريش الدخن ، والتبغ ، . هم لم يأخذوا شيئاً من تلك العجوز الدامعة لقاء نقلها معهم ، فلتتقاسم معهم إذن ، بلا بخل ، ما لديها من طعام . والمفتش الذي اصطحبوه أيضاً يجب أن يدقوا على حقيبته ، فهو ملزم بأن يسمع ، ويفتح .

ـ هكـ.. ذا ، الساعة الآن السابعة ـ فكّر الملازم ـ مخزن الأغذية مغلق .

ـ هي دائماً تكون مغلقة... هي تعمل من العاشرة وحتى الخامسة فقط... في بينزا وقفت في الطابور وإذا بالقطار يتحرك! في مورشاتسك مررنا بالمحطة ليلاً ، وفي رياجسك أيضاً في الليل .

ـ أمطار ، أمطار! ـ تشاغل الملازم ـ لن أترك هذا الأمر يمر هكذا! لنر إذن ، ما نستطيع فعله!

قال زوتوف ذلك ، ثم رفع سماعة هاتف العمليات ، فتل الذراع معطياً رنّة واحدة طويلة ، لكن أحدا لم يجب في الطرف المقابل .

عندئذٍ أعطى ثلاث رنات لم يرفع أحد السماعة هناك .

ـ إلى الشيطان! ـ رن ثلاث رنات أخرى ـ أهذا أنت غوسكوف ؟

ـ بلى ، أنا ، أيها الرفيق الملازم .

ـ لماذا لا يجلس أحد من المقاتلين قرب الهاتف ؟

ـ انشغلت قليلاً ، حصلت عل حليب حامض ، إذا رغبتم أحضر لكم منه ، أيها الرفيق الملازم ؟

ـ أية حماقات! لا أريد شيئاً من هذا القبيل!

لم يقل زوتوف ذلك متظاهراً بالعفة أمام ضيفين ، إنما هو دائماً يمنع غوسكوف أن يقدم له شيئاً ، حرصاً على نظافة علاقات العمل ، وإلا فكيف سيطلب منه التقيد بالخدمة . زد على ذلك فزوتوف كان يضع النقيب في صورة انحراف غوسكوف .

ـ غوسكوف! اسمع! المشكلة ، وصلت مجموعة حرّاس ، أربعة خفراء ، وهم لليوم الحادي عشر على التوالي لا يحصلون على أية مخصصات .

ـ وهل هم بهاليل إلى هذه الدرجة!

ـ هذا ما حصل ، المهم يجب علينا تقديم العون لهم . يجب الآن... اسمع ، في كل الأحوال يجب استدعاء تشيتشيشيف وساموروكوف ، لكي يصرفا لكل منهم قسيمة .

ـ وأين سنعثر عليهما! يا له من أمر بسيط

ـ أين! في بيوتهم .

ـ الوحل فظيع يصل إلى الركبة ، لا تستطيع حتى أن تسحب قدمك منه ، وعتم ، كيف...

ـ تشيتشيشيف يعيش قريباً من هنا .

ـ... وساموروكوف ؟! بيته وراء السكة ، ولن يأتي مهما يكن الأمر ، أيها الرفيق الملازم!

ـ لكن المحاسب تشيتشيشيف سيأتي .

كان تشيتشيشيف جندياً من جنود الاحتياط ، علقوا له أربعة مثلثات ،

ولكن أحداً لم ير فيه رجلاً عسكرياً ، بل محاسباً عادياً ، تجاوز عمر الشباب ، متقناً لعمله . وهو لم يكن يستطيع قول أي شيء من دون حاسوبه الخشبي . يسأل كم الساعة ؟ الساعة الخامسة ؟ ويدفع بخمسة أقراص جانباً لكي يفهم . أو أنه يناقش على هذه الصورة إذا كان الانسان وحيداً (ثم يدفع بقرص واحد جانباً!) ، تكون حياته صعبة ، (ثم يدفع بقرص ثانٍ إلى جانب الأول) ، ويجب عليه أن يتزوج .

عندما يجلس تشيتشيشيف وراء طاولة العمل ، معزولاً عن الطابور الهادر الذي يدفع نحوه بالبطاقات ، بشباك مغلق ، وشبك متين ، لا يبقي إلا كوة صغيرة مفتوحة تنحشر فيها الأيدي ، يبدي صرامة كبيرة ، ويصرخ في وجوه المقاتلين ، ويدفع بأيديهم ، ويغلق الكوة كي لا تمرر الريح ، أما حين يكون عليه أن يخرج لمواجهة الطابور مباشرة ، أو حين يتمكن أولئك من اقتحام غرفته ، فإنه ينكمش في الحال ، مخبئاً رأسه الصغير بين كتفيه ، وينادي «يا أخوتي!» ويختم البطاقات .

وتشيتشيشيف هذا سريع في مبادرته لخدمة القيادات ، ولا يجرؤ على رفض طلب لأحد في عرواته مكعبات .

مخزن الأغذية لا يقع تحت إمرة معاون الآمر المناوب ـ فكّر زوتوف ـ ورغم ذلك تشيتشيشيف لن يرفض!

ـ لكن ساموروكوف لن يأتي . أكد غوسكوف رأيه .

كان ساموروكوف رئيس عرفاء المستودع ، لكنه كان ينظر إلى الملازمين نظرة استخفاف . ساموروكوف ذئب كبير معلوف جيداً . إنه ببساطة مخزنجي ، أو كشكاتي في مخزن المؤن ، ولكنه ، مستنداً إلى أربع شارات على كتفه ، يأتي إلى المخزن ، بكل هيبة ، متأخراً ربع ساعة عن

الموعد ، يدقق في رصاصات الإغلاق ، يفتح الأقفال ، يرفع شرفة الكشك ويثبتها على ذراعيها... وكل هذا في هيئة استعراضية ترتسم على وجهه العدائي الكريه .

مهما تزاحم المقاتلون الحمر المستعجلون للحاق بقوافلهم فرادى وجماعات والجرحى والمصابون أمام نافذته ، متسابين ، متصادمين ، محاولين احتلال موضع قدم أقرب إلى النافذة ، فإن ذلك لم يكن يشغل ساموروكوف ، بل كان يرفع كميه عن مرفقيه بهدوء ، معرّياً يديه الثخينتين السجقيتين ، متفحصاً بتعنت دبقٍ أختام تشيتشيشيف على البطاقات التموينية المدعوكة ، الممزقة ، وبعد ذلك كله يقوم بوزن الكميات بمنتهى البطء ـ هو على الأرجح يجحف في الكيل ـ من غير أن يقلقه على الاطلاق مصير المقاتلين ، أيتمكنون من اللحاق بقطاراتهم ، أم يتأخرون عنها .

اختار لنفسه شقة في أطراف البلدة عن قصد ، كي لا يزعجوه خارج أوقات الدوام ، واختار لنفسه صاحبة منزل لديها قطعة أرض وبقرة أيضاً .

تخيل زوتوف ساموروكوف هذا ، وبدأ داخله يغلي . إنه لا يطيق هذا الجنس البشري ، كما لا يطيق الفاشيين ، فلم يكن الخطر الداهم من هؤلاء بأقل . ولم يستطع زوتوف أن يفهم لماذا لا يصدر ستالين أمراً بإعدام هؤلاء الساموروكوفيين ، هنا ، مباشرة على بعد خطوتين من مخزن المؤن ، عند احتشاد المقاتلين .

«لا ، ساموروكوف لن يأتي» أدرك زوتوف ذلك بدوره ، وغاضباً من نفسه ، شاعراً بالضعف أمامه لم يكن ليمسه لولا هؤلاء العجز الذين لم يأكلوا إلا ثلاثة أو خمسة أيام . وهناك أحد عشر يوماً!

ـ اسمع يا غوسكوف ، لا ترسل له جندياً ، بل اذهب إليه بنفسك ، ولا

تقل له إن هناك أربعة مقاتلين جائعين ، بل قل إن النقيب أرسل في طلبه فوراً من خلالي ، أفهمت ؟ دعه يأتي إلى هنا ، إليَّ أنا ، وأنا سأتفاهم معه!

صمت غوسكوف .

ـ ماذا دهاك! لماذا تصمت ؟ ألم تفهم الأمر ؟ قل حاضر ، وانصرف .

ـ ولكن ، هل أنتم سألتم النقيب ؟

ـ هذه ليست مشكلتك . أنا المسؤول عن ذلك! النقيب الآن غير موجود . خرج .

ـ والنقيب لن يأمره بذلك ـ أفتى غوسكوف ـ لا توجد تعليمات تسمح بنزع الرصاصات في الليل ، وإعادتها إلى مكانها من أجل رغيفي خبز ، وثلاث سمكات مخللات .

كانت تلك هي الحقيقة .

ـ وما الداعي لهذه العجالة ؟ ـ تفكّر غوسكوف ـ لينتظروا حتى العاشرة صباحاً . ليلة واحدة! أية مشكلة هذه تنام على جلد بطنك ، وتتغطى بجلد ظهرك .

ـ ولكن ، قطارهم سينطلق الآن... قافلتهم مستعجلة ، ومن المؤسف تأخيرها ، فهم من دون ذلك متأخرون . هناك في مكان ما ينتظرون حمولتهم ، يحتاجون إليها .

ـ إذا كان القطار سيتحرك فلا فائدة . فساموروكوف بطبيعة الحال لن يتمكن من الوصول إلى هنا قبل ساعة ونصف على الأقل ، أو ساعتين ، فالطريق طويل . من جديد ، تبين أن غوسكوف كان محقاً في تفكيره...

أمّا ضيغين ، فقد حاول فاغراً فاه أن يلتصق بسماعة الهاتف ، في قبعته ذات واقيتي الأذنين المدلاتين على جانبي وجهه المسود من سفع الريح ، مستميتاً ليفهم ما يقولونه هناك .

ـ قسائم اليوم ماتت أيضاً . هزّ رأسه ذاهلاً .

تنهد زوتوف خافضاً السماعة عن فيه كيلا يسمع غوسكوف .

ـ ماذا بإمكاننا أن نفعل يا أخي ؟ فاليوم ليس باليد حيلة لفعل شيء . ربما تتابعون سفركم مع القافلة حتى عزيازي ؟ قطاركم جيد ، وفي الصباح ستصلون إلى هناك .

كان يمكن أن يقتنع ضيغين بذلك ، لكنه استشعر ضعفاً في الملازم فأبى .

ـ لن أرحل ، اعتقلوني ، لن أرحل .

هناك من يدق على زجاج الباب . وقف بالباب مواطن ما جسيم ، في قبعة صوفية منقّطة بنقط سوداء ، وأخرى رمادية . رجا على ما يبدو ، منحنياً بأدب أن يؤذن له بالدخول ، لكن الصوت لم يكن مسموعاً هنا .

ـ هيا ، هيا ، ادخلوا! ـ صاح زوتوف ضاغطاً سماعة الهاتف على أذنه ـ لا بأس ، ضع السماعة يا غوسكوف ، سأفكر أنا بالموضوع .

يبدو أن الرجل الواقف وراء الباب لم يفهم في الحال . فتح الباب قليلاً ، وكرر الاستئذان :

ـ أتسمحون بالدخول ؟

أدهش زوتوف صوته الثر ، المنخفض ، المنضبط بنبالة تجعله يخلو من نبرة التباهي .

كان الرجل يرتدي سترة طويلة ، ذات كمين قصيرين ، عسلية اللون ، ثقيلة ، ليست من النموذج العسكري . أما حذاؤه ، فكان واحدة من جزمات الجيش الأحمر . كان يمسك بإحدى يديه بكيس حاجيات عسكري غير كبير تملّح بعرقه ، أما باليد الأخرى فرفع قبعته عند دخوله الغرفة ، وانحنى لهما معاً .

ـ السلام عليكم!

ـ وعليكم السلام .

ـ أخبروني من فضلكم ـ قال بتأدب شديد ، وبشيء من الرفعة ، كما لو أنه كان في هندام راق ، لا في هذه الملابس المضحكة ـ من الآمر العسكري هنا ؟

ـ أنا ، مساعد المناوب . أجابه زوتوف

ـ إذن ، يبدو أن سؤالي عندكم .

بحث عن مكان يضع فيه قبعته المنقطة ، المغبرة كما تبدو ، والملطخة بالهباب ، ولما لم يجد مكاناً ، وضعها تحت مرفق يده الأخرى وضغط عليها . وما أن تحرر من القبعة حتى بدأ يفك أزرار سترته بانشغال . كانت سترته من دون ياقة ، أو بالأحرى ، كانت هناك قبلاً ياقة ونزعت فيما بعد ، أما الآن ، فكان شال صوفي دافئ يلف عنقه العاري .

ما أن انتهى من فك أزرار سترته ، حتى صار يحل أزرار قميصه العسكري ، الذي بهت لونه بشدة تحت أشعة الشمس ، ثم راح يفتح جيب القميص

ـ انتظروا ، انتظروا ـ أشاح بيده ـ على أية حال... ـ ضيّق عينيه ، ناظراً

إلى وجه ضيغين المتجهّم ـ سأفعل ما هو تحت سلطتي تماماً ، من أجلك ، سأفصل عربتكم عن القطار الآن ، وستنطلقون غداً في العاشرة صباحاً...

ـ شكراً . قال ضيغين ناظراً نحوه بعينين محتقنتين .

ـ أي شكر! عموماً هذا غير مسموح به . كنت تسافر مع قطار ممتاز ، أما الآن فمع أي قطار سيقطرونكم ، لست أدري .

ـ نحن نتجرجر في الطريق منذ أسبوعين . يوم زائد ، يوم ناقص!... ـ تنشط ضيغين ـ أنا أرى ما هي بضاعتي .

ـ لا ، لا ـ رفع زوتوف سبابته وهزها ـ لا يحق لك ، ولا لي أن نحكم على ذلك . تلفت نحو الغريب ، ثم دنا من ضيغين حتى التصق به ، وقال له ما يصعب فهمه ، بيد أن وأوأته كانت واضحة :

ـ ما دمت ترى بضاعتك جيداً ، إذن تبصَّر! واعلم كم يمكن أن تخدم معاولك هذه ؟ فرقتين! النزول في الحفرة يعني حماية الحياة . عشرون ألف معول ، هذا يعني عشرين ألفاً من حيوات الجيش الأحمر ، أتعي ذلك ؟

ومن جديد تلَفت زوتوف صوب الغريب . ففهم الأخير أن وجوده هنا مزعج ، لذلك تنحى جانباً في مكان قرب الجدار ، مديراً ظهره نحوهما ، وراح يغطي بيده الحرة أذنيه بالدور . هو لم يكن يغطيهما بل يدفئهما .

ـ ماذا بهما ؟ هل تصقعتا ؟

ضحك زوتوف ساخراً بصوت مرتفع . فنظر الغريب نحوه ترتسم على وجهه ابتسامة :

ـ أنتم تعرفون كم اشتد البرد . الريح مجنونة ، ورطبة .

أجل لقد صفرت الريح وهي تصفع زواية المبنى ، وصرّ الزجاج غير الممعجن في النافذة اليمنى وراء الستارة . وعاد الماء يخرخر في المزراب من جديد .

كانت ابتسامة غريب الأطوار ، غير حليق الذقن ، هذا بالغة العذوبة ، تلطّف الروح . شعر رأسه لم يكن محلوقاً على الصفر . كان شعره قصيراً ، غير كث . وكان هذا الشعر الخفيف يغطي رأسه الكبير ، ويبدو رمادياً ، وقد خطه الشيب .

لم يكن يشبه لا مقاتلاً ، ولا مواطناً مدنياً .

ـ هذه هي ـ أمسكت أصابعه بورقة ما معدّة ـ هذه ورقتي...

ـ الآن ، الآن ـ أخذ زوتوف ورقته دون أن ينظر إليه ـ.. اجلسوا هنا . هنا على هذا الكرسي يمكنكم الجلوس ـ نظر زوتوف ثانية إلى لباسه الهزلي ، وعاد إلى طاولته . جمع الوثائق والشيفرات ، وأغلق عليها الخزانة ، بعدئذٍ أومأ برأسه لضيفين ، وذهب برفقته إلى مسؤولة الحركة .

كانت تحاول إثبات أمر ما بالهاتف ، وكانت العمة فروسيا مقرفصة قرب الموقد تجفف نفسها . اقترب زوتوف من بودشيبياكينا ، وأمسك بيدها ، باليد التي تمسك بسماعة الهاتف .

ـ ڤاليوشا...

التفتت الفتاة منتشية ، ونظرت إليه نظرة دلع ، لكم بدا لها لطيفاً أن يمسك بيدها . تابعت حديثها في الهاتف :

ـ أما الألف واثنان ، فبدأ يعبر المحطة ، ليس لنا عليه شيئاً . أرسله إلى تامبوف ، يا بيتروڤيتش!...

ـ ڤاليتشكا! أرسلي العمة فروسيا بسرعة إما إلى مجدولي الحركة ، أو إلى منسقي القطارات لتريهم تلك العربات الأربع . ها هو العريف سيذهب معها إلى هناك . دعيهم يفصلونها عن القطار ، ويحشرونها في مكان ما خارج السكة ، حتى الصباح .

التفتت العمة فروسيا من قرفصائها ، بوجهها الكبير صوب الملازم ، ومطت شفتيها .

ـ حسناً ، يا ڤاسيل ڤاسيليتش . ابتسمت ڤاليا ، وبقيت ممسكة بسماعة الهاتف دون الحاجة إلى ذلك ، حتى رفع زوتوف أصابعه عن يدها .

ـ سأرسلها الآن .

ـ أمّا ذلك القطار ، فحاولي ربطه بأول قاطرة ، حسناً...

ـ حسناً ، يا ڤاسيل ڤاسيليتش . ابتسمت ڤاليا فرحة .

ـ خلصنا إذن! . أعلن الملازم لضيغين .

زفرت العمة فروسيا كمنفاخ الحداد ، تأوهت ، وانتصبت .

رفع ضيغين يده إلى فوده وثبتها هناك مؤدياً التحية . أذناه كانتا منتصبتين ، مدفوعتين إلى الأمام بواقيتين مدلاتين من قبعته . لم يكن فيه أي شيء له علاقة بالعسكر .

ـ كأنك لتوك دُعيت إلى الخدمة ؟ من العمال على الأرجح ؟

ـ أجل .

نظر ضيغين بثبات ، نظرة امتنان إلى الملازم .

ـ ثبت شارتك ـ أمره زوتوف ـ في العروة الفارغة .

ـ لا أستطيع ، لقد انكسرت

ـ والقبعة ، إما اربط أذنيها ، أوضبهما ؟

ـ كيف تُضب ؟

ـ كشرت العمة فروسيا ، التي انتهت في هذه الأثناء من ارتداء معطفها

ـ هيا بنا يا عزيزي!

ـ ليست مشكلة ، بالتوفيق! غداً سيكون هنا ملازم آخر ، اضغط عليه من أجل أن يسفّركم .

عاد زوتوف إلى غرفته . أغلق الباب وراءه . هو نفسه منذ أربعة أشهر خلت لم يكن يعرف كيف يشد حزامه ، وبدا له آنذاك رفع اليد لأداء التحية عملاً أخرق ، مثيراً للضحك بشكل خاص .

عند دخول زوتوف إلى الغرفة لم يقف الضيف الجالس على الكرسي ، بل قام بحركة معبّراً عن استعداده للوقوف ، فيما لو كان ذلك ضرورياً . رقد الآن على أرض الغرفة قربه كيس حاجياته ، تعلوه قبعته ذات النقط الناعمة .

ـ اجلسوا ، اجلسوا ـ جلس زوتوف على كرسيه وراء الطاولة ـ هاتوا ، ما المشكلة ؟

قلب الورقة

ـ أنا... تأخرت عن قافلتي...

قال ذلك مبتسماً ابتسامة المذنب .

قرأ زوتوف الورقة . كانت ورقة إلحاق من الآمر العسكري في رياجسك ، بينما كان يقرأ الورقة راح يطرح على الغريب أسئلة اختبارية ، متلفتاً بين الفينة والأخرى صوبه :

ـ ما هي كنيتكم ؟

ـ تڤيريتيوف

ـ وما اسمكم ؟

ـ إيفور ديمينتيڤيتش .

ـ عمركم تجاوز الخمسين ؟

ـ لا ، تسع وأربعون .

ـ ما الرقم الذي كان يحمله قطاركم ؟

ـ لا أملك عن ذلك أدنى فكرة .

ـ كيف! ألم يعلموكم بالأرقام ؟

ـ لا

ـ إذن ، لماذا هو مكتوب هنا ؟ أنتم ذكرتموه ؟ (كان الرقم هو ٢٤٥٤١٣ رقم قطار أرتشيدينسك ، الذي رحّله زوتوف ليلة البارحة) .

ـ لا ، أنا فقط حكيت لهم في رياجسك عن خط سيره من أين وإلى أين تحرك ، والآمر هناك خمّن على الأغلب في أي قطار كنت .

ـ أين تخلفتم عنه ؟

ـ في سكوبينو .

ـ كيف حصل ذلك ؟

ـ بصراحة... ـ حركّت الابتسامة المتأسفة شفتي تڤيريتينوف الغليظتين ـ ذهبت لأبدل ببعض ما أملك من أشياء ما يمكن أكله... فذهب القطار... الآن صارت القطارات تنطلق بهدوء بلا زمامير ، بلا أجراس ، بلا إعلان في إذاعة المحطة .

ـ متى تم ذلك ؟

ـ أول البارحة .

ـ ولا تستطيعون اللحاق به ؟

ـ على ما يبدو لا . وبماذا ألحق به ؟ المطر متواصل ، وعلى العربات المكشوفة هبوب الريح فظيع ، أضف إلى أن الحراس لا يسمحون بالوقوف هناك ، ولا يأذنون لك بالولوج إلى داخل العربات في الوقت نفسه ، إما لأنهم لا يسمحون لهم بذلك ، أو لأنه لا مكان لديهم . رأيت ذات مرّة قطار ركاب ، كان قطاراً رائعاً ، وكان مراقبو التذاكر يقفون على سلالم العربات أزواجاً ، ويدفعون الناس من صدورهم كي لا يتعلقوا بقبضات الأبواب .

أما قطارات شحن البضائع ، فعندما تتحرك يكون قد فات أوان الركوب وعندما تقف على السكة من دون رأس جر ، لا تستطيع التخمين في أي اتجاه ستنطلق . لم تلصق عليها لوحات لماعة (موسكو ـ المياه المعدنية) ولا تستطيع أن تسأل أحداً عن أي شيء ، يظنونك جاسوساً ، ناهيك عن ملابسي الغريبة... عموماً طرح الأسئلة عندنا خطير .

ـ في زمن الحرب ، طبعاً .

ـ ليس فقط ، بل وقبل الحرب أيضاً

ـ لم ألاحظ ذلك .

ـ أجل ، بدأ ذلك ـ زمّ تقير يتينوف عينيه ـ بعد عام سبعة وثلاثين .

ـ ما... ذا يعني سبعة وثلاثين ؟ ـ استغرب زوتوف ـ ما الذي حصل في عام سبعة وثلاثين ؟ الحرب الاسبانية ؟

ـ لا ، طبعاً...

ومع تلك الابتسامة المذنبة أطرق تڤيريتينوف رأسه ، تدلى شاله الرمادي الفضفاض أمام صدر سترته المفتوح ، وتأرجح أسفل زناره .

ـ ولماذا لستم في الزي العسكري النظامي ؟ أين معطفكم العسكري ؟

ـ لم يبق لديهم معطفٌ لاستلمه ، لم يسلموني... ابتسم تڤيريتينوڤ .

ـ ومن أين لكم هذه السترة ؟

ـ الناس الطيبون أعطوني أياها

ـ إم م م ـ فكّر زوتوف ـ هكذا إذن ، عموماً يمكن القول بأنكم رغم ذلك سافرتم بسرعة ، فمساء البارحة كنتم عند آمر ريجسك ، ومساء اليوم وصلتم إلى هنا ، فكيف وصلتم إلى هنا ؟

نظر تڤيريتينوڤ إلى زوتوف بعينيه الكبيرتين ، الطيبتين ، الصدوقتين . كانت طريقة حديثه تريح زوتوف على غير العادة . وكذلك طريقته بالتوقف عن الكلام إذا بدا له أن محاوره ينوي الاعتراض ، وطريقته بإيضاح ما يريد بحركات بسيطة من أصابعه ، من دون أن يؤشر بيديه .

ـ لقد حالفني الحظ للغاية . انتقلت إلى إحدى المحطات في « نصف عربة »... كما ترون في هذين اليومين صرت أفهم بمصطلحات السكك الحديد ، « نصف عربة » ، كنت أظن أنه يجب أن يكون فيها شيء ما من العربة ولو نصف سقف . صعدت السلّم إلى هناك ، وإذا بي أرى حفرة حديدية لا أكثر ، أشبه بمصيدة ، الجلوس فيها غير ممكن ، والاستناد غير ممكن أيضاً . كانوا نقلوا فيها فحماً ، وأثناء الطريق راح الغبار الأسود يرتفع ، ويزوبع ، ويدور مع حركة القطار ، وفوق كل هذا بدأ المطر بالهطول .

ـ هكذا ، وبماذا يكون قد حالفكم الحظ ، إذن ؟ ـ قهقه زوتوف ـ لست أفهم ، فها أنتم مرّغتم ملابسكم .

عندما ضحك ارتسم اخدودان طيبان ضاحكان على جانبي شفتيه حتى أرنبة أنفه العريض .

ـ حالفني الحظ... فما أن نزلت من نصف العربة تلك ، ونفضت عني غبار الفحم ، واغتسلت ، حتى رأيتهم يربطون أحد قطارات الجنوب برأس جر .

ركضت على طول القطار ، ولكن لم تكن هناك أية عربة ركاب . وكانت الأبواب كلها مقفلة ، ومرصصة . . فجأة من حيث لا أدري ظهر أحد الأشخاص في باب إحدى العربات ، وقف لأمر ما ثم ولج في العربة المفتوحة الباردة ، لحقت به... وهناك تصوروا السعادة ـ عربة ملآنة بأغطية قطنية دافئة!

ـ وغير مرصصة ؟!

ـ لا! عدا عن ذلك كانت قبلاً على ما يبدو مضبوبة في رزم من عشرة أو خمسة لحف ، أما الآن فكثير من الرزم مفكوك ، وما أحلى التكّور بينها ، والتدثر بها . كان هناك عدة أشخاص نائمين .

ـ آي ياي ياي!

ـ لففت نفسي بثلاثة ، أربعة لحف ، ونمت لا أحلى ولا أريح يوماً بليلة كطرفة عين! لم أكن أشعر بشيء أكان القطار يقف أم يمشي... خاصّة وأنني لليوم الثالث على التوالي من دون طعام . نمت... ونمت ، فنسيت الحرب كلها ، والحصار... ورأيت أقربائي في المنام...

أشرق وجهه المجعد ، غير الحليق .

ـ توقف! ـ نهض زوتوف عن كرسيه منتفضاً كمن تذكر فجأة أمراً ـ يعني في ذلك القطار... أنتم جئتم إلى هنا... متى وصلتم ؟

ـ منذ دقائق عدة... ؟ أتيت فوراً لمراجعتكم .

اندفع زوتوف باتجاه الباب . فتحة بعنف ، وقفز خارجاً :

ـ ڤاليا! يا ڤاليا! انظري ، ، ذاك القطار العابر إلى بالاشوف ، رقم ألف و... لا أدري كم...

ـ ألف واثنان

ـ أما زال هنا في المحطة ؟

ـ لا ، رحل .

ـ أمتأكدة ؟

ـ أجل .

ـ آخ ، اللعنة!! ـ أمسك زوتوف برأسه ضاغطاً عليه ـ نجلس هنا بيرقراطيون لعينون ، نقلّب الأوراق ، ولا نرى شيئاً . الخبز الذي نأكله حرام علينا! هيا اتصلي بمحطة أورالسكي ـ ميتشورينسك!

ثم رجع ركضاً إلى غرفته وسأل تڤيريتينوڤ :

ـ وهل تذكرون رقم العربة ؟

ـ لا . ابتسم تڤيريتينوڤ

ـ عربة مائتين ، أم أربعمائة ؟

ـ لا أفهم شيئاً مما تقولون...

ـ كيف لا تفهمون! عربة صغيرة ، أم كبيرة ؟ كم طن ؟

ـ كما كانوا يقولون في الحرب الأهلية «أربعون انسان ، ثماني خيول»

ـ يعني ، ستون طناً . ولم يكن هناك حراس ؟

ـ على ما يبدو لا .

ـ ڤاسيل ڤاسيليتش! ـ نادت ڤاليا ـ مسؤول الحركة العسكري معكم على الخط... أتريدون الآمر ؟

ـ أو غير الآمر... ربما تكون الحمولة غير عسكرية .

ـ إذن ، اسمحوا لي أن أستوضح الأمر بنفسي ؟

ـ استوضحي يا ڤاليشكا! ربما تكون هذه الأغطية مرحّلة من المناطق المحاصره . الشيطان يعرف ماذا دهاهم . دعيهم يتفقدون جميع العربات بانتباه ، ويجدون تلك العربة ، ويحددون ملكية الحمولة ، ويوثقونها ، ويرصصونها... قصارى الكلام عليهم أن يحلّوا المشكلة .

ـ حسناً ، يا ڤاسيل ڤاسيليتش .

ـ لو سمحت ڤاليتشكا ، لو سمحت افعلي ، فأنت عاملة جد مهّمة!

ابتسمت له ڤاليا . غطت جدائلها جل وجهها .

ـ آلو! ميتشورينسك ، أورالسكي!...

أغلق زوتوف الباب . وتحرك في غرفته قلقاً ، ضارباً كفاً بالآخر

ـ الأعمال كثيرة ، لا يمكن الاحاطة بها ، وأوأ زوتوف ـ ولا يعيّنون مساعداً!... هذه الأغطية يمكن أن تسرق ، وربما كان هناك نقص فيها الآن .

تابع زوتوف رواحه ومجيئه بعض الوقت ، ثم جلس . رفع نظارته عن عينيه . ومسحها بخرقة ، فقد وجهه حالاً هيئته العملية ، وبداهته ، وصار وجهاً طفولياً تحميه سدارة خضراء فقط .

انتظر تڤيريتينوف بأناة . مسح بنظرة منقبضة ستارة التمويه ، والصورة الملونة لكاغانوڤيتش في بزة مارشال السكك الحديدية ، والموقد ، والدلو ، والمغرفة . بدأت سترته المعفّرة بهباب الفحم تثقل عليه في هذه الغرفة المدفأة ، فأزاحها قليلاً عن كتفيه ، ورفع الشال عن عنقه .

أعاد الملازم لبس نظارته ، وحدق من جديد في ورقة الالحاق .

ورقة الالحاق في الواقع ليست وثيقة رسمية ، فهي مكتوبة بناء على معلومات صرّح بها طالبها ، يمكن أن تحتوي الحقيقة ، ويمكن أن تتضمن الكذب .

كانت التعليمات تقتضي التعامل مع القادمين من المناطق المحاصرة بمنتهى التدقيق ، وخاصة للفرادى منهم .

لم يستطع تڤيريتينوف أن يثبت أنه تخلف عن القطار في سكوبينو فعلاً . فربما يكون ذلك قد حصل في باڤيلتس ؟ وربما يكون قد سافر في هذه الأثناء إلى موسكو وعاد ، أو إلى أي مكان آخر بمهمة ما من تلك المهمات ؟

إنما وصوله السريع إلى هنا يصب في صالحه .

ولكن ، من يضمن أنه كان ، فعلاً ، في ذلك القطار ؟

- إذن ، فقد كان الطريق دافئاً إلى هنا ؟

- طبعاً ، وكم كان يسرني لو أتابع سفري فيه .

ـ ولماذا نزلتم هنا إذن ؟

ـ لكي أعرض نفسي عليكم . هذا ما أمروني به في رياجسك .

كانت ملامح رأس تڤيريتينوف الكبير بارزة الجبهة عريضة ، والجبين عالياً ، والحاجبان كثين وغليظين ، والأنف كبيراً ، أما الذقن والخدان فقد غطّاهما شعر قصير مشوب بالبياض .

ـ وكيف عرفتم أن هذه المحطة هي محطة كوتشيتوفكا ؟

ـ أخبرني واحد جورجي ، كان ينام قربي في العربة .

ـ عسكري ؟ ما هي رتبته ؟

ـ لا أعرف ، لم يظهر سوى رأسه من بين الأغطية .

صار تڤيريتينوف يجيب عن الأسئلة بكآبة . كما لو أنه كان يفقد شيئاً ما مع كل كلمة يقولها .

ـ هكذا إذن ــ أودع زوتوف ورقة إلحاق تڤيريتينوف جانباً ــ وهل لديكم وثائق أخرى ؟

ـ لا ، ليس لدي ـ ابتسم تڤيريتينوف بحزن ـ ومن أين لي بالوثائق ؟

ـ إم م... آ... ولا أية وثيقة ؟

ـ عندما حوصرنا أتلفنا كل وثائقنا عن قصد .

ـ ولكن الآن ، عندما استقبلوكم هنا على الأرض السوڤيتية كان يجب أن يزودوكم بوثيقة ما ؟

ـ لا شيء من هذا القبيل . نظمّوا قوائم باسمائنا ، ووزّعونا في مجموعات من أربعين شخصاً ، ورحّلونا .

وفعلاً ، هذا ما كان يجب أن يتم . مادام الواحد لم يتخلف فهو عضو الأربعين ، ولا حاجة به إلى الوثائق . لكن زوتوف كان يتمنى لو يستطيع تدعيم ميله اللا شعوري تجاه هذا الشخص المهذب ، ذي الرأس الجدير بالاحترام ، بوثائق رسمية :

ـ ولكن شيئاً ما على الأقل! شيئاً ما مكتوباً... ألم يبق في جيوبكم أي شيء ؟

ـ ليس سوى صورة... صورة للعائلة .

ـ أرني!

لم يقل الملازم ذلك مطالباً بل راجياً .

ارتفع حاجبا تڤيريتينوف قليلاً ، وابتسم تلك الابتسامة الحائرة ، تلك التي لا تستطيع أن تعبّر عن ذاتها ، وأخرج من ذلك الجيب ذاته في قميصه العسكري ـ لم يكن الجيب الثاني يزرر ، لم يكن هناك زر ـ ورقة برتقالية اللون ، ثخينة ، مطويّة .

فتح طياتها على ركبتيه ، وأخرج منها صورتين قياس ٩ × ١٢ سم ونظر إلى أولاهما ، ثم إلى الثانية . نهض بعد ذلك كي يسلم الصورتين للملازم . لكن الكرسي الذي كان يجلس عليه لم يكن بعيداً عن طاولة المكتب ، فانحنى زوتوف ماداً يده وتسلم هاتين الصورتين .

صار زوتوف يتملاهما ، بينما بقي تڤيريتينوف ممسكاً بورقة الصور المفتوحة على ركبتيه . ثم عدل جلسته محاولاً بدوره النظر من بعيد .

في إحدى الصورتين ، في حديقة صغيرة ، في أحد الأيام المشمسة ، من أيام الربيع ، أغلب الظن ، فالأوراق الخضراء ما تزال

تبدو صغيرة ، وقلوب الأشجار تطل من خلالها ، وقفت فتاة في الرابعة عشرة من عمرها في فستان رمادي مخطط يطوق خصرها زنار ، يخرج من ياقته المفتوحة عنق نحيل طويل ، ووجه متطاول رقيق ، ومع أن هذا الوجه لم يكن يتحرك على ورقة الصورة ، إلا أنه مع هذا كان يبدو مجفلاً ، مترقباً .

كل ما في هذه الصورة كان يوحي بشيء ما لم يكتمل بعد ، لم يتوضح بعد ، لذلك بدت غير مفرحة ، تثير الانقباض .

ما أشد ما أثارت الفتاة إعجاب زوتوف ، فتهدلت شفتاه .

ـ ما اسمها ؟ . سأل الملازم بصوت منخفض .

جلس تڤيريتينوف مغمض العينين .

ـ ليااليا ـ أجابه بصوت أخفض من صوته ، ثم فتح عينيه ، وعدّل جلسته ـ إيرينا .

ـ متى التقطت الصورة ؟

ـ في هذا العام .

ـ أين ؟

ـ في ضواحي موسكو .

نصف عام! نصف عام مضى على تلك اللحظة مذ قالوا : «ليالينكا! انظري إلى هنا» وضغطوا زر آلة التصوير . ولكن منذ ذلك الحين أطلقت عشرات آلاف السبطانات نيران قذائفها ، واندفعت ملايين النافورات الترابية السوداء من الأرض ، ودار ملايين البشر في تلك الدوّامة اللعينة ، منهم من

جاء ماشياً من ليتوانيا ، ومنهم من جاء راكباً من يركوتسك . والآن ، الآن في هذه المحطة ، حيث الريح الباردة تهب محمّلة بمزيج من ماء المطر والثلج ، حيث القوافل أضناها الانتظار ، حيث الناس يتزاحمون نهاراً بلا معنى ، ويفترشون الأرض السوداء بملابسهم في سواد الليل... هنا ، كيف لك أن تصدّق بأنه في مكان ما في العالم مثل هذه الحديقة ، وهذه الفتاة ، وهذا الفستان ؟!

في الصورة الثانية جلست امرأة ، بجانبها صبي ، على أريكة يقلّبان صفحات كتاب كبير تغطيها الصور . الأم كانت ، أيضاً ، نحيفة ، رقيقة ، وعلى الأرجح ، طويلة ، والصبي الذي معها بسبع سنوات من العمر ، وبوجه مكنوز ، ينظر نظرة فطنة ذكية ، ليس إلى الكتاب ، بل إلى أمه التي توضح له شيئاً ما هناك . كانت عيناه كبيرتين كعيني أبيه .

في الحقيقة ، كان جميع أفراد هذه العائلة يبدون لزوتوف من صفوة المجتمع . لم يكتب لزوتوف أن يكون في حضرة عائلات كهذه في يوم من الأيام ، لكن ومضات لها تعيش في ذاكرته ، أكان ذلك في صالة تريتكوفسكي* ، أم في المسرح ، أم في الكتب التي قرأها... ومضات ، رسخت غلساً في ذهنه عن عائلات من هذا القبيل حضرت الآن .

نفح الدفء المنزلي ، والذكاء من هاتين الصورتين في وجه زوتوف .

لاحظ وهو يعيدهما إلى تڤيريتينوف :

ـ أنتم تشعرون بالحر على ما يبدو ، خففوا ملابسكم .

---

* صالة تريتكوفسكي : واحد من أهم المراكز العلمية الفنيّة والثقافية في روسيا . متحف الفن الروسي والسوڤيتي أسسه پ . م . تريتيكوڤ عام ١٨٥٦ كصالة ثم أهداه لموسكو عام ١٨٩٢م .

ـ بلى . وافقه تـﭬيريتينوف ، وخلع السترة ، ووقف محتاراً لا يدري أين يذهب بها .

ـ هناك على الأريكة . أومأ له زوتوف ، حتى إنه قام بحركة ليضعها بنفسه هناك .

الآن ، لم يعد هناك ما يستر الرقع ، والمزق ، في قميصه العسكري ، فبانت بجلاء ، وتعرت ، مثلها ، أزراره التي يختلف واحدها عن الآخر ، وبات واضحاً عدم إتقانه لاستخدام لفافات القدمين ، فلقد انحلت أطرافها وتهدّلت .

كانت هذه الملابس كلها تبدو كأنها تهزأ برأسه الأشيب الكبير .

لم يعد زوتوف يخفي ارتياحه لهذا الرجل المتزن ، الذي أعجبه ، ليس عن عبث ، في الحال .

ـ ما هو اختصاصكم ؟ سأل زوتوف باحترام .

وفيما كان تـﭬيريتينوف يضب الصورتين ، أجاب متضاحكاً بحزن :

ـ ممثل .

ـ أوو ؟ ـ تعجّب زوتوف ـ كيف لم أحزر في الحال! أنتم ، فعلاً ، تشبهون الممثل جداً!...

الآن بالذات ، هو أبعد ما يكون عن أن يشبهه!

ـ حائز على لقب الجدارة على الأغلب ؟

ـ لا

ـ وأين مثلتم ؟

ـ في مسرح الدراما ، في موسكو .

ـ في موسكو ، مرّة واحدة كنت هناك ، في مسرح موسكو الأكاديمي للفنون ، كنا في رحلة . أمّا في مدينة إيڤانوف ، فأتواجد كثيراً .

هل رأيتم مسرح إيڤانوفسكي الجديد ؟

ـ لا

من الخارج ليس فيه ما يلفت الانتباه ، صندوق رمادي من الاسمنت المسلّح ، أما في الداخل ، فهو رائع! كم كنت أحب زيارة المسرح . هذه ليست تسلية فقط ، بل يمكن في المسرح أن تتعلم أيضاً ، ألست محقاً ؟...

كانت وثائق القافلة المحروقة تصيح به أن يدقق فيها ، وهذا عمل يحتاج إلى يومين كاملين على الأقل ، إنما من الممتع التعرف إلى ممثل كبير ، والتحدث معه ساعة من الزمن!

ـ أية أدوار لعبتم ؟

ـ أدوار كثيرة ـ ابتسم تڤيريتينوف ابتسامة فاترة ـ لعبتها على مدى عدة سنوات ، لا يمكنني تذكرها الآن .

ـ مهما يكن ؟ على سبيل المثال ؟

ـ مثلاً... العقيد ڤيرشينين... الدكتور رانك...

ـ إِهِمْ... إِهِمْ... ـ لم يتذكر زوتوف مثل هذه الأدوار ـ وفي مسرحيات غوركي ألم تمثلوا ؟

ـ طبعاً ، بالتأكيد .

ـ أنا أكثر ما أحب مسرحيات غوركي ، وعموماً غوركي! إنه الأكثر

ذكاء ، والأكثر إنسانية ، وهو أكبر كاتب لدينا . ألستم توافقونني القول ؟

ـ راح حاجبا تڤيريتينوف يتحركان بحثاً عن إجابة ، بيد أنهما لم يجدا فالتزم الصمت .

ـ يبدو لي أنني أعرف حتى كنيتكم . ألستم حائزون على وسام الجدارة ؟

احمر زوتوف قليلاً من لذة الحديث .

ـ لو كنت أحمل وسام الجدارة ـ أشاح تڤيريتينوف بيده قليلاً ـ لما كنت ، الآن ، هنا ، على الأرجح .

ـ لماذا ؟... آ... فعلاً ، ما كانوا عبؤوكم في الجيش .

ـ ونحن أيضاً لم يعبئونا ، نحن التحقنا بمحض إرادتنا بالدفاع المدني

ـ هكذا إذن ، التحقتم طوعاً ، أنتم على الأغلب تحملون الجدارة ؟

ـ الجميع تطوعوا بدءاً من أكبر المخرجين ، وحتى أصغر الممثلين... لكن واحداً ما وضع خطاً فاصلاً ، وهكذا من كان اسمه أعلى الخط بقي ، ومن كان أسفله ذهب

ـ وهل أخضعوكم للتدريب العسكري ؟

ـ أياماً معدودة . تدربنا بالعصي على القتال بالسلاح الأبيض ، وكيف نرمي قنابل يدوية من الخشب .

حدقت عينا تڤيريتينوف في نقطة ما في أرض الغرفة ، بثبات ، حتى كأنهما صارتا إلى زجاج .

ـ ولكن ، بعد ذلك سلّحوكم ؟

ـ أجل ، أثناء المسير ، زودونا ببنادق من نموذج سنة ٩١ . قطعنا المسافة مشياً على أقدامنا حتى وصلنا إلى فيازما وهناك ، في ضواحي فيازما وقعنا في الحصار .

ـ وهل قتل كثيرون ؟

ـ أظن ذلك ، إنما الأغلبية وقعوا في الأسر . فقط ، مجموعة صغيرة منّا انضمت إلى المقاتلين المحاصرين ، وهؤلاء تولوا أمر إخراجنا من هناك . حتى إنني الآن لا أستطيع أن أتصور أين تكون الجبهة! هل لديكم خارطة ؟

ـ لا يوجد خارطة . الأخبار غامضة ، ولكنني أستطيع أن أقول لكم الآتي : سيفاستوبول مع القليل لنا ، تاغانورغ معنا ، دوبناس تحت سيطرتنا ، أما أوريول وكورسك ، فمحتلتان...

ـ أوي ، أوي ، أوي ، وحوالي موسكو ؟

ـ الأمر غامض خاصّة في ضواحي موسكو ، أما لينينغراد فقد اقتطعت تماماً .

تقطب جبين زوتوف ، وانكمشت هالتا عينيه من المرارة :

ـ وأنا لا أستطيع أن أكون في الجبهة!

ـ ستشاركون

ـ فعلاً ، الحرب على هذه الشاكلة لن تنتهي في عام واحد .

ـ هل كنتم طلاباً ؟

ـ أجل ، في الواقع ، نحن ناقشنا اطروحات التخرج في أول أيام الحرب... وأية مناقشة تلك!... كان علينا أن ننهي الأطروحة في كانون الأول ،

وإذا بهم يبلغوننا : ليحضر كل منكم ما لديه من أوراق ومسودات ولا بأس ـ استسلم زوتوف لمتعة الحديث واسترخى ، وراح يقص كل ما لديه دفعة واحدة ـ كنا طوال خمس سنوات نحاول الانتساب إلى المعهد . كان فرانكو قد أعلن التمرد! وبعد ذلك سلّمت النمسا! وتشيكوسلوفاكيا! وهنا بدأت الحرب العالمية! وكذلك الحرب الفنلندية! وهجوم هتلر على فرنسا واليونان ويوغوسلافيا... فبأية روح كان يمكن أن ندرس ماكينات الحياكة! ؟

بعد الحصول على شهادات التخرج ، ارسلوا الخريجين ، في الحال ، لاتباع دورات في أكاديمية المكننة ، أما أنا فتخلفت بسبب عينيّ ، عندي قصر شديد في النظر . رحت أطرق باب شعبة التجنيد كل يوم فقد كانت لدي خبرة من عام ١٩٣٧... والشيء الوحيد الذي حققته كان الحصول على إحالة إلى أكاديمية التموين . لا بأس ، حملت هذه الاحالة ورحلت بها إلى موسكو ، ذهبت إلى القوميسارية الشعبية للدفاع . حصلت على إذن بمقابلة أحد العمداء العجائز . كان مسرعاً للغاية ، وكان قد انتهى من ترتيب حقيبته . قلت له : أنا مهندس ، ولا أريد أن أبقى في التموين . «أرني الشهادة!» ولكنني لم أكن أحمل شهادتي... «لا بأس ، سأطرح عليك سؤالاً واحداً ، وإذا أجبت عنه ، تكون مهندساً بالفعل ، ماذا تعني التربيعة ؟ »

أجبته بانضباط : آلة مركبة على محور الدواليب لتحويل الحركة... شطب عن الإحالة عبارة إلى أكاديمية التموين ، وكتب بدلاً منها «إلى أكاديمية النقل» وخرج مسرعاً مع حقيبته . شعرت بالظفر . وصلت إلى أكاديمية النقل ، لم يكن هناك طلاب . كانت هناك دورة أمراء عسكريين فقط . لم تعنّي في شيء تلك التربيعة!

كان ڤاسيا يعرف أن الوقت الآن ليس وقت الثرثرة ، والذكريات ،

ولكن ما أقل تلك الفرص ، حين يكون أمامك إنسان مثقف ، مصغٍ تستطيع معه أن تزيل العبء عن روحك .

ـ أنتم ، على الأغلب تدخنون ؟ ـ استدرك ڤاسيا ـ تدخنون! ، آ... تفضلوا... ـ نظر بطرف عينه إلى ورقة الإلحاق ـــ إيغور ديمينيتڤيتش ، إليكم بدخان ، وورق لف... هذه مخصصاتي ، ولكنني لا أدخن .

أخرج زوتوف من الكيس قبضة تبغ خفيف ، بالكاد لمستها يد ، ومدّها باتجاه إيغور ديمينتيڤيتش .

ـ أُدخن ، أجل ـ اعترف إيغور ديمنتيڤيتش ، وانفرجت أساريره من لذة ذلك المنظر . نهض قليلاً وانحنى فوق التبغ . لم يباشر في الحال لفَّ سيجارة منه ، بل راح يعبّ قبل كل شيء روح التبغ مستنشقاً بعمق ، وبدا كأنه يصدر الأنين . بعد ذلك قرأ اسم ماركة التبغ ، وفتل رأسه ـ تبغ أرمني...

لف سيجارة ثخينة ، لصقها بلسانه ، وهناك أشعل ڤاسيا عود ثقاب كان قد هيأه له .

ـ بين الأغطية القطنية ، لا أحد يدخن ، أليس كذلك ؟ استخبر ڤاسيا .

ـ لم ألاحظ ـ قالها إيغور ديمنتيڤيتش ، مستنداً إلى خلف ، مغتبطاً ـ لم يكن لدى أحد تبغ على الأرجح .

ـ كان يسحب الدخان بعينين نصف مغمضتين .

ـ وما الذي ذكّركم بعام سبعة وثلاثين ؟ تساءل فحسب .

ـ أنتم تذكرون ، بالطبع ، الوضع في تلك السنوات! ـ تحدّث ڤاسيا بحميّة ـ اندلاع الحرب الاسبانية! الفاشيون في المدينة الجامعية ، الألوية الأممية ـ ألوية غوادلاخار ، وخارام ، وتيروئيل...

من أين تأتيك الراحة! نطالبهم أن يعلّمونا الاسبانية ، لا ، بل يعلموننا الألمانية . أحصل على كتاب لتعلّم اللغة ، وقاموس . أهمل وظائفي وامتحاناتي ، وأتعلم الاسبانية . يشعرني الموقف كُلّه بأننا نشارك في الأحداث هناك ، أضف إلى أن ضميرنا الثوري لا يسمح لنا بالتنحي جانباً! ولكنهم في الصحف لا يذكرون شيئاً . كيف أستطيع الوصول إلى أسبانيا لا خيار أمامي ، إلا الهرب إلى اوديسا ، وركوب باخرة من هناك...

ولكن هذا تصرف صبياني... فماذا عن حرس الحدود . وها أنا أتجه إلى رئيس القسم الرابع في شعبة التجنيد ، والقسم الثالث ، ومن ثم الثاني ، فالأول : أرسلوني إلى إسبانيا! يضحكون : وهل جننت ، لا أحد من جماعتنا هناك ، فما الذي ستفعله أنت ؟... أنا أرى كم أنتم تحبّون التدخين... خذوا علبة الدخان كُلّها! أنا في كل الأحوال احتفظ بها للضيافة... وعندي غيرها في البيت . لا ، لا ما هكذا ، ضعوها إذا سمحتم في حقيبتكم وأغلقوها عندئذ أصدق!... التبغ ، في هذه الأوقات ، «تأشيرة مرور» ، تحتاجون إليه في الطريق... نعم . فجأة أقرأ في جريدة كرسنايا زفيزادا «النجمة الحمراء» ، وأنا لم أكن أترك جريدة إلا وأقرؤها ، يستشهدون بصحفي فرنسي يقول : «ألمانيا والاتحاد السوڤيتي ينظران إلى اسبانيا كحقل للتدريب على الرمي» .

رحت أدقق في الأمر . طلبت ذلك العدد من المكتبة . انتظرت أن تنشر أسرة التحرير تكذيباً لأقوال الصحفي الفرنسي ثلاثة أيام ، لكن لا أثر للتكذيب . عندئذ ذهبت إلى مسؤول شعبة التجنيد وقلت له : «ها ، اقرأ . لم يصدر أي تكذيب ، هذا يعني أننا فعلاً نقاتل هناك . أرجو إرسالي إلى اسبانيا كجندي بسيط!» وإذا به يخبط بقبضته على الطاولة بأشد ما

يستطيع ، صارخاً «أنتم تستفزونني من الذي أرسلكم إليّ ؟ حين تكون هناك حاجة ، نحن نستدعي... هيا ، إلى الوراء دُرْ!»

ضحك ڤاسيا من كل قلبه ، ارتسمت أخاديد الضحك تلك على وجهه من جديد . شعر بارتياح شديد مع هذا الممثل ، وتمنى لو يحكي أيضاً عن مجيء البحارة الاسبان ، وكيف قابلهم بخطاب بالاسبانية... تمنى لو يسأل كيف كان الوضع في المناطق المحاصرة ، ويتحدث ببساطة عن مجريات الحرب مع إنسان ذكي متفهم . ولكن بودشيبياكينا فتحت الباب :

ـ ڤاسيل ڤاسيليتش! مسؤول الحركة يسأل هل تريدون شيئاً من ٧٩٤ ؟ فهو جاهز لدخول المحطة .

نظر زوتوف إلى الجدول :

ـ أي واحد هذا ؟ إلى بوڤورينو ؟

ـ نعم

ـ وهل وصل ؟

ـ سيصل خلال عشر دقائق .

ـ يبدو أن الحمولة الخاصة بنا قليلة هنا ، ماذا يحمل أيضاً ؟

ـ هناك حمولة صناعية ، وعدد من عربات الركاب .

ـ أخ... رائع ، رائع يا إيغور ديمنتيڤيتش ، هذا هو القطار الذي سأسفركم عليه! إنه يناسبكم جداً ، لن تضطروا لمغادرته . لا ، يا ڤاليتشكا حمولتنا هناك كاملة ، يمكن السماح له بالدخول . دعيهم يستقبلونه قريباً منا ، هنا ، على الرصيف الأول ، أو الثاني ، قولي لهم ذلك .

ـ حسناً يا ڤاسيل ڤاسيليتش .

ـ وفيما يتعلق بالأغطية ، هل بلّغت ؟

ـ تماماً ، ڤاسيل ڤاسيليتش .

خرجت ڤاليا .

ـ لكن يؤسفني بحق أن لا طعام لدي أقدمه لكم ، وحتى خبز جاف لم يبق لدي في درج الطاولة ـ سحب زوتوف الدرج ، كما لو أنه لم يكن متأكداً تماماً ، فربما بقيت فيه بعض كسرات الخبز ، ولكن حصته كانت كبقية الحصص ، أمّا الخبز الذي أحضره معه إلى النوبة ، فأكله منذ الصباح ـ فأنتم مذ تخلفتم عن القطار لم تأكلوا شيئاً ؟

ـ لا تقلقوا بحق الله يا ڤاسيل ڤاسيليتش ـ وضع تڤيريتينوف يده على صدر قميصه العسكري ذي الأزرار المتنوعة ، فارشاً أصابعه الخمس ـ فأنا ممتن لكم بلا حدود ـ نظرته وصوته ما عادا حزينين كما كانا ـ فأنتم دفأتموني ، ودفأتم روحي... أنتم إنسان طيب ، ما أعظم ذلك في هذا الزمن الصعب . والآن ، لو سمحتم أوضحوا لي إلى أين عليَّ الذهاب ، وما الذي سيكون علي فعله ؟

ـ في البداية ستذهبون ـ شرح له زوتوف بكل سرور ـ إلى محطة غريازي . للأسف ليس لدي خارطة . أتتصورون أين تقع المحطة ؟

ـ ليـ ...س تماماً... أظنني سمعت بها .

ـ إنها محطة مشهورة! إذا وصلتم إلى غريازي نهاراً ستذهبون مع بطاقة الالحاق ، سأدون عليها ملاحظة : أنكم كنتم عندي هنا ، ستذهبون إلى الآمر العسكري هناك ، وسيكتب إلى مركز التموين هناك ليسلموكم حصة عن يومين .

ـ أشكركم جداً .

ـ أما إذا وصلتم ليلاً ، فانتظروا في القطار ، ولا تخرجوا ، تمسكوا بهذا القطار! لو أنكم بقيتم محشورين في الأغطية ، وما استيقظتم لأوصلكم القطار!... سيتجه قطاركم من غريازي إلى بوفورينو ، ولكن احذروا لا تتأخروا في مركز التموين في بوڤورينو! ومن هناك سينقلكم إلى أرتشيدا . وهناك في أرتشيدا ستجدون قافلتكم رقم ٢٤٥٤٣٠ .

سلّم زوتوف لتڤيريتينوف بطاقة الإلحاق ، وبينما كان يحشرها في جيب قميصه في ذلك الجيب ذاته ، الذي كان زره ما يزال عالقاً ، سأل تڤيريتينوف :

ـ أرتشيدا ؟ لم أسمع في حياتي بها ، أين تقع ؟

ـ لنقل إنها بالقرب من ستالينغراد .

ـ بالقرب من ستالينغراد . تمتم تڤيريتينوڤ . تقطب جبينه ، وهو يفكر مجاهدا من دون جدوى ، وأخيراً سأل :

ـ المعذرة... ستالينغراد... ماذا كان اسمها من قبل ؟

فجأة انهار كل شيء ، وسرت القشعريرة في جسد زوتوف! أيعقل أن يوجد شخص سوڤيتي لا يعرف ستالينغراد ؟ لا ، لا يمكن لهذا أن يكون! قطعاً لا! ولا بشكل من الأشكال! هذا أمر لا يقبله الذهن! ومع هذا استطاع زوتوف أن يضبط نفسه . تماسك . عدل وضع نظارته وقال ، تقريباً ، بهدوء :

ـ كانت تدعى قبلاً تساريتسين .

(يعني ، ليس من المحاصرين ، مبعوث خاص! عميل! مهاجر أبيض... ولذلك فهو يتصرف بهذا الشكل الغريب)

ـ آ! فعلاً ، فعلاً ، تساريتسين ، دفاع تساريتسين .

(أوَ ليس هو ضابطاً متخفياً في هذه الملابس ؟ أجل ، أجل... ألم يسأل عن الخارطة ؟... لكنه زودَها في اختيار ملابسه)

الكلمة العدائية «ضابط» التي لم يعد لها أثر في الحديث الروسي ، حتى وهي تمر في الخاطر ، وخزت زوتوف كالحربة .

(آخ... تبهلل! تبهلل! هكذا إذن... الهدوء واليقظة يا زوتوف... ولكن ما العمل الآن ؟ ما العمل الآن ؟)

رن زوتوف هاتف العمليات رنّة طويلة ، وضغط السماعة على أذنه راجياً أن يرفع النقيب في الجهة المقابلة سماعة هاتفه . لكن النقيب لم يجب .

ـ ڤاسيل ڤاسيليتش ، أنا في الحقيقة محرج منكم ، فقد أتيت على تبغكم!

ـ لا عليك ، العفو . تمتم زوتوف

(إيه ، يا لي من أبله! فقدت عقلي ، لم أعد أدري بماذا أرضي عدوي...)

ـ إذن ، اسمحوا لي أن أدخن عندكم مرّة أخرى ، أم عليّ أن أدخن في الخارج ؟

(يريد أن يخرج ؟! لقد فهم أنه أرتكب خطأ ، وها هويريد الهروب)

ـ لا ، لا ، دخنوا هنا ، أنا أحب رائحة الدخان .

(كيف أحل المشكلة ؟ ماذا أفعل ؟...)

رن جرس الهاتف ثلاث رنات متتاليات . رفعوا سماعة الهاتف :

ـ المخفر معكم .

ـ زوتوف يتكلّم .

ـ اسمعكم أيها الرفيق الملازم .

ـ أين غوسكوف ؟

ـ لقد... خرج أيها الرفيق الملازم .

ـ إلى أين خرج ؟ ماذا يعني خرج ؟ اسمع ، ابحث عنه ، ليحضر خلال خمس دقائق إلى مكتبه عُلِمْ!

(راح إلى النساء ، سافل)

ـ عُلِمْ ، حاضر .

(ما هو الحل ؟ أين المخرج ؟)

أخذ زوتوف ورقة ، وكتب عليها بخط واضح كبير ، متجنباً رؤية تفيريتينوف له «ڤاليا! ادخلي علينا ، وقولي إن القطار ٧٩٤ سيتأخر لمدة ساعة»

طوى الورقة اتجه صوب الباب ، وقال مادّا يده :

ـ رفيقة بودشيبياكينا! خذي . هذه تتعلق بذاك القطار .

ـ أي قطار ؟ ڤاسيل ڤاسيليتش ؟

ـ ذاك ، الارقام مكتوبة .

استغربت بودشيبياكينا الأمر . نهضت وأخذت الورقة .

عاد زوتوف إلى مكانه بسرعة .

كان تڤيريتينوف قد ارتدى سترته وتجهّز للرحيل .

ـ لعلنا لا نتأخر عن القطار ؟ سأل مبتسماً ، بطيب .

ـ لا ، سيخبروننا .

تمشى زوتوف في الغرفة ، دون أن ينظر إلى تڤيريتينوف . ضب قميصه جيداً تحت حزامه من الخلف . عدّل مكان المسدس من الظهر إلى الجانب . عدّل وضع السدارة الخضراء على رأسه . لم يكن يجد ، على الإطلاق ، ما يفعله ، أو ما يقوله ، فلم يكن زوتوف يجيد الكذب .

لو أن تڤيريتينوڤ يقول شيئاً ، لكنه الآخر صمت وادعاً .

كان الماء ، أحياناً ، يخرخر وراء النافذة في المزراب ، متناثراً ، مترذذاً مع هبات الريح . توقف الملازم قرب الطاولة ممسكاً بزاويتها ، وصار ينظر إلى أصابعه .

لكي لا يلاحظ تڤيريتينوڤ التغير في سلوك زوتوف كان عليه أن ينظر إليه ، لكنه لم يستطع ذلك .

ـ وهكذا... العيد بعد أيام قليلة .

قال زوتوف ذلك وصمت متيقظاً :

(هيا ، اسأل ، اسأل أي عيد ؟ عندئذ ستزول آخر الشكوك)

لكن الضيف استجاب :

ـ بلى...

رماه الملازم بنظرة ، بينما كان هو ما يزال يهز رأسه مدخناً .

ـ تُرى ، هل سيتم العرض في الساحة الحمراء ؟

(أي عرض هناك! هو حتى لم يكن يفكر بهذا ، بل يحاول ببساطة تمضية الوقت)

دُقّ الباب .

ـ اسمحوا لي ، ڤاسيل ڤاسيليتس ؟ ـ مدّت ڤاليا رأسها من فتحة الباب . رآها تڤيريتينوڤ فمد يده باتجاه كيس حاجياته ـ لقد أخرّوا القطار ٧٩٤ بين المحطتين ، سيصل متأخراً ساعة عن موعده .

ـ هكـ... ذا! يا للأسف ـ قال ذلك وقد وخزه الكذب المقرف في صوته ـ حسناً رفيقة بودشيبياكينا .

اختفت ڤاليا .

من مكان قريب خلف النافذة ، كان يتناهى صوت توقف أنفاس القطار ، وطقطقاته التي غدت أبطأ فأبطأ بوصوله إلى رصيف المحطة ، وصل إلى هنا أيضاً ارتجاج الأرض من تحته .

ـ ما العمل إذن ؟ ـ فكّر زوتوف بصوت مسموع ـ عليّ الذهاب إلى مخزن المؤن .

ـ ليكن ، سأخرج أنا إذن ، إلى مكان ما ، ليست مشكلة ، تفضلوا أنتم .

قال تڤيريتينوڤ ذلك بمسحة رضى ، مبتسماً ، وقد وقف الآن وبيده كيسه .

أخذ زوتوف معطفه عن المسمار

ـ ولماذا تعرّضون أنفسكم للبرد في الخارج ، فلن تستطيعوا الدخول إلى صالة المحطة ، الناس هنا يغطون الأرض ، يفترشونها جنباً إلى جنب بأجسادهم ، ألا تريدون الذهاب إلى المخزن برفقتي ؟

قال زوتوف ذلك بصورة غير مقنعة ، فأضاف حين شعر بأن الحمرة تعلو وجهه :

ـ ربما... أنا أستطيع هناك ، تأمين شيء ما لكم تأكلونه .

كيف لتڤيريتينوف ألا يفرح بذلك ، بل هو أشرق وقال :

ـ إن في ذلك طيبة قلب كبيرة من طرفكم ، لم أكن لأجرؤ على طلب شيء من هذا القبيل .

استدار زوتوف . نظر إلى الطاولة ، لمس باب الخزنة ، أطفأ النور :

ـ هيا بنا .

وبينما كان يغلق الباب قال لڤاليا :

ـ إذا ما استدعوني من التليغراف ، فقولي لهم بأنني سأعود قريباً .

خرج تڤيريتينوف قبله في سترته المضحكة ، ولفافات قدميه المرخية ، المتهدلة . خرجا إلى رصيف المحطة عبر الممر المعتم البارد ، بضوئه الأزرق . في ظلمة الليل ، تحت السماء غير القابلة للتمييز كان شيء ما يصفع الوجوه لا هو بمطر ، ولا هو بثلج ، ولا هو بأبيض على الاطلاق .

مباشرة ، على سكة الرصيف الأول كان يقف قطار . كان متشحاً بالسواد ، أكثر سواداً بقليل من السماء ، وهذا ما جعل تخمين حدود عرباته وأسقفها ممكناً . إلى اليسار ، حيث وقفت القاطرة ، فتح رمّاد

الموقد متنفساً النار ، وتساقط الرماد اللاهب الوهاج على متن السكة ، وانتثر هناك على الجانب في الحال . أبعد ، وأعلى ، كأنما في الفراغ تعلّق ضوء كروي أخضر . وعلى جهة اليمين ، فوق العربات ، بالقرب من ذيل القطار ، نوفرت شرارت اللهب . إلى هناك ، إلى شرارات الحياة تلك ، سعت هامات قاتمات أغلبها لنساء مسرعات على الرصيف . اندغمت التنهدات الثقيلة للكثيرين من شيء ما غير مرئي ، موسوق ، جسيم . جروا وراءهم صغاراً باكين ، وآخرين صامتين . واحد ما برفقة آخر لاهث ، دفع بزوتوف جانباً ، ربما كانا يحملان صندوقاً كبيراً . واحد آخر ، وراءَهما ، كان يسحب جرّاً على الرصيف شيئاً ما ، أثقل ، محدثاً ذلك الصريف .

في هذا الوقت بالذات عندما أصبح السفر ذبّاحاً بهذا الشكل ، صار الجميع يصطحبون معهم الأطفال ، والجدات ، وأكياساً لا حول لأحد برفعها عن الأرض ، وسلالاً بحجم الأرائك ، وصناديق بحجم الخزانات .

لولا الرماد الوهاج تحت القاطرة ، لولا الإشارة الضوئية ، لولا الشرارات المتطايرة من مداخن العربات ، لولا ضوء ذلك المصباح الخافت ، الوامض على السكك البعيدة ، هناك ، لكان من الصعب التصديق ، أن قطارات كثيرة التجأت وانمحت هنا ، وأن هذه محطة فعلاً ، وليست غابة دهماء ، أو حقلاً أجرد ، أعد عدته مع بطء تعاقب الفصول ، صاغراً ، للدخول في الشتاء . لكن كانت تتناهى إلى السمع : قعقعة الوصلات ، صفّارة عامل التحويل ، شخير أنفاس القطارات ، خبط الأقدام ، وجلبة الناس القلقين .

- إلى هنا!

دعاه زوتوف إلى ممر يتفرع متنحياً عن الرصيف ، بعيداً عن ذلك القطار ، الذي كان يمكن أن ينقله على خير ما يرام .

كان زوتوف يحمل مصباحاً بزجاجة مطلية بالأزرق ، وكان بين الفينة والأخرى يضيء بين أقدامهما ، كي يتمكن تڤيريتينوف من رؤية الطريق .

ـ أُخ! لولا قليل لكانت سقطت قبعتي! شكا تڤيريتينوف .

سار الملازم صامتاً

ـ ثلج ولا ثلج ، ينحشر خلف الياقة . حاول تڤيريتينوف متابعة الحديث . لا وجود لياقة في سترته .

ـ أمامنا وحل . وسارا في الأوحال البقباقة ، البطّاطة ، فلا مجال لسلوك طريق آخر ، أكثر جفافاً .

ـ قف!! من القادم ؟ صاح الحارس في مكان ما ، قريب من هنا ، بصوت أصم . ارتجف تڤيريتينوف بشدة .

ـ الملازم زوتوف .

وهكذا ، خاضا في الوحل الدبق الذي يعلو الكعب ، ولا يدع القدم تخلص منه ما استطاع ، ملتفين حول مبنى مخزن المؤن ، ليدخلا الجناح من جانبه . خبطا بأقدامهما بقوة ، ونفضا عن أكتافهما الرطوبة .

وعلى ضوء المصباح قاد الملازم تڤيريتينوف إلى البهو ، حيث توجد طاولة عارية مع مقعدين . هنا يتناول حراس المبنى طعامهم ، ويتلقون دروسهم . يبدو أنهم حاولوا هنا من زمان مد شريط لإنارة مصباح كهربائي في هذا المكان ، أما اليوم ، فقد أضاء هذه الغرفة الخشبية ، ، غير المطلية ، مصباح موضوع على الطاولة ، إنارة ضعيفة ، وغير متساوية ، غارت معها الزوايا التي لا يطالها النور في الديجور .

فتح باب غرفة المناوبة . هناك وقف مقاتل في الخلف مضاءً بمصباح كهربائي ، وآخر في الأمام معتماً ، وقف بالباب .

ـ أين غوسكوف ؟ سأل زوتوف بصرامة .

ـ قف!! من القادم ؟ صرخوا في الخارج .

على صوت خطى في الجناح . دخل غوسكوف ، ومقاتل أحمر يركض في أثره .

ـ ها أنا ، أيها الرفيق الملازم .

رفع غوسكوف يده بما يشبه التحية ، رأى زوتوف على وجه غوسكوف الوقح دوماً في هذه العتمة ، الآن ، علامات عدم الرضى والامتعاض لأن الملازم غير المسؤول عنه تقريباً انتزعه من راحته بسبب تافه على الأرجح .

فجأة ، صرخ زوتوف غاضباً :

ـ رقيب غوسكوف! كم خفير يجب أن يقوم بالحراسة لديكم ؟!

لم يرتعب غوسكوف ، ولكنه دهش فزوتوف لم يصرخ قبل الآن أبداً .

أجاب بهدوء :

ـ اثنان حسب التعليمات ، ولكنكم تعلمون أن...

ـ لا ، لا أعلم شيئاً! نفذ على أرض الواقع ما هو مكتوب في جدول الحراسة ، حالاً .

ارتجفت شفة غوسكوف من جديد :

ـ مقاتل بوبنيف! احمل سلاحاً واشغل مكانك في الحراسة ، هيا .

دار ذاك المقاتل الذي أوصل غوسكوف حول قيادته ، خابطاً الأرض بقدمه بقوة ، وخرج إلى البناء المجاور .

ـ وأنتم أيها الرقيب ، ستذهبون معي إلى مكتب الآمرية .

حتى قبل أن يقول زوتوف هذا . كان غوسكوف قد فطن إلى أن شيئاً ما قد حصل .

عاد المقاتل الأحمر ، حاملاً بندقية ذات حربة . خطا بمحاذاة الجميع ، بانضباط ، ثم وقف في الظلمة قرب الباب ، في وضعية الحراسة .

بعد ذلك تملّك الخفر زوتوف ، فلم تعد الكلمات تطاوعه :

ـ أنتم... أنا... ـ قال زوتوف بمنتهى اللطف ، رافعاً عينيه بصعوبة باتجاه تفيريتينوف ـــ. أنا علي أن أذهب الآن في عمل آخر... ـ وهنا راح يؤاوئ بشكل جلي ـ أمّا أنتم ، فاجلسوا هنا ، تفضلوا انتظروا قليلاً .

بدا رأس تفيريتينوف في قبعته العريضة ، بظله المضطرب على الحائط ، وعلى السقف غريباً . كان الشال يطوق عنقه بعدة لفات .

ـ أنتم تتركونني هنا ؟ ولكن يا ڤاسيل ڤاسيليتش ، سأتأخر عن ذلك القطار! من بعد إذنكم أستطيع أنا الذهاب إلى الرصيف .

ـ لا ، لا... أنتم ابقوا هنا...

أسرع زوتوف إلى الباب . فهم تفيريتينوف :

ـ أنتم تعتقلونني ؟! ـ صاح تفيريتينوف ـ ماذا تفعلون أيها الرفيق الملازم ، ولكن على أي شيء ؟! لماذا لا تتركوني التحق بقافلتي!

وبتلك الحركة نفسها ، التي شكره بها قبلاً ، قام الآن واضعاً يده على صدره مباعداً بين أصابعه . خطا خطوتين سريعتين وراء الملازم ، لكن الحارس الفطن أغلق الطريق عليه بالبندقية .

التفت زوتوف إلى الخلف بشكل لا شعوري ، نظر ليرى لآخر مرّة في حياته ، على ضوء المصباح الخافت ، ذلك الوجه ، الوجه القانط قرب التابوت .

ـ ما الذي تفعلونه! ما الذي تفعلونه! ـ صاح تڤيريتينوف بصوت داو كالجرس ـ هذا خطأ لا يمكن تصحيحه أبداً!!

أشاح بيديه البارزتين من كميه القصيرين ، واحدة منهما كانت تمسك بالكيس ، وانتفخ حتى بلغ حجم ظله المجنّح ، وصار السقف يضغط على رأسه .

ـ لا تقلقوا ، لا تقلقوا ـ هدأه زوتوف موأوناً بشدة ، متحسساً بقدمه عتبة الظل ـ سيكون علينا فقط أن نستوضح أمراً واحداً...

وخرج زوتوف .

وخرج وراءه غوسكوف .

معرّجاً على غرفة المسؤول العسكري عن الحركة ، قال الملازم :

ـ ارجئوا تحريك هذا القطار ، أيضاً .

جلس زوتوف في مكتبه ، وكتب :

«إلى غرفة عمليات ن . ك . ڤ . د ، فرع النقل

أحيل إليكم المقبوض عليه في المحطة ، المدعي بأنه من المقاتلين المحاصرين ، إيغور ديمنيتيڤيتش تڤريتينوڤ ، والذي زعم في حديثه معي بأنه تخلف عن قافلته رقم ٢٤٥٤١٣ في محطة سكوبينو...»

ـ استعد! ـ قال لغوسكوف ـ خذ معك مقاتلاً ، وانقله إلى ميتشورينسك .

* * *

مرّت أيام تعقبها أيام ، وانقضت الأعياد ، ولم يغب عن بال زوتوف أبداً ، ذلك الرجل ، ذو الابتسامة المدهشة ، وصورة ابنته في فستانها المخطط .

فعل زوتوف ، ما كان يظن أن عليه فعله...

أهكذا كان يجب فعلاً ، أم ليس هكذا!...

تمنى لو يقتنع بأن تڤيريتينوف بالفعل مخرب متخف... اتصل زوتوف بغرفة عمليات ميتشورينسك :

ـ كنت قد حولت إليكم ، في الأول من تشرين الثاني ، المقبوض عليه تڤيريتينوڤ ، ليتكم تخبرونني بالذي وصلتم إليه معه ؟

ـ هناك ، يستوضحون الأمر! ـ أجابوه بجفاف وصلابة ـ صحيح ، يا زوتوف ، بشأن الحمولة المحترقة حتى ٨٠٪ ، يوجد بعض الغموض في الوثائق . هذ أمر بالغ الأهمية ، يمكن للبعض أن يدفنوا أيديهم من ورائه .

طوال الشتاء خدم زوتوف في المحطة ذاتها ، وفي مهمته ذاتها ، كمساعد للآمر الحربي . وكم من مرّة أراد أن يرفع السماعة ، ويتصل ، ويستخبر ، لكن ذلك يمكن أن يضعه موضع الشك .

في إحدى المرات جاء من قيادة عقدة المواصلات أحد المحققين في مأمورية عمل . سأله زوتوف كما لو أن سؤاله جاء عرضاً في مجرى الحديث :

ـ ألا تذكرون ، واحداً اسمه تڤيريتنوڤ ؟ كنت قد قبضت عليه في الخريف .

ـ ولماذا تسألون ؟ بدا التجهم على وجه المحقق واضحاً .

ـ لا لشيء... هكذا... من الطريف معرفة مصيره ؟

ـ لا عليك ، يقومون هناك بواجبهم ومع تڤيريتنوڤكم أيضاً ، سيعترف بكل شيء فلا مجال للخطأ عندنا .

لم يستطع زوتوف ، بعد ذلك اليوم ، أن ينسى طوال حياته ذلك الرجل...

١٩٦٢

ألكسندر سولجنتسين

نوبل ١٩٧٠

- كاتب روسي ولد في ١١ كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٨ ولايزال على قيد الحياة .
- منح جائزة نوبل في عام ١٩٧٠ .
- كتب عن معسكرات العمل الإجباري في الاتحاد السوفييتي . وبسبب الحرب الباردة والصراع الإيديولوجي بين الرأسمالية والاشتراكية اعتبره الغرب (الرأسمالي) علامة فارقة في الأدب الروسي .
- أشهر مؤلفاته : جناح السرطان ، يوم من حياة إيڤان دنيسوفيتش ، الدائرة الأولى ، أرخبيل الغولاغ ، آب (أغسطس) ١٩١٤ .
- يتميز بأفكار رجعية ، ويتمسك بالدعوة إلى نظام سلطوي تقليدي مستمد من التراث المسيحي الروسي القديم ، وهو لا يؤمن بمبادىء الحريات العامة والديمقراطية .

ISBN => 2-84305-174-6
EAN => 9782843051746